المعهد الملكي للدراسات الدينية

رجل سابق لعصره

المعلم بطرس البستاني

١٨١٩ _ ١٨٨٣

يوسف قزما خوري




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رجل سابق لعصره

تمّ إخراج هذه الدراسة على نفقة
محمّد عبد المنعم أسعد

المعهد الملكي للدراسات الدينية

رجل سابق لعصره

المعلم بطرس البستاني

١٨١٩ ـ ١٨٨٣

يوسف قزما خوري



بيسان

تأسس المعهد الملكي للدراسات الدينية في عمان سنة ١٩٩٤. وهو يهدف إلى تعميق الفهم المتبادل بين الإسلام والمسيحية عن طريق الأبحاث والحوار العلمي.

العنوان: صندوق بريد ٨٣٠٥٦٢، عمان ١١١٨٣،
فاكس ٦١٨٠٥٣-٦-٩٦٢/ المملكة الأردنية الهاشمية

التوزيع: بيسان للنشر والتوزيع
ص.ب. ٥٢٦١/ ١٣ بيروت - لبنان

المحتويات

الفصل الأول
المعلم بطرس البستاني: حياته وأعماله

الفصل الثاني
مجلة الجنان

تمهيد

إن إسباغ صفة «رجل سابق لعصره» على المعلم بطرس البستاني ليس من باب المبالغة والمغالاة، لأن الأعمال المهمة والمفيدة التي خلفها لنا هذا «المحب للوطن» تدل دلالة واضحة على أن هذه الصفة ليست مجانبة للحقيقة ولا مغايرة لها بشيء، لا بل إن لسان حاله يقول: «هذه آثارنا تدل علينا».

لقد قام بوضع مآثر علمية مميزة لتعميم المعرفة تتناول حقولاً فكرية ونواحي اجتماعية متعددة باللغة العربية، لا يزال أبناء الضاد في عصرنا هذا يعتمدون عليها في دراساتهم وأبحاثهم، تشهد له بالريادة وقصب السبق، وتعتبره من أهم أركان النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر، أو على حد قول معاصره وزميله في مشاق التدريس والتأليف والترجمة، الدكتور كرنيليوس فان ديك: إنه كان «السابق إلى كل مأثرة علمية، وعالمنا وغارس أفنان المعرفة في وطننا».

نقتطف من هذه المآثر ما يلي على سبيل المثال:

أولاً: صرخة الحق التي أطلقها في بيروت ما بين سنتي ١٨٤٧ و١٨٥٢ على أعضاء «الجمعية السورية» داعياً إلى «تعليم النساء» لأن العلم ليس وقفاً على الرجال، وذلك كي تصبح المرأة في مجتمعها عضواً مهماً يؤهلها القيام بالواجبات الملقاة على عاتقها كما يجب.

ثانياً: صرخته المدوية سنة ١٨٦٠، مستنكراً الأعمال البربرية التي جرت في الحرب الأهلية في لبنان، داعياً إلى الالفة والاتحاد في نشرته الدورية التي دعاها نفير سورية. ثم تأسيسه «المدرسة الوطنية» في بيروت سنة ١٨٦٣ لتطبيق مبادىء الوحدة الوطنية التي نادى بها، بحيث تكون أبواب هذه المدرسة «مفتوحة

على «مصراعيها لجميع أبناء الوطن، لأن ذلك هو السبيل الأمثل والوحيد الذي يجب أن تسلكه المدارس في ربوع بلادنا المتشعبة المذاهب والمشارب والتيارات».

ثالثاً: تأليفه كتاب **محيط المحيط**، سنة ١٨٦٩، كقاموس لمفردات اللغة العربية، وذلك «خدمة للجيل الحاضر والأجيال المستقبلة» لأن الإختلاف السائد لمعاني الألفاظ بين الناطقين بالضاد كان «عقبة كأداء في سبيل تعميم هذه اللغة».

رابعاً: تأليفه كتاب **دائرة المعارف**، سنة١٨٧٦، لتعميم المعرفة ولترقية «أسباب التمدن والثروة والرفاهية والعلوم والمعارف».

هذا غيض من فيض، يضيق المجال في هذه العجالة لتعداد جميع مآثره التي تقول لنا بصوت عال «إن التشبه بالكرام فلاح».

وأخيرا، إن الواجب المقدس يحتم عليّ تقديم خالص الشكر إلى أستاذي الكريم الدكتور كمال الصليبي لإشرافه على هذه الدراسة، وللسيدة ميرنا البستاني لمساهمتها في طباعتها، راجياً أن تقدم بعض الفائدة للباحثين في تسهيل دراساتهم حول تتبع معالم النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر.

بيروت في ٢٠ آذار ١٩٩٥ **يوسف قزما خوري**

الفصل الأول

المعلم بطرس البستاني: حياته وأعماله

آل البستاني

يعود أصل عائلة البستاني في لبنان إلى أسرة كان أفرادها يشتغلون بالزراعة في قرية بقرقاشا[١] التي تبعد خمسة كيلومترات عن بلدة بشري وسبعة وأربعين كيلومتراً عن مدينة طرابلس في محافظة لبنان الشمالي، وترتفع حوالي ١٤٥٠ متراً عن سطح البحر. وكان لهذه الأسرة بستان خصب التربة، عامر، اشتهر بين ممتلكات القرية شهرة فائقة لدرجة أن شهّر صاحبه حتى عرف به. فدعي صاحب البستان هذا «البستاني»[٢] وفي سنة ١٥٦٠ حدث ما نكّد عيش صاحب البستان أبي محفوظ، الجد المعروف لهذه العائلة، فغادر قرية بقرقاشا مع ولده محفوظ[٣] وأخوته الثلاثة متوجهاً نحو دير القمر التي كانت وقتئذ أهم مدينة في جبل لبنان. وفي أثناء الرحلة تخلف أحد أخوة أبي

---

(١) بقرقاشا: لفظة سريانية تعني «مكان البرد والصقيع، وهذا أقرب إلى وصف المكان». أنيس فريحة، أسماء المدن والقرى اللبنانية وتفسير معانيها. بيروت، الجامعة الأميركية، ١٩٥٦، ص ٥٥. بينما يذكر عيسى اسكندر المعلوف أن أصل أسرة البستاني من جبلة بالقرب من اللاذقية في سوريا «جاء جدها إلى ضهر صفرا في عكار فبقرقاشة في جبة بشري». عيسى اسكندر المعلوف، دواني القطوف في تاريخ بني معلوف. بعبدا، ١٩٠٧. ص ٣٤٠. «البستاني» دائرة المعارف. بيروت، مطبعة المعارف، ١٨٨١. ج٥ ص ٤١٦.

(٢) فؤاد أفرام البستاني، المعلم بطرس البستاني (سلسلة الروائع رقم ٢٢). بيروت، الآداب الشرقية، ١٩٥٠. ص «أ».

(٣) المصدر ذاته. يذكر أن أبا محفوظ غادر بقرقاشا مع أخوته الثلاثة وأولاده محفوظ وعبد العزيز وناضر.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محفوظ فأقام في قرية غادير من أعمال منطقة كسروان وامتد نسله إلى صربا وساحل مدينة بيروت. أما بكر أولاد «البستاني» فيقال إنه «العداوة دموية رحل إلى ضهر صفرا مـن أعمـال عكـار (فـي لبنـان الشمـالـي) ونسلـه هنـاك يـدعـى الآن [١٨٨١] بيـت محفوظ[١]. بينما توطن أبو محفوظ وأخواه في دير القمر وتكاثر نسلهم فيها. وفي أوائل القرن الثامن عشر انتقل بعض أفراد آل البستاني مع عائلاتهم إلى مزرعة الدلهمية من أعمال إقليم الخروب ثم انتقلوا إلى مزرعة الدبية فعمروها وانتشروا في ضواحيها وأصبح أكثر سكانها من آل البستاني[٢]. وفي قرية الدبية ولد بطرس البستاني، «السابق إلى كل مأثرة علمية» في القرن التاسع عشر،[٣] «وعالمنا وغارس أفنان المعارف في وطننا»[٤].

بطرس البستاني: نشأته وتحصيله العلوم[٥]

هو بطرس بن بولس بن عبد الله بن كرم بن شديد بن أبي شديد بن محفوظ بن أبي محفوظ البستاني. ولد في قرية الدبية من إقليم الخروب في جبل لبنان في شهر تشرين الثاني سنة ١٨١٩. وحينما ترعرع أخذ يدرس اللغتين العربية والسريانية في مدرسة

---

(١) «البستاني»، دائرة المعارف. ج٥ ص٤١٦. يتجاهل كل من الدكتور فؤاد أفرام البستاني وعيسى اسكندر المعلوف سبب رحيل محفوظ إلى ضهر صفرا بالرغم من أن دائرة المعارف الصادرة سنة ١٨٨١ أوردته.

(٢) المعلوف، دواني القطوف. ص ٣٤٠.

(٣) «رواية صائبة» [تأليف أليس البستاني]. المقتطف ج١٦ (١٨٩٢) ص ٤٩٦.

(٤) «خطب عظيم ومصاب عميم». المقتطف ج٩ (١٨٨٤) ص ٤٨.

(٥) اعتمـدت علـى المقـالـة التي وردت فـي المقتطـف تحـت عنـوان «المـرحـوم المعلـم بطـرس البستاني». المقتطف ج٨ (١٨٨٣) ص ١ ـ ٧ والتي ذكر انها «أخذت عن ثقات الرواة». ولقد نقلتها دائرة المعارف بحذافيرها تحت مادة «دائرة المعارف». ج٧ ص ٥٨٩ ـ ٦٠٨ وزيد عليها ما أوردته الجرائد والمجلات من رثاء لبطرس البستاني أثر وفاته. ثم جمعت في أعلام المقتطف. القاهرة، مطبعة المقتطف، ١٩٢٥ ج١ ص١١٨ ـ ١٢٣ واعتمدت أيضاً على مقالة جرجي زيدان «بطرس البستاني» الهلال ج٤ (١٨٩٦) ص ٣٦٣ ـ ٣٦٨ التي جمعها في تراجم مشاهير الشرق. القاهرة، مطبعة الهلال، ١٩٠٧ ج٢ ص ٢٧ ـ ٣٣ والتي ذكر أنها اقتطفت «مما كتبته جرائد الشام على أثر وفاته وأثبتته دائرة المعارف في جزئها السابع ومما عرفناه بنفسنا من آثار اجتهاده وفضله».

القرية التي كان الخوري ميخائيل البستاني يقوم بمهمة التدريس فيها بناء على تكليف من مطران أبرشية صيدا[1] ، المطران عبد الله البستاني[2]. ولقد اهتم الخوري المذكور بتلميذه بطرس غاية الاهتمام لما لاحظ من انكبابه على أخذ العلوم وارتياحه إلى احرازها بالإضافة إلى ما أبداه من الذكاء والنجابة فميّزه على أقرانه وأطلع المطران عبد الله البستاني على خبره وخبر ذكاء ابن الخوري يوسف البستاني (الذي أصبح المطران بطرس البستاني)[3]. فاستقدمهما إلى مقر أبرشيته في بيت الدين حيث تحقق لديه ذكاءهما ومضاء عزيمتهما واجتهادهما لتحصيل المزيد من العلوم فأرسلهما إلى مدرسة عين ورقة[4] التي كانت حينئذ تُعَدُّ من أرقى المدارس العالية الوطنية النصرانية

---

(١) كانت أبرشية صيدا لطائفة الموارنة تمتد من عكا في الجنوب إلى نهر الدامور في الشمال وحتى جبل الشيخ في الشرق. وكان دخلها السنوي يبلغ ١٢,٠٠٠ غرشا. المشينري هيرلد. ج٤١ (١٨٤٥) ص ٣١٤.

(٢) ولد سنة ١٧٨٠ في قرية الدبية والتحق بمدرسة عين ورقة سنة ١٧٩٣ وسيم مطراناً سنة ١٨١٩ وعرف بجودة صوته. ولقد قرّبه الأمير بشير الشهابي الكبير حاكم لبنان، لحسن سيرته وسريرته ودعته. أسس مدرسة مشموشة سنة ١٨٣٨ وتوفي سنة ١٨٦٦. «البستاني» دائرة المعارف، ج٥ ص ٤١٥، والمعلوف، دواني القطوف، ص ٣٤٠.

(٣) هو حفيد شقيق المطران عبد الله البستاني. ولد في الدِّبية في أواخر شهر كانون الأول ١٨١٩. سيم مطراناً سنة ١٨٥٦ وعين مساعداً للمطران عبد الله البستاني ثم خلفه على أبرشية صيدا سنة ١٨٦٦. توفي سنة ١٨٩٩. راجع ترجمته تحت مادة «البستاني» دائرة المعارف»، ج٥ ص ٤١٥ - ٤١٦: والمعلوف، دواني القطوف، ص ٣٤٠ - ٣٤١. من أجل نزاعه مع رستم باشا، متصرف لبنان، راجع لسان الحال عدد ٦٠ (٦ حزيران ١٨٧٨) ص ١. وعدد ٦٦ (٢٧ حزيران ١٨٧٨) ص ١. وعدد ٧٢ (١٨ تموز ١٨٧٨) ص ١. وعدد ١٥١ (٢١ نيسان ١٨٧٩) ص ١. وشاكر الخوري، مجمع المسرات. بيروت، الاجتهاد، ١٩٠٨. ص ٢٨.

(٤) يذكر المعلم بطرس البستاني، في خطاب ألقاه في ١٥ شباط ١٨٥٩، مدرسة عين ورقة بقوله: «يسوغ لنا أن نقول بحق إنها أم المدارس الوطنية في هذه البلاد وقد انشئت في أواخر الجيل الماضي (سنة ١٧٩٣) ومن اطلع على شدة غباوة الأزمان التي انشئت فيها وافتقار الأهالي قاطبة في تلك الأيام إلى العلوم يتبين له فضل المطران يوسف اسطفان منشئها ويزيد اعتبار فضله عند من يقف على المقاومات التي حصلت عندما رفع الراهبات من دير عين ورقة ووزعهن على الأديرة ووضع مكانهن فتياناً يتعلمون بنية الإفادة والتعليم. ولا ينبغي أن ننسى فضل مساعي سيادة المطران يوسف رزق، رئيس المدرسة المذكورة حالاً، فإنه قد زادها قوة بواسطة زيادته أوقافاً على أوقافها ورونقاً بواسطة الأبنية الجديدة والإصلاحات العديدة التي أحدثتها همته ونشاطه، وقد امتد فضله إلى الواقف أمام سيادتكم» بطرس البستاني، خطبة في=

في بلاد الشام. تلقى بطرس البستاني في هذه المدرسة «فنون الأدب في لغة العرب من صرف ونحو وبيان وعروض ومنطق وتاريخ وحساب وجغرافية. وأخذ اللغات السريانية واللاتينية والطليانية وحصل الفلسفة واللاهوت الأدبي والنظري ومبادىء الحق القانوني»[١]. وقد صرف عشر سنين في مدرسة عين ورقة يتعلم ويعلم محفوفاً بمزيد غيرة المطران يوسف رزق[٢] الخصوصية عليه «ومشمولاً بأنظاره ورعايته»[٣]. وحين جاوز العشرين من عمره ودَّ بطريرك الطائفة المارونية ارساله إلى مدينة رومية طلباً للتوسع في العلوم الدينية بعد أن أحرز جميع العلوم التي تعلمها في مدرسة عين ورقة. فمانعت والدته من ارساله وكانت قد ترملت حين كان في الخامسة من العمر وكان لها ثلاثة بنين. ولذلك بقي يعلم في مدرسة عين ورقة بالإضافة إلى قيامه بتنفيذ بعض المصالح العامة التي كان البطريرك يوسف بطرس حبيش[٤] يكلفه بتنفيذها إلى أن دخلت سنة ١٨٤٠ حيث غادر المدرسة متوجهاً إلى بيروت وهناك تعلم الإنكليزية[٥] والعبرانية واليونانية.

اتصاله بالمرسلين الأميركان

عند وصول المراكب الحربية الإنكليزية إلى بيروت لمساعدة الدولة العلية العثمانية للقضاء على جيش إبراهيم باشا ونصيره الأمير بشير الثاني الكبير خلال شهر

= آداب العرب. بيروت، لا. ت. ص ٣٦ ـ ٣٧.

(١) «المرحوم المعلم بطرس البستاني». المقتطف ج٨ (١٨٨٣) ص ١. «دائرة المعارف». ج٧ ص ٥٨٩.

(٢) رئيس مدرسة عين ورقة حينما كان بطرس البستاني يتعلم فيها. خطبة في آداب العرب ص ٣٧.

(٣) المصدر ذاته. ص ٣٧.

(٤) الميشنري هيرلد. ج٤١ (١٨٤٥) ص ٣١٤.

(٥) يذكر الطيباوي بأنه ليس هناك أي دليل بأنه تعلم الإنكليزية قبل ذلك.

«It is often stated that he was employed by the British army as an interpreter in the autumn of 1840 but there is no evidence that he had begun to learn English before that time».

A. L. Tibawi. «The American Missionaries in Beirut and Butrus al - Bustani» . *Middle Eastern Affairs.* St. Anthony's papers No. 16 p. 157. Henceforth cited الطيباوي

أيار من سنة ١٨٤٠ استخدم ضباط مفرزة الجنود البريطانيين بطرس البستاني[١] وتلاميذ مدرس المرسلين الأميركان كمترجمين[٢]. وأثناء ذلك قدم طلباً لهؤلاء المرسلين للعمل معهم كمدرّس للغة العربية، وكان يعرف العربية وعلومها جيداً، «وكان المرسلون الأميركان في ذلك العهد يقاسون عذاباً شديداً في التفتيش عن معلمين يليقون لتعليم اللغة العربية[٣]» ولكن رُفض طلبه[٤]، لأن أعضاء الإرسالية اضطروا إلى مغادرة بيروت في حزيران متوجهين إلى القدس بسبب الحرب القائمة بين القوات الإنكليزية والجيش المصري مما كان يشكل خطراً على المرسلين لأن «جبل لبنان لا يحمي الأجانب وخصوصاً المرسلين»[٥]. ولذلك اضطر بطرس البستاني أن يبقى في بيروت يطالع الكتب ويدرس[٦]. وعندما أعاد المرسلون الأميركان فتح مدرستهم في بيروت

---

(١) «المرحوم المعلم بطرس البستاني» المقتطف ج٨ (١٨٨٣) ص ١. «دائرة المعارف»، ج٧ (١٨٨٣) ص ٥٨٩. «رسالة مستر طومسون». الميشنري هيرلد. ج٣٧ (١٩٤١) ص ٢٧.

(٢) شاهين مكاريوس، «المعارف في سورية». المقتطف ج٧ (١٨٨٣) ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧: الميشنري هيرلد ج٣٧ (١٨٤١) ص ٣٠٢. «مذكرات الدكتور فان ديك من سنة ١٨٣٩ ـ ١٨٥١» الهلال ج١٤ (١٩٠٦) ص ٢٠٣.

(٣) «مذكرات الدكتور فان ديك» الهلال ج١٤ (١٩٠٦) ص ٢٠٤.

(٤) يذكر المرسل الأميركي وليم طومسون (William Thomson) أن اثنين من خريجي مدرسة عين ورقة المارونية، أحدهم كان يدرّس فيها اللغة العربية واللغة السريانية، قدم كل منهما طلباً للعمل مع الإرسالية، ولكن يتأسف لرفض طلبهما. «Letter from Mr. Thomson» الميشنري هيرلد ج٣٧ (١٨٤١) ص ٢٧.

(٥) «مذكرات الدكتور كرنيليوس فان ديك». الهلال ج١٤ / ١٩٠٦).

(٦) اعتمدت هنا على رسالة المرسل الأميركي وليم طومسون المؤرخة في ١٠ آب ١٨٤٠ والمرسلة من عاريا. لم تذكر الرسالة اسم بطرس البستاني صراحة بل أشارة إليه ب «خريج مدرسة عين ورقة» والمرجح عندي أنها كانت تقصده لأنه طالما أشارت إليه بذلك رسائل المرسلين الأميركان التي كانت تنشرها مجلة الميشنري هيرلد، الناطقة الرسمية بلسان المجمع الأميركي لمندوبي البعثات التبشيرية.

ولأهمية ذلك سأورد نص الفقرة المتعلقة بذلك بحذافيرها:

There have been two applications for employment which I greatly regretted to refuse. These were two grammar - masters from the Maronite College of Ain Warka. They are very interesting men, and one of them has been a teacher in the College both in Arabic and Syriac... One of them being dependent, was obliged to leave; the other remains at beyroot reading and studying, and should we ever have a little =

في أوائل تشرين الثاني سنة ١٨٤٠ التحق بالمدرسة كمدرس للغة العربية[1]. وعلق هؤلاء المرسلون عليه أعظم الآمال[2] لما كان يبذله من الحماس بالإضافة إلى أنهم كانوا يعتقدون أنه باستطاعة المواطن المثقف القيام بالمهمات التي يقوم بها المرسل الأجنبي بصورة أفضل[3]. وفي شباط سنة ١٨٤١ عاد الدكتور كرنيليوس فان ديك (Cornelius Van Dyck) من القدس إلى بيروت فتعرف على بطرس البستاني وكان كلاهما عزبين فسكنا معاً في بيت واحد (وكان فان ديك يسكن في بيت المرسل الأميركي عالي سمث (Eli Smith) الموجود وقتئذ في الولايات المتحدة[4]) «وارتبطا من ذلك العهد برباط المودة والصداقة، وبقيا على ذلك طول الأيام حتى صار يضرب

= more sea - room, we may yet derive important aid from them. «Letter form Mr. Thomson». *Missionary Herald Vol.* XXXVII (1841) p. 27.

وأما الدكتور كرنيليوس فان ديك، المرسل الأميركي والطبيب الشهير فيؤكد في مذكراته بأن هذين الشابين هما يوسف الخازن وبطرس البستاني حيث يقول: «البستاني والخازن. وفي شتاء سنة ١٨٤٠ ـ ١٨٤١ كانت المدرسة لا تزال عاملة فجاءها شابان مارونيان من تلامذة البطريركية المارونية في عين ورقة يطلبان اعتناق المذهب الإنجيلي والاشتغال وهما الشيخ يوسف الخازن بن الشيخ انطون الخازن من غسطة وبطرس البستاني من الدبية وكان هذا الأخير تلميذاً في المدرسة المذكورة ثم أستاذاً فيها يعرف العربية وعلومها جيداً وله إلمام بالسريانية وكان قد تعلمها وترشح للكهنوت فاستخدمه المرسلون معلماً في مدرستهم حالاً وأما الشيخ يوسف الخازن فدخل تلميذاً ومعلماً معاً». «مذكرات الدكتور كرنيليوس فانديك». الهلال ج١٤ (١٩٠٦) ص ٢٠٤.

(١) الميشنري هيرلد ج٣٦ (١٨٤٠) ص ٣٥٠.

(٢) *A Brief Chronicle of the Syria Mission.* Beirut, 1909 P. 6.
«The young man who came to us from Ain Warka has exhibited much professional Zeal as a teacher and our expectations concerning him, have more than realized». *Missionary Herald.* Vol. 38 (1842) p. 226.

(٣) راجع التقرير السنوي للإرسالية المؤرخ ٣١ كانون الأول ١٨٣٩ حيث يذكر الأسباب الداعية لإنشاء وكالة وطنية (Native Agency) يذكر فيها بأنه ليس باستطاعة المرسل أن يكتب باللغة العربية أو أن يقرأ بها كالمثقف من أهل البلاد. «Report of Beirut Station» الميشنري هيرلد ج٣٦ (١٨٤٠) ص ٣٥٠.

(٤) «Mission to Syria». الميشنري هيرلد ج٣٧ (١٨٤١) ص ٥ وص ١٧٨.

المثل بصداقتهما»[١]. فاجتمع بذلك «زخمان فكريان عظيمان»[٢] لا بل إن الدكتور فان ديك كان يعده «معلمي وأستاذي ورفيقي»، «فكم من الليالي أحييناها معاً في الدروس والمطالعة والتأليف، وحلاوة المعاشرة الصادرة عن اتحاد المقاصد والأغراض»[٣]، كما دعاه «أخي وحبيبي. . . شريكي في مشقات التأليف وخسائره».

وإثر انتهاء زيارة عالي سميث إلى الولايات المتحدة ووصوله إلى بيروت في ٢٤ حزيران سنة ١٨٤١ واستلام مهامه كمشرف على أعمال المطبعة الأميركانية تعرّف على بطرس البستاني وأخذت الاتصالات بينهما تتكرر وتأخذ طابع الحوار حول الأمور الدينية التي يجيدها كل منهما نتيجة لطبيعة ثقافتهما الدينية، فأتت هذه المناقشات ثمارها حيث انضم البستاني إلى المذهب الانجيلي الذي كان سميث يبشر به. وكتب سميث مقالات باللغة الإنكليزية توضح جوهر عقيدة المذهب الإنجيلي فترجمها البستاني إلى اللغة العربية تحت عنوان كتاب **الباب المفتوح في عمل الروح** (بيروت ١٨٤٣). ويظهر أن هذه المقالات كتبت للنخبة المثقفة من الوطنيين المعتنقي المذهب الإنجيلي أمثال بطرس البستاني وميخائيل مشاقة وطنوس الحداد وإلياس فواز، العاملين مع المرسلين الأميركان، ولم تكتب لعامة الشعب حتى ولا لطلاب مدارس المرسلين[٤]. وكان سميث يعتقد بأن العرب شعب عظيم يرتفع بنقاوة الكتاب المقدس، إذا ما أخذه، إلى مكانة مرموقة بين الأمم، حيث أمم قليلة تطمح أن تصل إلى تلك المكانة. بالإضافة إلى ما يتحلون به من مزايا متعددة تخولهم أن يصبحوا مبشرين يشار إليهم بالبنان[٥]. ولذلك كان يسعى جاهداً أن يجعل من البستاني قسيساً

---

(١) «المرحوم المعلم بطرس البستاني». **أعلام المقتطف**، ج١ ص ١٨١: و«الدكتور فان ديك». **الهلال** ج٤ (١٨٩٥) ص ٤.

(٢) فؤاد صروف «تطور الفكر العلمي العربي في المئة العام الأخيرة». **الأبحاث** ج١٥ (١٩٦٢) ص ١٦٣.

(٣) «خطاب الدكتور فان ديك في تأبين المعلم بطرس البستاني». **دائرة المعارف**. ج٧ (١٨٨٣) ص ٥٩٣.

(٤) الطيباوي، ص ١٥٨.

(٥) رسالة عالي سميث المؤرخة في ٦ حزيران ١٨٤٤. **الميشنري هيرلد** ج٤٠ (١٨٤٤) ص ٣٥٢.
«The Arabs are a wonderful people. They have the elements of a noble character. Give them the Gospel in its purity, let them feel the quickening power of the =doctrines of grace, and they will rise to a place among the nations of the earth that

بينما كان هذا الأخير يدرك تمام الإدراك أن عليه أن يستعمل مواهبه إلى أقصى الحدود لتشمل آفاقا أوسع من الحقل الضيق الذي يشغله رجل الدين، الشيء الذي دعاه أن يرفض كلياً فكرة رسامته قسيساً وأبى مجرد أعتباره مرشحاً للقسوسية[١]، بالرغم من استعداده للقيام بأعمال التبشير وإلقائه عظة صلاة الأحد أثناء مرض عالي سميث عوضاً عن هذا الأخير[٢]. وتجلت أعماله التبشيرية، بصورة خاصة، عند انضمام جماعة من طائفة الروم الأرثوذكس في بلدة حاصبيا في جنوب لبنان إلى المذهب الأنجيلي سنة ١٨٤٤ وطالبوا بتأسيس مدرسة في بلدتهم فأرسل البستاني وإلياس فواز لتأسيسها[٣]. فكانا يشتركان بالتدريس بصورة منتظمة ويجعلان جماعة الطائفة الإنجيلية تجتمع للتعبد والصلاة مرة مساء كل يوم من أيام الأسبوع وثلاث مرات كل يوم سبت، كما اهتما بعناية أن تعتاد تلك الجماعة على ترديد الصلاة الربانية والوصايا العشر بعد كل صلاة. وتذكر تقارير المرسلين الأميركان المرسلة إلى المجمع الأميركي للبعثات التبشيرية في بوسطن بأن الفضل في عملهم المثمر والنجاح الذي يلاقونه في حاصبيا يعود جميعه إلى الجهود التي يبذلها بطرس البستاني[٤].

استمر عمل البستاني في حاصبيا طيلة سبعة أشهر حتى الأول من شهر تشرين الأول سنة ١٨٤٤[٥]، كانت تتخللها بعض المضايقات من رجال الدين الأرثوذكس فكان يحاول حلها إما بواسطة اتصاله المباشر مع مطران الطائفة الأرثوذكسية[٦] أو بالاتصال مع الأمير حاكم منطقة حاصبيا[٧]. وخلال ذلك الصيف بلغت تلك المضايقات أقصاها حيث أخذت ترتدي طابع الاضطهاد الديني لطائفة الانجيليين نتيجة لتأييد السلطة الحاكمة في دمشق لرجال الدين. لم يخف الأمير أسعد شمس، حاكم

---

few can hope to reach». =

«Letter from Mr. Smith». *The missionary Herald.* Vol. 40 (1844) p. 352.

(١) الطيباوي، ص ١٥٨.

(٢) «زيارة مستر سميث الثانية إلى حاصبيا» الميشنري هيرلد ج٤١ (١٨٤٥) ص ١٤٧.

(٣) «رسالة من مستر سميث» الميشنري هيرلد ج٤١ (١٨٤٥) ص ٤٦.

(٤) «رسالة مستر سميث» الميشنري هيرلد ج٤١ (١٨٤٥) ص ١٦.

(٥) «الإضطهاد في حاصبيا» الميشنري هيرلد ج٤١ (١٨٤٥) ص ٢٦٢.

(٦) المصدر ذاته.

(٧) «يوميات مستر هواتين» الميشنري هيرلد ج٤٢ (١٨٤٦) ص ٣٨٥.

منطقة حاصبيا، ذلك بل أخبر بطرس البستاني بأن ازدياد عدد أعضاء الطائفة الانجيلية في حاصبيا هو أمر مخالف لرغبات الحكومة في دمشق[١]. حدد البستاني أسباب ذلك العداء تجاه الطائفة الأنجيلية بأنه ناتج عن زيارة المرسلين الأميركان إلى حاصبيا واقترح في تقريره ابعاد «لابسي البرانيط»، (يقصد بذلك المرسلين الأميركان)، عن الاتصال المباشر بالجماهير ريثما تهدأ نقمة الأهالي على الطائفة الانجيلية، فما كان من المرسلين إلا أن أخذوا باقتراحه فأرسلوا طنوس الحداد وميخائيل مشاقة ويوحنا ورتبات للعمل في حاصبيا إلى أن دخلت سنة ١٨٥١ فعينوا المرسل وليم طومسون والدكتور فان ديك للعمل هناك[٢]. وخلال زيارة البستاني الثانية إلى حاصبيا في ١٨ حزيران سنة ١٨٤٥ برفقة كل من المرسل هرتر (George Hurter) والمرسل هوايتن (George Whiting) ذكر أن الذين انضموا إلى الطائفة الإنجيلية في حاصبيا لم يكونوا ثابتين في إيمانهم ولا يتحلون بالشجاعة التي يتحلى بها جماعة الأرمن الذين انضموا إلى الطائفة الإنجيلية في الآستانة[٣].

هكذا نرى أن البستاني، خلال فترة لا تزيد على أربع سنوات منذ تعرفه على المرسلين الأميركان، عمل معهم كمدرس في مدارسهم، وأستاذ خصوصي يعلم أفراد الإرسالية اللغة العربية، ومبشر عند الحاجة، ومساعد لسميث في المطبعة الأميركية[٤]. وكانت رسائل المرسلين تشيد بهذه الأعمال وتعتبره عضواً بارزاً في الكنيسة الإنجيلية وبأنه أحد أهم مساعديهم[٥]، وعند نشر تقرير المرسلين حول الطوائف الدينية التي تعترف بقداسة البابا رئيساً لها في الديار الشامية ذكر بأن البستاني زودهم بالقسم الأكبر من المعلومات المذكورة في التقرير[٦]. ولعل معظم أعماله هذه كانت تجري بناء على إيعاز من المرسلين الأميركان وبصورة خاصة بناء على إيعاز من عالي سميث أو بعد استشارته، ولكن يظهر أن البستاني أخذ يكوّن لنفسه شخصية مستقلة إذ نراه يؤسس

---

(١) الميشنري هيرلد ج٤٢ (١٨٤٦) ص ٣٨٥. «The growth of this seat is contrary to the wishes of the government». M. H. Vol. 42 (1846) p. 385. (آل شمس هم مشايخ).

(٢) «سوريا» الميشنري هيرلد ج٤٨ (١٨٥٢) ص ٥ وص ٣٣.

(٣) «رسائل من مستر هواتين». الميشنري هيرلد ج٤٢ (١٨٤٦) ص ٤١١.

(٤) الطيباوي، ص ١٥٨.

(٥) «الطوائف الدينية في سوريا» الميشنري هيرلد ج٤١ (١٨٤٥) ص ٣١٩.

(٦) المصدر ذاته ص ٣١٤ ـ ٣١٩.

جمعية أدبية ويخبر سميث في رسالة بعث بها إليه عندما كان هذا الأخير في الولايات المتحدة[١] مؤرخة في ١٠ كانون الثاني سنة ١٨٤٦ يعلمه فيها عن تأسيس جمعية أدبية عربية تدعي «مجمع التهذيب»، ومن أعضائها ناصيف اليازجي المساعد للمرسلين في أعمال المطبعة والذي بقي كاثوليكياً، و١١ عضواً من الطائفة الإنجيلية من الوطنيين والدكتورين كرنيليوس فان ديك وهنري دي فورست (Henry De Forest) الأميركيين. عقدت هذه الجمعية أولى اجتماعاتها في أواخر شهر كانون الأول سنة ١٨٤٥ أو في أوائل شهر كانون الثاني ١٨٤٦ وكان موضوع المناقشة يدور حول إذا ما كان الرق شرعياً[٢]. ومن المرجح أن المرسلين الأميركان قد نقحوا مبادىء هذه الجمعية وعدلوها ودعوها «الجمعية السورية»[٣].

تأسيس مدرسة عبيه

قرر المرسلون الأميركان في أواخر سنة ١٨٤٢ أقفال مدرسة الارسالية في بيروت وانشاء مدرسة في جبل لبنان عوضاً عنها. لذلك ذهب المرسل وليم طومسون (William Thomson) في صيف سنة ١٨٤٣ إلى قرية عبيه واشترى أرضاً هناك كان عليها بناء قديم أصلحه وجعله مسكناً للمرسلين ورجع في الخريف إلى بيروت، وإثر ذلك تم نقل الدكتور كرنيليوس فان ديك من عيتات إلى عبيه «وكان الشتاء قارساً والبيت متخلخلاً فصبرت (فان ديك) على ذلك الشتاء وفتحت مدرسة أعلم فيها الشبان

---

(١) غادر عالي سميث بيروت في ٥ آذار ١٨٤٥ متوجهاً إلى الولايات المتحدة وعاد إلى بيروت في ١٢ كانون الثاني ١٨٤٧. «سوريا» الميشنري هيرلد ج١٨٤٧٤٣) ص ١٠٥ وص ١٧٨: و *A Brief Chronicle of the Syria Mission* (Beirut, 1909) p. 8.

(٢) الطيباوي، ص ١٦١. الذي يعتمد على أرشيف المجمع الأميركي لمندوبي البعثات التبشيرية.

(٣) يعتقد الطيباوي أن «الجمعية السورية» لم تكن من عمل المرسلين الأميركان، وانها كانت واسطة لجمع أعضاء الإرسالية مع عناصر النابهين من المواطنين. الطيباوي، ص ١٦١. بينما تذكر أعمال الجمعية السورية (بيروت ١٨٥٢) (ص «ب») التي أشرف على تحريرها بطرس البستاني «الأعضاء المستوطنون حسب ترتيب دخولهم» الخواجات: وليم طومسون، كرنيليوس فان ديك، انطونيوس الأميوني، نعمة ثابت، نوفل نعمة نوفل، سليم نوفل، جرجس الجمال، طنوس الحداد، الياس فواز، خليل المنير، عبد الله الوتوات، ناصيف اليازجي، عالي سميث، بطرس البستاني. وهكذا يكون البستاني العضو الرابع عشر.

وأعظ». ولاختيار عبيه كمركز للتبشير أهمية بالغة في نظر المرسلين، لأنها كانت «قرية كبيرة عامرة وصحية وفيها اخلاط من الدروز والمارونين والروم الأرثوذكس وبعض الكاثوليك ولأنها كانت وسطاً بين بلاد الدروز وبلاد النصارى»، كما أنهم كانوا يخططون لانشاء مركز في الجبل لايواء اللاجئين المضطهدين من أفراد الطائفة الانجيلية[1]. ومن أجل ذلك ألغي مركز القدس مؤقتاً ونقل المرسل جورج هواتين من القدس إلى عبيه. وإثر تكرر الحوادث الدامية بين الدروز والموارنة، في تشرين الثاني ١٨٤٥، أصدر شكيب أفندي، وزير الخارجية التركية الذي تعين حاكماً مدنياً على جبل لبنان، أوامره إلى جميع الأجانب بمغادرة الجبل، فأبلغ القنصل الأميركي في بيروت المرسلين في عبيه وجوب مغادرتهم البلدة فاقفلت المدرسة وعاد المرسلون إلى بيروت.

تقرر في اجتماع المرسلين في ربيع ١٨٤٦ تجديد نظام مدرسة عبيه على أن تكون اللغة العربية لغة التدريس فيها، وأن ينتمي طلابها إلى مختلف الطوائف الدينية: الدورز، والموارنة، والروم الأرثوذكس، والروم الكاثوليك[2]، وعين كل من الدكتور كرنيليوس فان ديك «لمقدرته على التحدث بطلاقة باللغة العربية»[3]، وبطرس البستاني، لما اكتسبه من خبرة في التدريس، للقيام بتلك المهمة[4]. ولم يكن يوجد باللغة العربية كتب مدرسية تفي بالغرض المطلوب فأخذا: يعلمان الطلاب في الصباح ويكبان على الدرس والمطالعة وتأليف الكتب المدرسية بعد الظهر وفي الليل[5]. وجدد الاثنان معاً نظام المدرسة ورتباها ترتيباً حسناً حيث قسما دروسها على نحو جديد يشمل دراسة أربع سنوات لاجتياز صفوفها الأربعة[6]. وهذه الصفوف تأسست تدريجياً

---

(١) «سوريا» الميشنري هيرلد ج٤٠ (١٨٤٤) ص ٣٢٠.

(٢) «الإرسالية السورية» الميشنري هيرلد ج٤٣ (١٨٤٧) ص ١٨٣ ص ٥.

«He has great fluency in the Arabic Language».

(٣) «رسالة الدكتور فان ديك» الميشنري هيرلد ج٤٣ (١٨٤٧) ص ٨٣ ـ ٨٤.

(٤) «مذكرات الدكتور فان ديك»، الهلال ج١٤ (١٩٠٦) ص ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٥) كان المرسلون الأميركان يؤسسون مدارسهم على طراز المدارس الأميركية ولكنهم كانوا يعلمون فيها: القراءة والكتابة باللغة العربية. «سوريا والديار المقدسة». الميشنري هيرلد ج٣٢ (١٨٣٦) ص ٩٧ وص ٤١٧.

(٦) إن طنوس الحداد هو أول من رتب مدارس المرسلين حسب الصفوف.

واحدها بعد الآخر[١]. وكان يدرس في الصف الأول: الحساب والتاريخ والجغرافيا وصَرْف اللغة العربية والكتاب المقدس[٢]، والجبر والهندسة ونحو اللغة العربية والعروض والكتاب المقدس في الصف الثاني، والفلك أو علم الهيئة وعلم المثلثات وفن قياس المساحة (Mensuration) والخطاب واللغة الانكليزية والكتاب المقدس في الصف الثالث[٣]، واللغة الانكليزية والالقاء (Declaration) والكيمياء والطبيعات (Physics) والمنطق والكتاب المقدس في الصف الرابع[٤]. وقرر منهاج المدرسة الجديد أن تكون اللغة العربية لغة التدريس الرسمية على أن تدرس اللغة الانكليزية كإحدى مواد التدريس في السنتين الثالثة والرابعة، وكانت العطلة السنوية ثمانية أسابيع تعطى على دفعتين: الأولى تشمل أربع أسابيع في شهر نيسان، والثانية الأسابيع الأربعة الأخرى في شهر تشرين الأول[٥]. إلتحق بهذه المدرسة عند افتتاحها في ٩ تشرين الثاني عام ١٨٤٦ ثلاثة طلاب فقط، ثم انضم إليهم ستة آخرون بعد مرور ستة أيام على افتتاحها، وهكذا دخل الصف الأول تسعة طلاب: سبعة منهم كانوا في القسم الداخلي حيث كانوا يأكلون وينامون في المدرسة، وكان الطالبان الاخران في القسم الخارجي يحضران الدروس فقط[٦].

كان المعلم بطرس البستاني، في السنة الأولى من تجديد نظام مدرسة عبيه، يعلم في الساعات الأولى من البرنامج، المخصصة للتدريس، مادتي الحساب والقواعد العربية. بينما كان الدكتور فان ديك يعلم في الساعات التالية، مادتي الجغرافيا والكتاب المقدس. وأما «تعليم اللغات فقد خصص للطلاب المتفوقين الذين يتم اختيارهم لدراستها لكي يصبحوا مترجمين»[٧]. وفي شباط عام ١٨٤٧ أضيف إلى مواد

---

(١) «سوريا والديار المقدسة». الميشنري هيرلد ج٣٢ (١٨٣٦) ص ٥٤.

(٢) «رسالة الدكتور فان ديك». الميشنري هيرلد ج٤٣ (١٨٤٧) ص ٨٣.

(٣) «تقرير مركز عبيه». الميشنري هيرلد ج٤٦ (١٨٥٠) ص ٢٦٢.

(٤) تقرير مركز عبيه». الميشنري هيرلد ج٤٧ (١٨٥١) ص ٢٠٠.

(٥) «رسالة الدكتور فان ديك». الميشنري هيرلد ٤٣ (١٨٤٧) ص ٨٣.

(٦) كان الصف الأول يتألف من طالبين من كل من بيروت وحاصبيا وعبيه وواحد من الحدث، قرية أسعد الشدياق، وواحد من قرية قرب حاصبيا. المصدر ذاته ص٨٤. ولم يذكر شيء عن الطالب التاسع.

(٧) المصدر ذاته ص ٨٣.

تدريس الصف الأول السابقة مادة التاريخ العام التي أخذ يعلمها الدكتور فان ديك، كما كُلف الطلاب بكتابة فرض «الانشاء» مرتين ثم عدل عن اعطاء فرض الانشاء كي يفسح المجال أمام الطلاب لاكتساب المزيد من المعلومات عن المواضيع العامة[١]. وقد أعفي ثلاثة طلاب، من الصف الأول، من دراسة القواعد العربية، لضعفهم ولإفساح المجال أمامهم لاستيعاب الدروس الأخرى[٢]. وذكر الدكتور فان ديك في أول تقرير له عن حالة التعليم في السنة الأولى من حياة مدرسة عبيه بأن هناك تقدماً مطرداً في تدريس جميع المواد[٣].

وفي ٣٠ آذار عام ١٨٤٧ جرى امتحان الصف الأول بحضور أعضاء «الإرسالية السورية»[٤] وبعض المواطنين والمرسل السكوتلندي كراهام (Graham) [٥]. كتب الدكتور فان ديك يقول عن نتيجة هذا الامتحان، الأول من نوعه الذي جرى في الديار الشامية، ما يلي: «استطيع القول، بكل اخلاص، إن نتيجة امتحان الصف الأول مشرفة ومرضية كنتيجة معظم مدراسنا في أميركا»[٦]، وأضاف بأن الطريقة التي اتبعها مع زميله بطرس البستاني في جعل الطلاب يتقيدون بقوانين المدرسة ومذاكرة دروسهم بانتظام لم تتعد كونها عبارة عن «إسداء نصيحة ملؤها المحبة والعطف» وفي بعض الأحيان كانت تقتصر على توجيه «إنذار»[٧] (warning). وذكر في تقرير آخر أنه لا يوجد في المدرسة تمييز بين طلابها فلا فرق بين غني أو فقير أو بين طالب من طائفة وآخر من طائفة أخرى، فجميع طلابها متساوون تماماً، إن كان على مقاعد الدراسة أو

---

(١) «رسالة الدكتور فان ديك» الميشنري هيرلد ج٤٣ (١٨٤٧) ص ٢٧٣.

(٢) كانت تتراوح أعمار الطلاب بين ١٢ سنة و٣٠ سنة. «رسالة الدكتور فان ديك». الميشنري هيرلد، ج٤٣ (١٨٤٧) ص ٨٣.

(٣) الميشنري هيرلد ج٤٣ (١٨٤٧) ص ٢٧٣.

(٤) (The Syria Mission) الاسم الذي عرفت به في الديار الشامية.

(٥) كان مركز هذا المرسل في دمشق.

(٦) «رسالة الدكتور فان ديك». الميشنري هيرلد ج٤٣ (١٨٤٧) ص ٢٧٣.

The pupils were examined upon all the studies they had pursued during the previous term, and, I may say, came off as honorably as most classes in our American academies». M. H. Vol. 43 (1847) p. 273.

(٧) المصدر ذاته.

في باحة اللعب أو في قاعة الطعام أو في مهاجع النوم(١).

بقي بطرس البستاني يقوم بمهمة التدريس في مدرسة عبيه حتى نهاية العام الدراسي ١٨٤٧ ـ ١٨٤٨ حين نقل إلى مركز بيروت لمساعدة الدكتور عالي سميث بترجمة الكتاب المقدس(٢). وفي عبيه اتيحت الفرصة للبستاني أن يقوم ببعض الأعمال الكتابية فألف كتاب **كشف الحجاب في علم الحساب** (بيروت ١٨٤٨)، وهو عبارة عن «كتاب مطول في علم الحساب طبع مراراً وذاع استعماله في سائر المدن السورية»(٣) وتداولته أيدي الطلاب «وصار المؤلف الفريد في تعليم الحساب بمدارس سورية. وفيه من بلاغة العبارة والاحاطة والصراحة ما يجلب لمؤلفه الشهادة بالفضل والثناء الطيب عليه»(٤). استعان على تأليفه بكتاب الحساب الذي كان قد ألفه عالي سميث لمدارس الإرسالية(٥). كما ألف كتاباً في نحو اللغة العربية دعاه كتاب **بلوغ الأرب في نحو العرب**: وهو عبارة عن دروس النحو التي كان يمليها على طلاب مدرسة عبيه ولم يطبع(٦). ولم يقتصر نشاط كل من الدكتور كرنيليوس فان ديك وبطرس البستاني خلال

---

(١) «تقرير مركز عبيه لسنة ١٨٤٩». **الميشنري هيرلد** ج٤٦ (١٨٥٠) ص ٢٦١. يوسف خوري، «الدكتور كرنيليوس فان ديك ونهضة الديار الشامية في القرن التاسع عشر. ص ١٠١ ـ ١٠٣.

(٢) «طلب المزيد من المرسلين». **الميشنري هيرلد** ج٤٣(١٨٤٧) ص ١٩٢، وج٤٥ (١٨٤٩) ص ١٨٨.

(٣) «بطرس البستاني»، **الهلال** ج٤ (١٨٩٦) ص ٣٦٣: **تراجم مشاهير الشرق**، ج٢ ص ٢٨.

(٤) «المرحوم المعلم بطرس البستاني». **المقتطف** ج٨ (١٨٨٣) ص ٢. **دائرة المعارف**، ج٧ ص ٥٩.

(٥) **الطيباوي**، ص ١٦٠. «سوريا والديار المقدسة». **الميشنري هيرلد** ج٣٢ (١٨٣٦) ص ٥٣ وص ٩٥ من Quartely Papers عدد ٢٤ التي تلي ص ١٩٦ من **الميشنري هيرلد** ج٣٢ (١٨٣٦). وكان عالي سميث يعتبر متضلعاً بعلم الحساب. **المقتطف** ج٩ (١٨٨٥) ص ٣٧٧. وكان بطرس البستاني يعتبر علم الحساب بأنه يقوّم العقل ويعلم الصدق، وأما «الذين لا يعلقون على الحساب كبير منفعة في النظريات زاعمين أن فائدته محصورة في الذين لهم أملاك واسعة وأموال كثيرة لا يقدرون على احصائها إلا بالقلم والأرقام الهندية، أو في أرباب الدواوين والتجار قد وقعوا في شطط عظيم». بطرس البستاني. «خطاب في تعليم النساء». **أعمال الجمعية السورية**. بيروت، ١٨٥٢ ص ٣٥، **الجنان** ج١٣ (١٨٨٢) ص ٢١٠.

(٦) «الدائرة» **دائرة المعارف**، ج٧ ص ٥٩٥ نقلاً عن **النشرة الأسبوعية** ج١٣ (١٨٨٣) ص ٢٩٠. ذكر أنه لا يزال مخطوطاً.

عملهما في مدرسة عبيه على الدرس والتدريس والمطالعة وإعداد الكتب المدرسية للطلاب، الشيء الذي كان يستغرق معظم أوقاتهما[1]، بل تعدى ذلك إلى الاشتراك بالنشاط الذي كانت تقوم به «الجمعية السورية» التي تأسست سنة ١٨٤٧ فكانا «ينزلان في أوقات جلساتها من عبيه إلى بيروت ويخطبان ويباحثان وينشطان الجمعية حتى صارت جمعية منتظمة»[2].

الجمعية السورية

لم يقتصر نشاط المرسلين الأميركان على أعمال التبشير وفتح المدارس وتأسيس المطبعة الأميركية وطبع الكتب وتوزيعها، بل تعداه إلى مجال تأليف الجمعيات الأدبية والعلمية لإذكاء روح الجماعة بين أهل البلاد ولتنمية المعرفة عن طريق اجتماعات دورية يلقي فيها الأعضاء أبحاثاً أعدوها لهذه الغاية. وكانت أولى هذه الجمعيات «الجمعية السورية» التي انشئت على الأرجح بمساعي المرسل وليم طومسون أول رئيس لها. بعث عالي سميث رسالة مؤرخة في ١٢ شباط سنة ١٨٤٨ إلى الجمعية الشرقية الألمانية[3] يذكر فيها أنه قد تم سنة ١٨٤٧ انشأ «الجمعية السورية» نتيجة لالحاح مواطنين نجباء، معظمهم من النشء الطالع، راغبين بالمعرفة، وبأن المرسلين وعدوا بتقديم كل مساعدة بامكانهم تقديمها[4].

ألقى عالي سميث، إثر انتخابه رئيساً للجمعية السورية لسنتها السادسة، خطاباً في ٦ كانون الثاني سنة ١٨٥٢ ذكر فيه بأنه لم يكن من الأعضاء المؤسسين للجمعية «التي لغيبتي لم أكن أنا واحداً من أعضائها الأولين»[5]، وكان حينئذ في زيارة إلى

---

(١) الميشنري هيرلد، ج٤٦ (١٨٥٠) ص ٢٦٢. وصموئيل صميلز. سر النجاح. ترجمة يعقوب صروف، ص ٢١٨.

(٢) شاهين مكاريوس، «المعارف في سورية»، المقتطف ج٧ (١٨٨٣) ص ٣٨٧.

(٣) رسالة عالي سميث
«We readily promised what assistance we could render». Z D M G. Vol. 2 (1848) p. 378 - 384.

(٤) المصدر ذاته، ص ٣٧٨.

(٥) بطرس البستاني، أعمال الجمعية السورية، بيروت، ١٨٥٢. ص «ل».

الولايات المتحدة[1]. ويعترف بأن مؤسسي الجمعية «قد حكموا بكل صواب أن تجري أعمالها بلغة أهالي البلاد لأن المقصود منها إنما هو إفادة هؤلاء لا افادة الغرباء»[2]. ويلقي بطرس البستاني عند تحريره لنشرة الجمعية الدورية أعمال الجمعية السورية في ملخص تقارير العمدة أضواء على الدور الذي لعبه المرسل وليم طومسون فيقول إنه «يجب على هذه الجمعية أن تقدم الشكر والثناء الجزيل لجناب الخواجه وليم طومسون المحترم، رئيسها السابق الذي هي مديونة له لأجل همته العالية في نجاحها وحسن مساعيه نحوها ومساعدته إياها»[3]. كما أورد، عند ترتيبه الأعضاء «حسب دخولهم» إلى الجمعية، اسم وليم طومسون أولاً، وكرنيليوس فان ديك ثانياً، ويليهما أسماء ٩ أشخاص من أعضاء الطائفة الانجيلية[4]، وناصيف اليازجي الثاني عشر، وعالي سميث الثالث عشر، وبطرس البستاني الرابع عشر[5]. فيكون انتماء بطرس البستاني إلى «الجمعية السورية» بعد الثاني عشر من شهر كانون الثاني سنة ١٨٤٧، وهو التاريخ الذي وصل فيه عالي سميث إلى بيروت[6]. ويتألف دستور هذه الجمعية من ١٥ قانوناً، يحدد القانون الثاني مقاصد الجمعية بأنها: «أولاً، استفادة أعضائها العلوم والفنون بواسطة مفاوضات ورسايل وخطابات وأخبار. ثانياً، جمع كتب وصحائف سواء كانت طبعاً أم خطاً وعلى الخصوص ما كان منها في اللغة العربية موافقاً لمنفعة الجمعية. ثالثاً، إنهاض الرغبة عموماً لاكتساب العلوم والفوايد مجردة عن المسائل الخلافية في الأديان والأحكام فإنها لا تتعلق بهذه الجمعية»[7]. وعلق عالي سميث في خطبته السنوية على مقاصد الجمعية بقوله إنه لا يحتاج أن يذكّر الأعضاء «الذين

---

(١) «سوريا» الميشنري هيرلد ج٤٣ (١٨٤٧) ص ١٧٨. وصل عالي سميث إلى بيروت في ١٢ كانون الثاني سنة ١٨٤٧.

(٢) أعمال الجمعية السورية، ص «ل».

(٣) أعمال الجمعية السورية، ص «ج».

(٤) الأعضاء هم: انطونيوس الأميوني، ونعمة ثابت، ونوفل نعمة نوفل، وسليم نوفل، وجرجس الجمال، وطنوس الحداد، والياس فواز، وخليل المنير، وعبد الله الوتوات. أعمال الجمعية السورية، ص «ب».

(٥) أعمال الجمعية السورية، ص «ب».

(٦) «سوريا» الميشنري هيرلد، ج٤٣ (١٨٤٧) ص ١٧٨.

(٧) أعمال الجمعية السورية، ص «د» Z D M G. Vol. 2 (1848) P. 379.

تعرفون أسلوب أعمالنا بأن دستورنا ينهينا في كل ما نتفاوض به لتحصيل المقاصد المختلفة عن أن نتعرض لآراء المذاهب الدينية التي تتميز بها طوائف أبناء هذه البلاد المختلفة. فأشير عليكم بأن تتمسكوا بكل جد بهذا المبدأ لكي تكون جلساتنا بأسرها متصفة بالمحبة والاتفاق حتى أن جميع الذين يحبون العلوم والفوائد يمكنهم أن يحضروها بقلب سليم مهما كانت أحوالهم المذهبية ويجدوا عندنا بلاطاً عمومياً»[١].

كانت «الجمعية السورية» تعقد اجتماعاتها مرة كل ١٤ يوماً لالقاء بعض الأبحاث المعدة ومناقشتها، كما كان يدعى الأعضاء لالقاء محاضرات عامة في اجتماعات مفتوحة يسمح للجمهور من غير الأعضاء حضورها[٢]، وذلك لاكتساب «الفوائد والتقدم في المعرفة والانشاء والكلام»[٣]. واظب الأعضاء على حضور الاجتماعات، ولكن يظهر أنهم لم يتقيدوا بمواعيد الاجتماعات الدورية كما كان مقرراً، فبلغ عدد هذه الاجتماعات «منذ انشاء الجمعية سنة ١٨٤٧ إلى أواخر سنة ١٨٥١ ثلاثاً وخمسين جلسة ما عدا الجلسات المفتوحة التي بلغ عددها في المدة المذكورة نيفاً وعشرين جلسة»[٤]. وقد جمع البستاني «الخطب والنبذ» التي ألقيت في هذه الاجتماعات فبلغ عددها سبع عشرة خطبة ونبذة نشرها في أعمال الجمعية السورية دون أن يغير أساليب كلام الخطباء[٥]، واشتملت على ثلاث مقالات له: «خطاب في تعليم النساء»، «والحريري»، «وفي مدينة بيروت»، كما لخص نبذة «اكتشاف جديد» حول سبك النحاس بالكهربائية لانطونيوس أميوني، ومقالة «أمالي فلكية» للدكتور كرنيليوس فان ديك[٦].

---

(١) أعمال الجمعية السورية، ص «م ـ ن».

(٢) Z D M G. Vol. 2 (1848) P. 378.

(٣) أعمال الجمعية السورية، ص «ج».

(٤) أعمال الجمعية السورية، ص «ج». شاهين مكاريوس. «المعارف في سورية». المقتطف ج٧ (١٨٨٣) ص ٣٧٨.

(٥) المصدر ذاته.

(٦) «خطاب في تعليم النساء» ص ٢٧ ـ ٤٠: «في مدينة بيروت» ص ٦١ ـ ٦٤: «الحريري» ص ٦٩ ـ ٧٠: «اكتشاف جديد» ص ١٣: «أمالي فلكية» ص ٩١ ـ ٩٩.

خطاب في تعليم النساء

يحدد بطرس البستاني في «خطاب في تعليم النساء»، الذي يعتبره الخطاب الأول من نوعه بحيث «لم تجر فيه أقلام أسلافي من أهالي بلادي»[1]، بأن الغاية من إلقاء هذا الخطاب «إنما هي إنهاض همة النساء إلى العلم لكي يكن أهلاً لكرامة أكثر. وأنْ أستعطف الرجال لكي ينظروا إلى إصلاح حالهن وانتشالهن من أعماق الانحطاط»[2]. يسلم بوجوب تعليم النساء لأن العلم ليس وقفاً على الرجال «إذ من المعلوم الذي لا يشوبه ريب أنه لا يمكن وجود العلم في عامة الرجال من دون وجوده في النساء كما أنه لا يوجد نساء عالمات في عالم من الرجال جاهل. وذلك لوجود العلاقة الرابطة بين الطرفين وتأثير أحدهما بالاخر»[3]. وهذا ما يدعو في نظره «إلى شدة الاحتياج إلى تعليم النساء ووجوبه من دون استثناء»[4]. يعتمد مشروعه الاصلاحي لتعليم المرأة لتصبح «عضوا يليق بجماعة متمدنة» على تسعة علوم[5] هي: أولاً: الديانة، «لأن أوامر الديانة ونواهيها تتجه إلى المرأة والرجل معاً». ثانياً: اللغة التي ولدت فيها لأن «الولد يتعلم لغة أمه. فإن كانت لغتها صحيحة كانت لغته كذلك وإلا فلا». ثالثاً: القراءة، لأن المرأة «لا تقدر على استحضار جميع واجباتها من روحية وزمنية دائماً في ذهنها فتحتاج إلى من لا يزال يقرع أذنيها ويذكرها بها. والكتاب يتكفل بذلك». رابعاً: الكتابة[6]، «وهي الواسطة الوحيدة لتبليغ خاطرها مكاناً لا يصل صوتها إليه». خامساً: علم تربية الأولاد[7]، «وهو علم نفيس لا بد منه لكل أم» الذي بواسطته تتعرف على

---

(١) أعمال الجمعية السورية، ص ٤٠. الجنان ج١٣ (١٨٨٢) ص ٢١٣.

(٢) أعمال الجمعية السورية، ص ٣٠.

(٣) أعمال الجمعية السورية، ص ٣٣. الجنان ج١٣ (١٨٨٢) ص ٢٠٨.

(٤) أعمال الجمعية السورية، ص ٣٣. «خطاب في تعليم النساء». الجنان ج١٣ (١٨٨٢) ص ٢٠٩.

(٥) أعمال الجمعية السورية، ص ٣٣ ـ ٣٥.

(٦) يتفق الدكتور هنري دي فورست مع آراء بطرس البستاني في ذلك: «ان تعليم القراءة والكتابة حق لكل إنسان ذكراً كان أم أنثى غنياً أو فقيراً». هنري دي فورست. «في تربية الأولاد». أعمال الجمعية السورية، ص ٥٩ ـ ٦٠.

(٧) يتفق دي فورست معه في هذه النقطة أيضاً حيث يقول: «إن النساء عليهن الجزء الأعظم من تربية الأولاد. لأن الوالد يخرج إلى عمله صباحاً ويرجع مساء فيكون الولد متروكاً لعناية الأم =

«طرق المحافظة على الأولاد نفساً وجسماً». سادساً: الاعتناء بالبيت من خدمة ونظافة وخياطة وطبخ واهتمام بالمرضى وما شابه. سابعاً: الجغرافية، وهذا العلم من شأنه أن يوسع عقل من تعلّمه ويفيده في أمور كثيرة. ثامناً: التاريخ، لأن المرأة بواسطة هذا العلم تقدر أن تسلي أولادها «بأخبار تاريخية صحيحة تفيدهم في المستقبل». تاسعاً: الحساب. وهذا العلم من شأنه «أن يقوم عقلها ويعلمها الصدق ويمكنها من القيام بواجباتها الحسابية». ويعدد لنا الفوائد التي تجنيها المرأة من اكتساب هذه العلوم بأنه: «يوسع قواها العقلية ويهذبها، ويوقظ ضميرها وينبهه ويحييه، ويقوّم إرادتها وعواطفها الأدبية ويرتب سلوكها وتصرفها»[1]. لا بل أن اعتقاده الراسخ وإيمانه بتعليم المرأة دفعه إلى القول بأن الدرجة الأولى من السلم لإصلاح قوم لا يكون إلا بتعليم النساء لأن ذلك هو «الباب الذي يجب أن يفتح أولاً وبدءاً مبتدئين في ذلك من صغرهن. وأما الذين يتركون النساء وراءهم ويأخذون في تعليم الصبيان أو الشبان فهم كمن يضع رجلاً على الأرض وأخرى في السحاب. وتراهم في الغالب يقصرون في مطلوبهم وبالكاد يكون جهدهم وجدهم كافياً لإصلاح ما تفسده النساء، لأنهم كلما بنوا صومعة تراهن يهدمن برجا، وكلما رفعوهم درجة تراهن يحططنهم درجات. وقد قال بونابارته الشهير أن ما تبنيه[2] في ماية عام تهدمه المرأة في سنة واحدة. وكل ذلك قد ثبت بالتجربة والاختبار. وعلى من شك، تحقيق النظر وجودة الاعتبار»[3]. وبعد ٣٢ سنة نشر بطرس البستاني هذا الخطاب في «الجنان» حاذفاً الكثير من الفقرات التي «لم يبق لها إلا فائدة تاريخية بسبب تحسن حالة المرأة بعد تلك الفترة». وأعاد نشر الخطاب «للقيام بنفس الخدمة التي قمنا بها قبلاً نحو الجنس اللطيف الذي كان لنا الشرف أننا

= أكثر الأوقات ومن هذا وغيره يبان أن الواسطة الأولى لتربية أولاد قوم ووجود التمدن فيما بينهم إنما هي تعليم نسائهم». دي فورست، «في تربية الأولاد». أعمال الجمعية السورية، ص ٦١.

(١) أعمال الجمعية السورية، ص ٣٥. «خطاب في تعليم النساء». الجنان ج١٣ (١٨٨٢) ص ٢١٠.

(٢) أعمال الجمعية السورية، ص ٤٠. الجنان ج١٣ (١٨٨٢) ص ٢١٣ وردت في الجنان فإن ما يبنيه الرجل» وحذفت الإشارة إلى بونابرت.

(٣) أعمال الجمعية السورية، ص٤٠. الجنان ج١٣ (١٨٨٢) ص ٢١٣.

كنا أول من حامى عن حقوقه من أبناء الشرق وبيّن أهميته وفوائد تعليمه»[١].

زواجه من راحيل عطا

اقترن بطرس البستاني، في سنة ١٨٤٤[٢]، بفتاة تنتمي إلى عائلة أرثوذكسية تدعى راحيل عطا، ولدت في بيروت سنة ١٨٢٦[٣]. وهي أول فتاة إلتحقت بمدرسة البنات التابعة للإرسالية السورية (Syria Mission) في بيروت، وكانت السيدة سارة سميث، زوجة عالي سميث، قد تبنتها سنة ١٨٣٤ وضمتها إلى أفراد عائلتها[٤]. وللسيدة سميث يعود الفضل الأول في تعليم النساء في الديار الشامية، لأنها أول من أسس مدرسة لتعليم البنات في بيروت في المحلة المعروفة يومئذ ببرج برد[٥] (Isaac Bird) ودخل الصف الأول ثمان بنات جميعهن من مدينة بيروت، وكانت راحيل إحداهن[٦].

رأت السيدة سميث أن البناء الذي خصص لتعليم البنات ببرج برد ليس مناسباً للتعليم لذلك صممت على أن تبني مكاناً خاصاً ليكون مدرسة مهيأة خصيصاً لتعليم البنات، «وكان في بيروت حينئذ مسز روبرت طود (Mrs. Robert Tod) وهي سيدة انكليزية من الاسكندرية، فوهبت لذلك مئتي ريال فكمل البناء في نيسان سنة ١٨٣٥. ففتحت السيدة سميث المدرسة فدخلها أربعون بنتاً من الفرق المختلفة. فتعلمن القراءة والجغرافية ومبادىء الحساب والكتاب المقدس والترنيم واللغة الانكليزية

---

(١) الجنان ج١٣ (١٨٨٢) ص ٢١٤. تعطينا معلومات إضافية حول الخطاب بأنه القي «ارتجالاً... ويسرنا أن نرى عند مراجعته الآن (سنة ١٨٨٢) فرقاً بيناً بين حالة النساء في هذه الأيام وحالتهن في تلك الأيام بحيث رأينا أن كثيراً مما ذكرناه في الخطاب لم تبق له إلا فائدة تاريخية فحذفناه وأبقينا فيه ما أبقينا». الجنان ج١٣ (١٨٨٢) ص ٢١٣. وقد استشهد به نجله سليم في إحدى رواياته بقوله: «وما أصدق ما قاله صاحب الخطاب في تعليم النساء». سليم البستاني، «أم الدنيا». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ١٨٧.

(٢) «رزقهما الله أربعة بنين وخمس بنات وثماني عشرة من أولاد الأولاد» «وفاة فاضلة راحيل البستاني». النشرة الأسبوعية عدد ١٤٦٤ (١٧/٢/١٨٩٤) ص ٥٦.

(٣) هنري حسب، «خطاب في الاحتفال التذكاري» النشرة الأسبوعية، عدد ١٤٧٤ (٢٨/٤/١٨٩٤) ص ١٢٥، المصدر السابق ص ٥٥.

(٤) المصدر ذاته. «رسالة من مستر سميث». الميشنري هيرلد ج٣٩ (١٨٤٣) ص ٢٨٢.

(٥) تعرف حالياً ب «طلعة الأميركان» بالقرب من ساحة رياض الصلح.

(٦) هنري جسب، «خطاب في الاحتفال التذكاري»، ص ١٢٩.

والخياطة[1]. وأول من تعلمت فيه حسب علمنا (حسب علم هنري جسب) بنت اسمها راحيل عطا من بيروت، تبنتها السيدة سميث وقصدت تربيتها ابنة لها. ولكن تلك السيدة (سميث) منيت بمرض عضال فسافرت إلى أزمير فتوفاها الله هناك في أيلول سنة ١٨٣٦»[2].

اهتمت السيدة سميث، وهي على فراش الموت، أن تؤمن لراحيل مكان سكن دائم مع عائلة من عائلات أفراد «الإرسالية السورية». وهكذا أتيح لها أن تعيش أولاً مع سارة سميث، زوجة عالي سميث الأولى، ثم مع السيدة هبرد (Story Hebard)، ومع السيدة ولكوت (Samuel Wolcott) ومع زوجة عالي سميث الثانية (Maria W. C. Smith)، ومن ثم مع زوجة الدكتور هنري دي فورست (Henry De Forest)[3]. لقد انضمت راحيل إلى الكنيسة الإنجيلية في اخر يوم سبت من شهر كانون الثاني سنة ١٨٤٣[4]، واشاد عالي سميث باخلاقها وثبات ايمانها وشجاعتها ومقاومتها للفساد المتردية فيه والدتها، والموقف الصلب الذي وقفته أمام حاكم بيروت ورفضها العودة

---

(١) راجع «سوريا والديار المقدسة». الميشنري هيرلد ج٢٩ (١٨٣٣) ص ٢٨ من أجل مساعي روبرت طود مع إبراهيم باشا والأمير بشير الشهابي الكبير للسماح للمرسلين الأميركان بالتفتيش عن أسعد الشدياق في دير قنوبين.
كان المرسلون الأميركان يؤسسون مدارسهم في الديار الشامية على طراز المدارس الأميركية. «سوريا والديار المقدسة». الميشنري هيرلد ج٣٢ (١٨٣٦) ص ٩٧ وص ٤١٧.

(٢) «لم يُهجر هذا البيت بعد وفاة السيدة عالي سميث» فعلّمت فيه السيدات وليامس (Miss Rebecca Williams) وتلدن (Miss Betsey Tilden) ودودج (Mrs. Martha Dodge). وفي سنة ١٨٥٢ علّم فيه المعلم شاهين سركيس الصبيان إلى سنة ١٨٦٤... وسنة ١٨٦٨ اهدم البيت ونقلت حجارته إلى مدرسة البنات الداخلية الأميركية». «خطاب في الاحتفال التذكاري»، ص ١٢٩ ـ ١٣٠.
G. Antonius, *The Arab Awakening* (London, 1938) P. 37.
Stephen Penrose, *That They may Have Life* (New York, 1941) P. 6.
ولكن الطيباوي يذكر، معتمداً على رسالة من عالي سميث، بأن السيدة وليم طومسون والسيدة دودج هما أول من أسس المدرسة لتعليم الخياطة، الطيباوي، ص ١٥٤ معتمداً على:
E. W. Hooker, Memoir *of Mrs. Sarah L. Huntinpton Smith* (New York, 1840) p. 373 - 394.

(٣) «رسالة من مستر سميث» الميشنري هيرلد ج٣٩ (١٨٤٣) ص ٢٨٢.

(٤) المصدر ذاته. ص ٢٨١.

إلى بيت والدتها واختيارها البقاء مع عائلة عالي سميث[١]. ولا شك أن بطرس البستاني تعرف على راحيل في أوساط المرسلين الأميركان بحكم اتصاله الوثيق بكل من عالي سميث والدكتور هنري دي فورست. وكان هؤلاء المرسلون، على حد قول سليم البستاني، يهتمون بالاعتناء «بتربية البنات في عيالهم تربية تؤهلهن لأن يكن زوجات رجال عارفين لا يرتضون بأن يكون أولادهم وبيوتهم في يد نساء لا يحق الركون إلى صلاحيتهن بوجوب الحقوق المشروعة لهن أو عليهن»[٢]. ثم يعود فيؤكد بأن الغاية من تربية هؤلاء البنات كانت الاعداد «لشبان الوطن المتقدمين في درجات المدنية الحقيقية والإنسانية شريكات مناسبات تجعل التي تحرك السرير بيسارها صالحة لأن تهز الأرض بيمينها هزاً مفيداً نافعاً»[٣]. مؤكداً على أن التي «تمسي أُماً لأولاد العصر تصبح روحاً للعصر، وهي سعادة الرجل وشقاوته وإكليل فخره وقيد ذله»[٤].

ولعل حسن المزايا التي كانت تتحلى بها راحيل عطا البستاني، نتيجة لحسن تربيتها على أيدي عائلات المرسلين الأميركان ولاكتسابها العلوم في مدارسهم، هي التي دعت كلا من زوجها بطرس البستاني وولدها البكر سليم إلى تأييد فكرة تعليم المرأة، وذلك لجنيهما ثمار هذا التعليم ولتحققهما عن كسب للفوائد الجمة التي تستطيع المرأة المتعلمة أن تقدمها لمجتمعها بصورة عامة، ولزوجها وأولادها بصورة خاصة.

ترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية:

لا غرو أن يهتم المرسلون الأميركان بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغة العربية لأن غايتهم القصوى كانت تقضي بأن «يكرزوا ويبشروا بتعاليم الكتاب المقدس»[٥]،

---

(١) المصدر ذاته ص ٢٨١ ـ ٢٨٤.

(٢) سليم البستاني: «إن التي تهز السرير بيسارها تهز الأرض بيمينها». **المقتطف** ج٧ (١٨٨٢) ص ٧١٠.

(٣) المصدر ذاته. ويؤيد الدكتور دانيال بلس، أول رئيس للكلية السورية الإنجيلية هذا الرأي حيث يقول:

«I should recommend all educated men to marry educated women or women of sense or both qualities combined». D. Bliss to Abby Bliss, Beirut, March 6, 1874. p. 229.

(٤) سليم البستاني. «أم الدنيا». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٣٢٣.

(٥) «رسالة مستر بيرد». **الميشنري هيرلد**، ج٥١ (١٨٥٥) ص ٣١٣.

ولكن نرى أنهم كانوا يوزعون، في بدء عملهم في الديار الشامية، أي في ما بين عام ١٨٢٢ وعام ١٨٥٧، الكتاب المقدس أو أسفاراً منه كانوا قد أعادوا طبعها عن النسخة المترجمة التي كان قد نقحها المطران سركيس الرزي، مطران الموارنة في دمشق، وطبعت في رومية عام ١٦٧١ م، عن النسخة الأصلية التي تعرف بالفولكاتا (Vulgate)[١].

أرسل عالي سميث عام ١٨٤٤ تقريراً إلى المجمع الأميركي للبعثات التبشيرية في بوسطن ذكر فيه بأن المرسلين الأميركان كانوا يدركون ضعف ترجمة المطران الرزي لعدم وضوح بعض المعاني في أسفار الأنبياء كما أن المترجم يدور في كثير من الفقرات الواردة في إصحاحات رسائل الرسل حول المعنى الأصلي ولكن الفكرة الأصلية تبقى غير واضحة تماماً مما يجعل أسمى التعاليم في رسائل بولس الرسول تفقد قوتها[٢]. وانتقد سميث الجمل في هذه الترجمة بأنها غير سليمة التركيب، ووصف الأسلوب العربي الذي كتبت به بأنه معقد، كما ذكر أن اختيار الكلمات لم يكن دقيقاً للتعبير عن الكلمات في الأصل، وقال إن المرسلين كانوا يخجلون أن يضعوا ترجمة بمثل هذه الحلة الركيكة بين يدي أحد المشايخ المسلمين أو الدروز دون الاعتذار إليه عما فيها من أخطاء. وذكر بأن المرسلين كانوا ينقحون الإصحاح الذي كانوا يعتزمون الاستشهاد به قبل حضورهم إلى اجتماعاتهم العامة[٣]، ولذلك اقترح وجوب القيام بترجمة جديدة للكتاب المقدس[٤]. وذكرت النشرة الأسبوعية، الناطقة بلسان المرسلين الأميركان، أنه «لما رأى البروتستانت الترجمة البابوية ركيكة في بعض المواضع ولم تؤد معنى الأصل العبراني أو اليوناني شرعوا في ترجمة جديدة»[٥].

---

(١) «ارتداع السهام على اليسوعي فان هام»، النشرة الأسبوعية، عدد ٥١ (١٧ كانون الأول ١٨٧٢) ص ٤٠٢.

(٢) *A Brief Documentary History of the Translation of the Scriptures into the Arabic Language*. Beirut, American Press, 1900. p.l.

(٣) المصدر ذاته، ص ١.

(٤) المصدر ذاته، ص ٣.

(٥) ارتداع السهام على اليسوعي فان هام» ص ٤٠٣. إن المرسل وليم طومسون يعزو فكرة القيام بترجمة جديدة للكتاب المقدس إلى المطران أثناسيوس توتنجي، مطران الروم الكاثوليك في حلب. ويذكر أن المطران توتنجي صرح له بذلك سنة ١٨٤٠ عندما قام بزيارة حلب مع =

وفي سنة ١٨٤٧ عين عالي سميث رئيساً للجنة من المرسلين ومعه الدكتور وليم طومسون والدكتور كرنيليوس فان ديك لاختيار أحد أفراد «الإرسالية السورية» لكي يقوم بترجمة الكتاب المقدس من اللغتين العبرانية واليونانية إلى اللغة العربية لأن «العهد القديم كتب في اللغة العبرانية والعهد الجديد كتب في اللغة اليونانية، فيجب أن يترجم الأول من العبراني والثاني من اليوناني رأساً، بدون أن يترجما أولاً إلى لغة ثالثة مثل اللاتيني ثم إلى العربي، لأن كل ترجمة لا بد أنها في بعض العبارات تخسر شيئاً من قوة الأصل مهما كان المترجم بارعاً في اللغتين، فكلما قلّت درجات النقل كان أحسن»[١]. فتم اختيارهم للدكتور عالي سميث، وكتبوا إثر ذلك تقريراً مطولاً عن أمانيهم التي يرجونها من هذه الترجمة[٢]. ولقد وصف القس هنري جسب بعض جمل هـذا التقـريـر بـأنهـا «تحسـب نبـوات بمستقبـل الكتـاب المقـدس فـي اللغـة

= الدكتور فان ديك، وذلك خلال حديثهما حول الأمور الدينية والخطوات الواجب القيام بها لتنمية أي إصلاح في سوريا. فأجاب المطران على سؤال طومسون بأنه يجب وضع ترجمة جيدة للكلام الإلهي بين أيدي الأهالي تترجم عن الأصل العبري واليوناني. وتم الإتفاق بين الإثنين على أن يقوم المطران توتنجي بدراسة اللغتين العبرانية واليونانية ثم يأتي إلى بيروت ليقوم بهذا العمل الجبار. وبعد مضي ثماني سنوات على هذا اللقاء يذكر الياس فواز، أحد الوطنيين المساعدين للمرسلين الأميركان، بأن المطران توتنجي اعترف له بأن إلمامه بصرف اللغة العربية ونحوها ليس حسناً، وبأنه يجيد التحدث والكتابة باللغتين الفرنسية والإيطالية وله معرفة قليلة بالإنكليزية. ولهذه الأسباب استبعد اسم المطران توتنجي للقيام بأعمال الترجمة الجديدة للكتاب المقدس. «تقرير مركز بيروت». الميشنري هيرلد ج٤٤ (١٨٤٨) ص ٣١٧.
ولأهمية الاقتراح بترجمة الكتاب المقدس من قبل المطران توتنجي سأورده بنصه الإنكليزي:

«The people must be brought back to the Bible. To do this, you must give them good translation of the word of God from the original Hebrew and Greek. Our clergy will condemn and excommunicate it at first; but the truth will certainly triumph at last, and the people will ultimately receive it. Then you ought to furnish a concordance, a commentary, and a reference Bible. Lead the people to the word of God and enable them to understand it, and the work is accomplished. As fast as you find or raise up preachers, suitably qualified, send them forth to preach the gospel throughout the land. Christian education, by means of common schools and higher institutions, should be carried on extensively and as rapidly as possible. And by all means establish a good religious publication». «Letter fron Mr. Thomson?. Missionary Herald Vol. 42 (1846) p. 418.

(١) «ارتداع السهام على اليسوعي فان هام»، ص ٤٠٢ ـ ٤٠٣.

(٢) *Brief Documentary History of the Translation of the Scriptures* p. 4.

العربية»[1] وجاء في تقرير اللجنة ما يلي: «إن من يترجم الكتاب المقدس إلى اللغة العربية إنما يفتح كنوز الاسفار الإلهية لأربعين مليون من جيل ثابت غير زائل لا يفنى من قرن إلى قرن إلى نهاية الزمان. وهل يمكن المبالغة في البحث في هذا الموضوع العظيم الشأن. هل يمكن المبالغة في التعبير عن تلك القوة العظيمة التي ستنشر أوراق الخلاص الشافية على شاطىء دجلة والفرات والنيل والنيجر وتفتح ينابيع ماء حي في سهول سورية، وقفار سبا وشبا، وصحارى أفريقية، وتنير بنور الحياة قمم لبنان ذلك «الجبل الجيد» الذي رآه موسى من بعيد[2]، وطور سيناء موقع اعطاء الناموس، وجبل أطلس في غربي أفريقية الشمالي. إنه لا مبالغة في مشروع نظير هذا، لأن الأفكار ليست تخيلات فارغة ولا تصورات العقول المختلفة لأن الذي يعطي كلام الله لأربعين مليون من الناس الذين مات المسيح لأجل خلاصهم ويكتب تفسير هذه الأسفار، وكتب الفهرس، وعلم اللاهوت، والمواعظ والرسائل والكتب المدرسية والجرائد الدينية، وعلى الجملة يكون واسطة لاحياء الآداب المسيحية في وضع بذرة الحياة التي

---

(١) هنري جسب، «خطبة تذكارية في ترجمة حياة الدكتور كرنيليوس فان ديك»، النشرة الأسبوعية، عدد ١٥٥٨ (٧ك١ ١٨٩٥) ص ٣٩٧ وكررها في كتابه:

Fifty Three Years in Syria. (New York, 1910) p. 68.

ولأهمية الفقرة المتعلقة بترجمة الكتاب المقدس، سأورد نصها الحرفي بالإنكليزية:

«The Arab translator is interpreting the lively oracles for forty millions of an undying race, whose successive and ever augmenting generations shall fail only with the final termination of all earthly things. Can we exaggerate on such a theme? Is it easy to over - estimate the importance of that mighty power that shall send the healing leaves of salvation down the Tigris, the Euphrates, the Nile, and the Niger; that shall open living fountains in the plains of Syria, the deserts of Arabia and the sands of Africa: that shall gild with the light of life the craggy summits of goodly Lebanon and sacred Sinia and giant Atlas? We think not. These and kindred thoughts are not the fitful scintillations of imagination, the baseless dreams of a wild enthusiasm. To give the word of God to forty millions of perishing sinners, to write their commentaries, their concordances, their theology, their sermons, their tracts, their school books, and their religious journals: in short, to give them a christian literature or that germinating commencement of one which can perpetuate its life, and expand it into full grown maturity, are great, gigantic verities, taking fast hold on the salvation of myriads which no man can number, of the present and all future generations». *Missionary Herald* Vol. XLIII (1847) p. 192. Jessup, *Fifty Three Years in Syria,* pp.68 - 69. *Brief Documentary History of the translation of the Scriptures* p. 4.

(٢) جملة «الذي رآه موسى من بعيد» غير موجودة في الأصل الإنكليزي.

بنموها تثمر أثماراً للحياة، يعمل عملاً جزيل النفع تدوم فوائده ما بين ربوات كثيرة من الناس إلى نهاية القرون»[١].

نُقل بطرس البستاني، إثر انتهاء السنة الدراسية ١٨٤٧ ـ ١٨٤٨، من مدرسة عبيه إلى مركز «الإرسالية السورية» في بيروت وعين معاوناً للدكتور عالي سميث في الترجمة. ويذكر سميث في تقرير قدمه سنة ١٨٥٤ حول ترجمة الكتاب المقدس أن اختيار بطرس البستاني للقيام بأعمال ترجمة الكتاب المقدس كان نتيجة لمعرفته اللاهوت المسيحي الذي كان قد درسه في مدرسة عين ورقة، بالإضافة إلى أنهم كانوا يتوخون اسباغ صبغة وطنية على الترجمة من حيث التعابير والاصطلاحات[٢]. وكانت عملية الترجمة تجري على النحو التالي: كان على البستاني أن يترجم العهد القديم عن الأصل العبري والعهد الجديد عن الأصل اليوناني[٣]، ثم يسلم ترجمته هذه إلى سميث الذي كان يدقق هذه الترجمة بنفسه أولاً ويعود إلى مناقشة البستاني حول معاني بعض الكلمات التي تحتمل أكثر من معنى واحد، وذلك لاختيار المعنى المناسب بعد مقارنتها مع نسخ الكتاب المقدس الموجودة تحت تصرفهما من عربية وعبرانية وسريانية ويونانية، وكانا يحاولان معاً توحيد التعابير والاصطلاحات الواردة في الترجمة بعد استشارة القواميس التي بين أيديهما[٤]. وبعد الانتهاء من عملية المراجعة الدقيقة والشاقة كان سميث يراجع هذه الترجمة المنقحة مع الشيخ ناصيف اليازجي، الذي كان يعمل حينئذ مصححاً لمطبوعات مطبعة الأميركان، والذي كان له إلمام تام بصرف اللغة العربية ونحوها كما كانت ذاكرته «مستودعاً للكلمات العربية»[٥] بالإضافة إلى أنه كان لا يعرف أية لغة سوى اللغة العربية الشيء الذي جعل سميث يثق بالاعتماد عليه لأنه بذلك لا يدع مجالاً لأي تعبير غريب عن اللغة العربية أن يمر من بين يديه دون وضعه

---

(١) جسب «خطبة تذكارية»، ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨.

(٢) *Brief Documentary History of the Translation of the Scriptures*, p. 8.

(٣) تعلم بطرس البستاني اللغتين العبرانية واليونانية بعد التحاقه بـ«الإرسالية السورية». المصدر ذاته.

(٤) المصدر ذاته، ص ٨ ـ ١٠. من أجل الكتب والقواميس والمراجع الأخرى التي استعان بها في ترجمة الكتاب المقدس راجع: Jessup, *Fifty Three Years in Syria* p. 69 - 70.

(٥) *A Brief Documentary History of the Translation of the Scriptures* p. 9.

بحلة عربية[١]، كما أن سميث كان معجباً بأسلوب اليازجي في الكتابة باللغة العربية[٢]. وكان سميث يحرص كثيراً على ألا يضحي بالمعنى الموجود باللغة الأصلية المترجم عنها من أجل الحصول على جمل عربية بليغة وفصيحة، إذ كان في عرفه أن الحصول على البلاغة والفصاحة في عمل كهذا ليس «أساسياً»[٣]. وإثر الانتهاء من التنقيح اللغوي كان على الشيخ ناصيف اليازجي أن ينسخ التنقيح الثاني للترجمة الذي قام به بالاشتراك مع عالي سميث، على الصفحة الثانية، المقابلة لصفحة الترجمة التي قام بها بطرس البستاني، والتي تركت خصيصاً لذلك[٤].

وعند وفاة الدكتور عالي سميث في ١١ كانون الثاني عام ١٨٥٧ لم يكن طبع من أسفار الكتاب المقدس سوى سفر التكوين و ٣٩ إصحاحاً من سفر الخروج. وصرح وهو على فراش الموت بأنه مسؤول عما طبع من الترجمة فقط[٥]. وفي ١١ نسيان عام ١٨٥٧ عين الدكتور كرنيليوس فان ديك من قبل المرسلين الأميركان بالاشتراك مع جمعية الكتاب المقدس الأميركية لاتمام ترجمة الكتاب المقدس، خلفاً للدكتور عالي سميث. وإثر استلام الدكتور فان ديك مهمة الترجمة انقطعت صلة كل من المعلم بطرس البستاني والشيخ ناصيف اليازجي بالترجمة لأسباب يذكرها الدكتور فان ديك بأنها كانت تتعلق بطبيعة العقد بين سميث والبستاني والذي كان ينص على أنه في حال وفاة أحد الطرفين المتعاقدين تعتبر الاتفاقية لاغية[٦]. وبذلك يكون بطرس البستاني قد قام بترجمة الكتاب المقدس باستثناء الأسفار التالية: أيوب، والمزامير، والأمثال، والجامعة، ونشيد الإنشاد، والنبوات التالية: حزقيال، ودانيال، وحبقوق، وزكريا،

---

(١) المصدر ذاته، ص ٢٣.

(٢) المصدر ذاته، ص ٢٩. كان سميث يشجع الشيخ ناصيف اليازجي على الكتابة، حتى أنه أرسل له إحدى المقامات التي كتبها إلى المجلة الشرقية الألمانية لتعريف المستشرقين به. انظر:

Z D M G. (1851) pp. 96 - 97.

(٣) *A Brief Documentary History of the Translation of the Scriptures* p. 9.

(٤) المصدر ذاته، ص ٢٩. لا تزال الدفاتر التي كتبت عليها الترجمة محفوظة في «الإرسالية الأميركية» ضمن صناديق خاصة.

(٥) المصدر ذاته، ص ٢٧.

(٦) المصدر ذاته، ص ٢٦: «الإرسالية السورية». والميشنري هيرلد ج٥٤ (١٨٥٨) ص ١٤١.

وصفنيا، وحجي، وملاخي.[١] وقد بلغ مجموع ما حصل عليه البستاني لقاء أتعابه من أجل ترجمة الكتاب المقدس خلال ثماني سنوات متتالية٥٠،٠٠٠ غرشاً أو ما يعادل ١٩٢٣ دولاراً اميركياً[٢]. وأما فيما يتعلق بالشيخ ناصيف اليازجي فيذكر الدكتور فان ديك بأن اليازجي لم يكن «أميناً»[٣] في تطبيق مهمة نسخ التنقيح الثاني الملقاة على عاتقه، ولذلك استعاض عنه بالشيخ يوسف الأسير، خريج الجامع الأزهر[٤]، من أجل تنقيح الصيغة العربية للترجمة[٥]. وهكذا أخذ الدكتور فان ديك على عاتقه إعادة النظر بجميع الترجمة التي لم تطبع. أولاً لأن سميث ترك العديد من إشارات الاستفهام حول بعض النقاط كي يعود ويتخذ قراره النهائي بشأنها فيما بعد[٦]. وثانياً لأن سميث، على حد قول الدكتور فان ديك لم يتقيد بالترجمة الحرفية التي كانت تلزمها جمعية الكتاب المقدس الأميركية.

تأسيسيه الكنيسة الإنجيلية الوطنية

لم يهجر المعلم بطرس البستاني عمله في تأدية رسالته كفرد عامل في الهيئة الإجتماعية وخدمة أبناء وطنه بالرغم من قيامه بأعمال ترجمة الكتاب المقدس، إذ نراه سنة ١٨٤٧ يسعى بالاشتراك مع جماعة من الوطنيين الذين اعتنقوا المذهب الإنجيلي، أمثال طنوس الحداد وإلياس فواز، إلى تأسيس كنيسة إنجيلية وطنية يشرف عليها ويديرها هؤلاء الوطنيون وذلك بمعزل عن الكنيسة الإنجيلية التي كان يشرف عليها المرسلون الأميركان. وتنفيذاً لتحقيق هذه الغاية عقد هؤلاء الوطنيون اجتماعاً بتاريخ العاشر من شهر حزيران سنة ١٨٤٧ ترأسه المعلم بطرس البستاني واتخذوا قراراً بإرسال عريضة إلى المرسلين الأميركان العاملين بالديار الشامية يحثونهم فيها الموافقة على تأسيس كنيسة إنجيلية لها قوانينها وأنظمتها المستقلة، ولقد مُنحوا هذا الحق في

---

(١) المصدر ذاته، ص ٢٩.

(٢) راجع عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين (دمشق، ١٩٦١) ج ١٣ ص ٣١٠ـ ٣١١ من أجل مصادر ترجمته.

(٣) *A Brief Documentary History of the Translaion of the Scripture. p. 29.*

(٤) المصدر ذاته، ص ٢٧.

(٥) المصدر ذاته، ص ٢٦.

(٦) الطيباوي، ص ١٦٣. يعتمد على ABCFM Archives, Series ABC. 30 Vol. XVI p.5

ربيع سنة ١٨٤٨ . وبالرغم من عدم اهتمام البستاني بالحصول على أية وظيفة دينية كان يعتبر ركناً من أركان عمدة الكنيسة الإنجيلية[١]، وهذا الاعتبار الكبير خوله أن يكون من بين الخطباء الذين تكلموا في حفلة تدشين البناء الجديد للكنيسة الإنجيلية في بيروت سنة ١٨٦٧[٢].

ولم يقعده العمل في ترجمة الكتاب المقدس عن القيام بأعمال أخرى لتحسين وضعه المالي، إذ أصبح سنة ١٨٥٤، بمسعى من المرسلين الأميركان، ترجماناً لقنصلية الولايات المتحدة الأميركية في بيروت. ولقد لعب دوراً بالغ الأهمية في هذه القنصلية حيث شغل مركز القنصل الفعلي طيلة مدة تزيد عن السنة اعتباراً من ٤ نيسان سنة ١٨٥٧ حتى ٢٢ تموز سنة ١٨٥٨ وذلك خلال الإجازة السنوية للقنصل الأميركي. وكانت المراسلات الرسمية للقنصلية خلال تلك الفترة تجري باللغة العربية[٣]. وفي سنة ١٨٦٢ تنازل عن هذه الوظيفة لولده البكر سليم البستاني[٤].

نشره للكتب وتحقيقها وترجمتها

وفي حقل نشر الكتب وتحقيقها وترجمتها قام المعلم بطرس البستاني بشرح كتاب **بحث المطالب**[٥] للمطران جرمانوس فرحات وعلق حواشيه سنة ١٨٥٤ ودعاه **مصباح الطالب في بحث المطالب**[٦]، وهو عبارة عن مطول في الصرف والنحو

---

(١) «بطرس البستاني». **الجنان** ج١٤ (١٨٨٣) ص ٢٩٠. «دائرة المعارف». ج٧ ص ٥٩٥: الطيباوي ص ١٦٤: وفيليب دي طرازي، **تاريخ الصحافة العربية**، ج١ ص ٩١. وكان البستاني عضواً فخرياً في المجمع الديني الأميركي في بوسطن. «المرحوم المعلم بطرس البستاني». **المقتطف** ج٨ (١٨٨٣) ص ٥.

(٢) «كنيسة بيروت الإنجيلية» **النشرة الأسبوعية** ج١٤ (١٨٨٤) ص ٣٨١.

(٣) الطيباوي، ص ١٦٧.

(٤) المصدر ذاته.

(٥) كان قد طبع أولاً في مالطة سنة ١٨٣٦ في ٣١٧ ص. لويس شيخو. «تاريخ فن الطباعة في المشرق». **المشرق** ج٣ (١٩٠٠) ص ٥٠٤. ويوسف اليان سركيس، **معجم المطبوعات العربية والمعربة**، عمود ١٤٤٢.

(٦) بيروت، المطبعة الأميركانية، ١٨٥٤ في ٤٢٥ ص. **المشرق** ج٣ (١٩٠٠) ص ٥٠٦ **معجم المطبوعات العربية والمعربة**، عمود ٥٥٩.

والعروض والقوافي. ووضع له دليلاً دعاه مفتاح المصباح [١]. وفي سنة ١٨٥٩ وقف على نشر كتاب أخبار الأعيان في جبل لبنان [٢] لطنوس الشدياق وناظر طبعه. وفي سنة ١٨٦٠ ضبط ديوان أبي الطيب المتنبي [٣] وعلق حواشيه وناظر طبعه. وقام أيضاً في هذه السنة، بتحقيق قصة أسعد الشدياق [٤] الذي يعتبره الإنجيليون أول شهيد إنجيلي في الديار الشامية[٥]. وفي سنة ١٨٦١ قام بترجمة قصة روبنسون كروزو دعاها التحفة البستانيّة في الأسفار الكيروزية [٦] وذكر في مقدمتها بأنها من أحسن الكتب التي تقرأ في المدارس تقويه للتلاميذ ولا يخشى على من طالعها من الملل لتنوع موضوعاتها وتفنن أساليبها ولطف معانيها وعربيتها المفهومة ولغتها المأنوسة وأن لها المزية على باقي القصص من عدة أوجه هي:

«أولاً: إنها مبنية على أساس صحيح وروايات صادقة.

---

(١) بيروت، المطبعة الأميركانية، ١٨٦٢ في ١٤٤ و١٨٦٨ في ٣٦١ ص. المشرق ج٣ (١٩٠٠) ص ٥٠٦. معجم المطبوعات العربية والمعربة، عمود ٥٥٩.

(٢) بيروت، المطبعة الأميركانية، ١٨٥٩ في ٧٢٠ ص. المشرق ج٣ (١٩٠٠) ص ٥٠٦: معجم المطبوعات العربية والمعربة، عمود ١١٠٧: وأعاد تحقيقه الدكتور فؤاد أفرام البستاني، بيروت، الجامعة اللبنانية ١٩٧٠ في جزئين مع مقدمة وفهارس.

(٣) بيروت، المطبعة السورية، ١٨٦٠ في ٣٨٢ صفحة. معجم المطبوعات العربية والمعربة، عمود ١٦١٦.

(٤) كانت قد طبعت في مالطة سنة ١٨٣٣ تحت اسم خبرية أسعد الشدياق. وتمثل وجهة النظر البروتستانتية. معجم المطبوعات العربية والمعربة، عمود ١١٠٥.

(٥) اهتم المرسلون الأميركان كثيراً للعثور على أسعد الشدياق الذي كانوا يعتقدون بأنه لا يزال حياً في دير قنوبين عند البطريرك الماروني ولذلك سعوا بواسطة التاجر الإنكليزي المستر طود للحصول على إذن من إبراهيم باشا، حاكم الديار الشامية حينئذ ١٨٣١ ـ ١٨٤٠ وعندما سمح لهم الأمير بشير الثاني بتفتيش الدير لم يجدوا شيئاً. راجع مجلة الميشنري هيرلد ج٢٦ (١٨٣٠) ص ١٨: ٣٧٣: ج٢٧ (١٨٣١) ص ١٤٨: ٢١٠: ج٢٨ (١٨٣٢) ص ٣٢٦: ج٢٩ (١٨٣٣) ص ٢٨ ـ ٣٠. جسب ص ٢٩ ـ ٤٩: ١٨٣: ٣٥٣: ٦٨١.

(٦) ترجمت إلى العربية سنة ١٨٣٥ من قبل المرسلين الأميركان الذين كانوا يعتقدون بأن الروايات الخيالية هي المصدر التربوي الوحيد في البلاد. الميشنري هيرلد ج٢٦ (١٨٣٠) ص ٧٩. كما كانوا يعتقدون أن العرب يحبون قصص المغامرات. الميشنري هيرلد ج٣٠ (١٨٣٤) ص ٣١٣.

ثانياً: إن ما بها من الأخبار والحوادث ممكن عقلاً ومقبول نقلاً.

ثالثاً: إنها مهذبة ومنزهة عن كلام السفاهة والخلاعة.

رابعاً: إنها محتوية على حكم وآداب ونكت كبيرة الفائدة تحسن للخاصة والعامة وللأكابر والأصاغر.

خامساً: إنها قد زينت بصور عديدة تكميلاً وتقريباً لفهمها»[1].

ويعتذر من القارىء إذا ما وجد بعض الأخطاء لأن ترجمتها وتهذيبها وطبعها كانت معاً «وقد أكملت في فضلات الوقت (أوقات الفراغ) مدة خمسة أشهر مملوءة من الأضطرابات والهموم والمتاعب»[2] (خلال فتنة الستين). في مقدمة هذه القصة يوضح المعلم بطرس البستاني نظرته إلى كل من «الوقت» «والعمل» حيث يقول: «إن الوقت لدن، قابل الانضغاط، يطول ويقصر بحسب اجتهاد صاحبه، وأن فضلات الأوقات التي يصرفها كثيرون في الملاهي والكسل يمكنهم أن يصرفوها في أعمال مفيدة لهم ولابناء وطنهم»[3] وذُكر أنه ترجم كتاب سياحة المسيحي[4] وكتاب تاريخ الإصلاح،[5]

---

(١) قال روسو في هذا الكتاب: «هو عندي أثمن ذخر في التربية الاستقلالية الطبيعية وسيكون أول كتاب يقرؤه طفلي أميل». «روبنسون كروزو». المقتطف ج٧٤ (١٩٣٤) ص ٣٧٨.

(٢) كثيراً ما يكرر طلبة العلم قراءتها وهم واجدون في كل مرة لذة جديدة ومنفعة قشيبة». الأب أميدي لوريول. «في الروايات الخيالية». المشرق ج١ (١٨٩٨) ص ٦٥٥.

(٣) التحفة البستانية في الأسفار الكيروزية. طبعة ثانية، بيروت، مطبعة المعارف، ١٨٨٥. المقدمة. يذكر الأب أميدي لوريول في مقالته «في الروايات الخيالية» المشرق ج١ (١٨٩٨) ص ٦٥٥. ان مترجم هذا الكتاب إلى العربية قد زاد على الأصل قطعتين يطعن فيهما بالكنيسة ويطنب في المذهب البروتستاني». ولدى مقارنة النص العربي المتعلق «بالخوارنة و«المذهب البابوي»، الموضعين اللذين «يطعن فيهما بالكنيسة» نجد أن البستاني كان أميناً في الترجمة. انه يترجم:

«I had rather be delivered up to savages, and be devoured alive, than fall into the merciless claws of the priests, and be carried into the inquisition». D. Defoe. *Robinson Cruso* (New York 1814) p. 297.

«انه أحب إلي أن أسلم نفسي للبرارة وأدعهم يبتلعونني حياً من أن أقع في مخالب الخوارنة العديمي الرحمة وأرسل إلى محل التفتيش» ص ٢٣٧.

(٤) التحفة البستانية في الأسفار الكيروزية. ص المقدمة.

(٥) المصدر ذاته.

وكتاب تاريخ الفداء[١] وتاريخ نابليون الأول أمبراطور فرنسا[٢].

نفير سورية[٣]

أثر وقوع «حوادث الستين»[٤] المؤسفة بين الموارنة والدروز، وانطلاقاً من أيمان المعلم بطرس البستاني بأن الجرائد هي «من أكبر الوسائط لتمدن الجمهور... إذا استعملت على حقها»[٥] أصدر نشرته الدورية نفير سورية، ما بين ٢٩ أيلول ١٨٦٠ و ٢٢ نيسان ١٨٦١، ذات صفحة واحدة[٦] يتراوح عدد الأسطر في كل نشرة منها بين ٢٥ سطراً و ٧٢ سطراً. وقد جعلها على شكل رسائل وطنية موجهة إلى أهالي البلاد من «محب للوطن» تنضح بالنصائح الصريحة المخلصة التي كان يتوخى منها شد عرى الالفة والاتحاد اللذين يتوقف عليهما نجاح المواطنين على اختلاف مذاهبهم وطوائفهم، سائلاً الله تعالى أن يرشدهم إلى معرفة صالحهم وخير بلادهم آملاً أن

(١) «المرحوم بطرس البستاني». النشرة الأسبوعية، ج١٣ (١٨٨٣) ص ١٤٩، «بطرس البستاني» الجنان ج١٤ (١٨٨٣) ص ٢٩٠، «دائرة المعارف»، ج٧ ص ٥٩٥، بيروت، المطبعة الأميركانية، ١٨٤٤.
المصدر ذاته. نشر تباعاً في النشرة الأسبوعية في ٢٤٦ عدداً من العدد ٦ تاريخ ٦/٢/١٨٧٢ حتى العدد ٦ تاريخ ٦/٢/١٨٧٧. وذُكر أن الدكتور كرنيليوس فانديك هو مترجمه عن كتاب ميرل دوبنياه J. H. Merl d'Aubigne *(History of the Great Reformation)* معجم المطبوعات العربية والمعربة، عمود ١٤٦٣.

(٢) بيروت، المطبعة الوطنية، ١٨٦٨ في ٤٣٧ ص. يذكر عيسى اسكندر المعلوف في مقالته حول «تواريخ الإمبراطور نابليون بونابرت باللغة العربية»، المشرق ج٢٩ (١٩٣١) ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ ان هذا الكتاب هو عبارة عن كتاب تاريخ ملوك فرنسا (بولاق ١٨٤٧) أصلح ونشر بإضافات إليه من تاريخ نقولا الترك المطبوع في باريس سنة ١٨٣٩. ويؤيده الآب لويس شيخو، «تاريخ فن الطباعة في المشرق». المشرق ج٤ (١٩٠١) ص ٨٧ عدد ١١. انظر معجم المطبوعات العربية والمعربة، عمود ٥٥٨، خير الدين الزركلي، ج٢ ص ٣١، عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين ج٢ ص ٤٨ ـ ٤٩، والطيباوي، ص ١٧٤.

(٣) وردت خطأ «نفير سوريا» في تاريخ الصحافة العربية لفيليب دي طرازي، ج١ ص ٦٤.

(٤) ابتدأت في شهر نيسان ١٨٦٠ وانتهت في شهر آب ١٨٦٠ عند وصول الجيوش الفرنسية إلى بيروت، حتي، لبنان في التاريخ، ص ٥٣٣.

(٥) خطاب في آداب العرب، ص ٣٤.

(٦) وردت خطأ بأنها ذات صفحتين في تاريخ الصحافة العربية لفيليب دي طرازي، ج١ ص ٦٤. والروائع: بطرس البستاني، ص «يا».

يتصفحوا نشراته هذه «بروح المحبة والخلوص والبساطة بما انه ناتج عن خلوص نية وخلوص غرض ممن شارككم في مصائبكم ويشارككم في حاسياتكم ويتألم كثيراً من النظر إلى مصائبكم»[١]. ذكر أنه كان يجول في خاطره قبل وقوع هذه الحوادث المؤسفة أن يصدر نشراته هذه منبهاً «إلى شر نتائج الحروب الأهلية» ولكن عدل عن ذلك لأن «رخومة صوت محب للوطن تغطيها خشونة أصوات طبول الغرض والغايات»[٢]. وبعد أن رأى بعينيه لهيب الغرض يستعر عاد وصمم أن يقوم بتقديم ما يستطيعه من خدمة جزئية للوطن راجياً أن تحوز محاولته هذه قبول المواطنين، لأن عليه، على حد قوله، «الكتابة والتذكير وعليكم التصفح والتفكير وعلى الله النتائج والتدبير»[٣]. وظهر منها ثلاث عشرة نشرة[٤] موسومة: «نفير سورية عدد ١»، «نفير سورية عدد ٢» «ونفير سورية عدد ٣» واعتباراً من النشرة الرابعة صدرت موسومة: «نفير سورية أو الوطنية الرابعة» و«نفير سورية أو الوطنية الخامسة» حتى النشرة الحادية عشرة[٥]. ولقد وضع، اعتباراً من النشرة الرابعة، اطاراً مزخرفاً من خطين حول صفحة الكتابة مع غصن زيتون على كل من جانبي اسم النشرة.

أدان البستاني الأعمال التي جرت في «حوادث الستين» معتبرها «أعمال برابرة متوحشين عارين من الإنسانية والشيمة والمروة والديانة ولصوص وقطاع طرق»[٦] حاثاً أهالي البلاد إلى العودة إلى ديارهم التي هجروها، والثقة بأولي الأمر، لأنه لا خوف على الأبرياء، محذراً من البطالة «التي من شأنها أن تضر الجسم والعقل والنفس»[٧]

---

(١) نفير سورية عدد ٢. بيروت في ٨ تشرين الأول ١٨٦٠ سطر ٢٨ ـ ٣٠.

(٢) نفير سورية أو الوطنية الخامسة. بيروت في أول تشرين الثاني ١٨٦٠ سطر ٣٨.

(٣) نفير سورية أو الوطنية الخامسة. بيروت في أول تشرين الثاني ١٨٦٠. سطر ٤٢.

(٤) يوجد من «نفير سورية» إحدى عشرة نشرة في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت. بلغ عدد أسطرها ٥٧٩ سطراً.

(٥) وردت خطأ في تاريخ الصحافة العربية لفيليب دي طرازي بأنها ظهرت «موسومة بالنفير الأول والنفير الثاني حتى الأخير بدلاً من العدد الأول والعدد الثاني، الخ. كما جرت العادة» ج١ ص ٦٤. يظهر من الأخطاء العديدة التي ذكرها الفيكونت فيليب دي طرازي عن نفير سورية بأنه لم يتسن له الإطلاع عليها. ويؤكد ذلك قوله: «وقد أتحفنا خليل سركيس.. بفقرة منقولة عن نفير سوريا». راجع تاريخ الصحافة العربية، ج١ ص ٦٤.

(٦) نفير سورية، عدد ١ بيروت في ٢٩ أيلول ١٨٦٠ سطر ٥ ـ ٦.

(٧) نفير سورية. عدد ٣ بيروت في ١٥ تشرين الأول ١٨٦٠ سطر ٣٠.

والاستعاضة عنها بالجد المتواصل «والكد بأيديكم وعرق جبينكم» بدلاً من الوقوف على الأبواب والاتكال على الإحسانات التي ما انفجر ينبوعها إلا ليجف ولا عاشت إلا لتموت»[١]. ويذّكر أبناء الوطن، الذين يشربون ماءً واحداً ويتنسمون هواءً واحداً ويتكلمون لغة واحدة ويطأون أرضاً واحدةً وصوالحهم وعاداتهم واحدة، أن يعتبروا نصوص ومبادىء الديانة التي يدينون بها[٢] وتوجيه جل اهتمامهم إلى المستقبل عوضاً عن النظر إلى الماضي لأن «الديانة الصحيحة من شأنها أن تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، وكل ديانة ليست لها هذه المزية لا تستحق أن تسمى ديانة»[٣]، وحذرهم من التعنت والتحكم والتعصب[٤] والبطل «فإنها ليست من الخير في شيء»، وذكرهم بتطبيق الآية الذهبية القائلة «كما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أنتم بهم هكذا»[٥].

يعترف البستاني بأنه أتى كثيراً في نشراته على ذكر الوطن، لأن الوطن «أحب شيء إلى سمع من كان محباً لوطنه، وألذ ما زين به جيد العربية من الكلمات المولدة»[٦]. وخشية أن يساء فهمه يجد نفسه مضطراً أن يعرف لفظتي «الوطن» و «أبناء الوطن» اللتين طالما رددهما. فالوطن، على حد قوله، هو «أشبه بسلسلة متصلة كثرت حلقاتها، طرفها الأول منزلنا أو مسقط رأسنا بمن حواه، وطرفها الآخر بلادنا بمن فيها»[٧]. وأما الوطن الذي كان ينشده فهو «سورية المشهورة ببر الشام وعربستان، هي وطننا على اختلاف سهولها ووعورها وسواحلها وجبالها»[٨]. وأبناء الوطن، في عرفه، هم «سكان سورية على اختلاف مذاهبهم وهيئاتهم وأجناسهم وتشعباتهم»[٩]. ولم تكن

---

(١) المصدر ذاته، سطر ٢٩.

(٢) نفير سورية. عدد ١. بيروت في ٢٩ أيلول ١٨٦٠ سطر ٢٥.

(٣) نفير سورية. عدد ٣. بيروت في ١٥ تشرين الأول ١٨٦٠ سطر ٣٢ ـ ٣٣.

(٤) نفير سورية أو الوطنية الرابعة. بيروت في ٢٥ تشرين الأول ١٨٦٠ سطر ٣٠. عرف عنه بأنه «لم يكن متعصباً إلا للوطن ولا منقاداً إلا للمبادىء الوطنية. «المرحوم المعلم بطرس البستاني». المقتطف ج٨ (١٨٨٣) ص ٦. «دائرة المعارف». دائرة المعارف ج٧ ص ٥٩٢.

(٥) وردت «فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم» متى ٧: ١٢. الكتاب المقدس. بيروت، المطبعة الأميركانية، ١٨٦٥.

(٦) نفير سورية أو الوطنية الرابعة سطر ١ ـ ٢.

(٧) المصدر ذاته، سطر ٤.

(٨) المصدر ذاته، سطر ٢.

(٩) المصدر ذاته.

هذه التعاريف للوطن وأبناء الوطن بالدعوة الصريحة إلى تبني قومية معينة واضحة المعالم بالنسبة إليه، حيث نجده، كمحب للوطن وليس كداع إلى قومية معينة، يثور بوجه أحد الأجانب الذي قال له «مَن مِن الناس يصدق إبن عرب»[1]، لا بل نراه يهتاج به «الدم العربي» عندما سمع أحدهم يطعن «في الجنس العربي» ويقذف العرب قاطبة متهمهم «بكونهم كذابين غشاشين». وللدلالة على روحه الوثابة في الدفاع عن أبناء وطنه تجاه محاوريه لا بد من ذكر الواقعة التالية التي جرت له، حيث يقول: «وبينما كنت ذات يوم أحدث رجلاً يطعن في الجنس العربي ويقذف العرب بكونهم كذابين غشاشين، من دون استثناء ولا مراعاة ضمير، هاج بي الدم العربي وقلت له بحماسة وحمية دفعاً لحمة لسانه: «إن الغش والكذب طبيعيان في جميع الناس والأجناس، وربما كان كذب العرب أكثر بأعتبار العدد والكمية، وذلك لأنهم يكذبون عفواً من دون روية ولا حكمة، كما هو دأبهم في باقي الأعمال، وأما كذب باقي الأجناس فربما كان أعظم من كذب العرب، من حيث الوزن والكيفية، وذلك لأنهم لا يكذبون إلا عن روية وحكمة ولأجل غاية وفائدة، فكأن كذبهم متقن كأعمالهم»[2]. كان بذلك يحاول أن يدافع عن بني وطنه ولم يكن يبرر الكذب لأن «كل ديانة تجيز الكذب لا يمكن أن تكون صحيحة»[3].

بالرغم من تسليمه الكلي، بدون أي تحفظ، بأن «منزلنا هو أحسن المنازل وأبناء وطننا هم أحسن الناس عندنا»[4] يعود ويرجح كفة الإنسان أو بالأحرى الجنس البشري على كل شيء آخر حتى لو كان ذلك الشيء المنزل والوطن، لأن «السر بالسكان لا بالمنزل»[5]، ثم يخطو خطوة أخرى نحو خلاص النفس البشرية فيما وراء الطبيعة متخلياً كلياً عن فكرة «القومية» التي وصلت إلى أوجها في أوروبا في القرن التاسع عشر، حيث يقول بأنه «ليس للإنسان وطن حقيقي في هذا العالم بل وطنه الحقيقي في

---

(١) نفير سورية أو الوطنية الثامنة، بيروت في ١٤ كانون الأول ١٨٦٠، سطر ٩ ـ ١٠.
(٢) المصدر ذاته، سطر ١٢ ـ ١٧.
(٣) المصدر ذاته، سطر ٢١.
(٤) نفير سورية أو الوطنية الرابعة، بيروت في ٢٥ تشرين الأول ١٨٦٠ سطر ٦ ـ ٧.
(٥) المصدر ذاته، سطر ٧.

عالم الأرواح وراء القبر»[١] متبنياً بذلك، من حيث يدري أو لا يدري، نظرية القديس اوغسطينوس (St. Augustine) في مدينة الله.

وبعد أن يعدد الخسائر المادية، التي يمكن التعويض عنها والتي بلغ مجموعها /٣٦٧,٠٠٠,٠٠٠/ ثلاثمائة وسبعة وستين مليون غرش تركي، «وذلك بقدر مدخول سورية في موسم الحرير في ثلث سنين ونصف تقريباً على حساب الفي قنطار في السنة»[٢]، والخسائر الأدبية، وهي: خسارة الإلفة، والشيمة أو شرف النفس، والصدق والتصديق، والراحة العمومية في البلاد، وبعض العرض، وكثير من الكتب النادرة، والأمنية التجارية»[٣]، أخذ يعدد الأرباح الأدبية التي تمثل الوجه النير «للمسألة السورية»[٤] وتشتمل على قسمين، يتعلق القسم الأول منها بالمكاسب الأدبية التي جناها أبناء الوطن، بينما يشرح القسم الثاني الأمور الواجب توفرها بالسلطة الحاكمة. فمن الأرباح الأدبية التي كانت عبرة لأبناء الوطن الأمور التالية: أولاً ـ معرفتهم بطريق محسوس واضح عظم قباحة الحروب الأهلية. ثانياً ـ معرفتهم أن مصلحتهم العامة تقتضي «وجود روابط الاتحاد وحسن الإلفة والموادة بين فيئاتهم (كذا) وأفرادهم»[٥]. ثالثاً ـ معرفتهم أن كل ما جرى من ويلات وقتل ودمار كان نتيجة حتمية «لقلة الديانة والتمدن أو لعدمهما»[٦]. رابعاً ـ معرفتهم بأنهم جزء لا يتجزأ من المجتمع الإنساني لأنهم «ليسوا وحدهم في الدنيا بل إنما هم حلقة من سلسلة العالم العظيمة»[٧]. خامساً ـ معرفة عقلائهم وأصحاب العرض والمال أن اللوم والخسارة تقع عليهم[٨].

---

(١) المصدر ذاته، سطر ٣١.

(٢) نفير سورية أو الوطنية السادسة، بيروت في ٨ تشرين الثاني ١٨٦٠ سطر ٥ ـ ٨. بلغت الخسائر المادية في «حوادث الستين» عند فيليب حتي أربعة ملايين ليرة انكليزية. انظر فيليب حتي، لبنان في التاريخ. بيروت، مؤسسة فرنكلين، ١٩٦٠، ص ٥٣٢.

(٣) نفير سورية أو الوطنية الثامنة، بيروت في ١٤ كانون الأول ١٨٦٠ سطر ١ ـ ٦٦.

(٤) كان البستاني يعتقد بأنه «لكل مسألة في الغالب وجهان، أحدهما مظلم قبيح والآخر نير مليح» انظر نفير سورية أو الوطنية التاسعة، بيروت في ١٤ كانون الثاني ١٨٦١، سطر ٣.

(٥) المصدر ذاته، سطر ١٤ ـ ١٥. وهي أول دعوة صريحة لتبني فكرة «الوحدة الوطنية» بين مختلف الطوائف.

(٦) المصدر ذاته، سطر ٢٣.

(٧) المصدر ذاته، سطر ٤٣.

(٨) المصدر ذاته، سطر ٤٨.

سادساً ـ اقتناع الأكثرية الساحقة منهم بأن «الحكم ملح الأرض، وبأن الشرائع لجام الأشرار»[1].

أما فيما يتعلق بالسلطة الحاكمة فلقد نبهت هذه الحوادث المؤسفة، التي طالما بالغ «محب للوطن» في ذمها وبيّن جسامة أضرارها وكثرة خسائرها، أذهان الحكام إلى أمور كثيرة، أهمها: أولاً ـ وجوب انتباه الحكام وسهرهم على مأموريتهم ومداركة الأمور قبل وقوعها[2]. ثانياً ـ وجوب وجود حكام وولاة صادقين في حق الدولة وحق البلاد والأهالي وفيهم الكفاءة ولهم الإرادة والمقدرة ذاتياً وعسكرياً لإجراء الشرائع وتأديب أصحاب الجنايات[3]. ثالثاً ـ وجوب إجراء إرادة حضرة صاحب الجلالة والشوكة السنية[4]. رابعاً ـ وجوب النظر في اعطاء المأموريات إلى الاستحقاق والأهلية لا إلى مجرد الجنسية والسلالة أو الغنى والرفعة[5]. خامساً ـ وجوب وضع حاجز بين الرياسة، أي السلطة الروحية، والسياسة، أي السلطة المدنية[6]. ويقصد بذلك فصل الدين عن الدولة نظراً للاضرار الناتجة عن المزج بين السلطتين وتعرض كل منهما لمصالح الأخرى، وأنه، في نظره، «كلما كان الفاصل (بين السلطتين الروحية والسياسية) أمتن تكون الراحة والنجاح أعظم»[7]. سادساً ـ وجوب اتخاذ التدابير القوية الفعالة لإيجاد واعطاء الأمنية التامة على خيرات الإنسان الفضلى ومتاجره وصنائعه ومعارفه[8]. سابعاً ـ وجوب الاعتناء من طرف الحكام والولاة في ملافاة الرعايا والالتفات نحو ذوي الاستحقاق بينهم والمحافظة على ما به راحتهم ورفاهة أحوالهم ونجاح أعمالهم[9].

ويتعرض البستاني أثناء بحثه للارباح الأدبية إلى بعض النواحي الواجب على أبناء

---

(١) المصدر ذاته، سطر ٥٩.
(٢) نفير سورية أو الوطنية العاشرة، بيروت في ٢٢ شباط ١٨٦١، سطر ٢.
(٣) المصدر ذاته، سطر ٧ ـ ٨.
(٤) المصدر ذاته، سطر ١١ ـ ١٢.
(٥) المصدر ذاته، سطر ١٨.
(٦) المصدر ذاته، سطر ٢٧.
(٧) المصدر ذاته، سطر ٤٠ ـ ٤١. انظر أدناه ص ٢٠٨ هامش ٧.
(٨) المصدر ذاته، سطر ٤٥.
(٩) المصدر ذاته، سطر ٤٩.

الوطن الأخذ بها إذا ما أرادوا «الانتظام في سلك الشعوب المتمدنة»، وأهمها فتح الأبواب على مصراعيها لدخول المعارف والصنائع إلى ديارهم. كما انه كان يأمل من أبناء الوطن الذين أتيحت لهم الفرص لأخذ التمدن الحقيقي إلا يحوّلوا «وجوههم عن أبناء وطنهم، فيكونوا غرباء في بلادهم، لأن ذلك لا يأول (يؤول) إلى خير البلاد وبالتالي خيرهم أو أقله خير ذريتهم وليس هو من حق الأخوة الوطنية بل يبذلون جهدهم في إفادة الوطن وبنيه بقدر استطاعتهم غير مالين ولا كالين إذا لم يجنوا حالاً أثمار أتعابهم وخسائرهم»[1]. وأما فيما يتعلق بالذين ينشئون المدارس والقيمين على تعليم أبناء الوطن، وبصورة خاصة الأجانب منهم «الذين يرغبون خير البلاد لا صوالحهم الذاتية»[2] فقد حثهم على تعليم جميع العلوم باللغة العربية وذلك اقتداء بمن هم أقدم وأخبر منهم بأحوال بلادنا وأهاليها واللغة العربية. لأن ذلك من شأنه أن يفيد اللغة العربية أولاً، كما انه يجعل المتعلمين باللغة العربية «أكبر نفعاً وغيرة نحو بلادهم وأكثر قبولاً عند أبناء وطنهم»[3]. وأما الذين يشككون بكفاءة اللغة العربية ومقدرتها على استيعاب العلوم الحديثة والذين يدّعون أنه لا يمكن لأبناء العرب اكتساب التمدن الحديث بواسطة لغتهم الأم فقد رد عليهم متهمهم بأنهم «لا يعرفون فضل هذه اللغة، وقد فاتهم أن تمدنها أقرب وأسهل وأفعل من تمدن أبناء العرب تحت لغات أجنبية متنوعة»[4].

وخصص الوطنية الحادية عشرة لموضوع التمدن الذي كان يشغل جميع الأفكار «وكان روح العصر شديد البحث عنه والاجتهاد في الحصول عليه واجتناء أثمار فوائده»[5]، وخشية انزلاق الكثير من أبناء وطنه الوقوع في الغلط فينزلون «التمدن الكاذب التقليدي المزور منزلة التمدن الحقيقي»، أخذ على عاتقه مهمة تحديد ماهية التمدن والوسائط المؤدية إليه ضارباً صفحاً «عن فوائده ولذاته مراعاة لضيق المقام»[6].

---

(١) نفير سورية أو الوطنية التاسعة، بيروت في ١٤ كانون الثاني ١٨٦١، سطر ٦٩ ـ ٧١.
(٢) نفير سورية أو الوطنية العاشرة، بيروت في ٢٢ شباط ١٨٦١، سطر ٥٩.
(٣) المصدر ذاته، سطر ٥٧ ـ ٥٨.
(٤) المصدر ذاته، سطر ٥٩ ـ ٦٠.
(٥) نفير سورية أو الوطنية الحادية عشرة، بيروت في ٢٢ نيسان ١٨٦١، سطر ١ ـ ٢.
(٦) المصدر ذاته، سطر ٥.

إن التمدن، على حد تعبيره، مأخوذ في الأصل من لفظة «مدينة» وذلك إما باعتبار كونها محل العمران وتمييزاً لها عن البادية فيراد بها «عيشة الحضر»، أو باعتبار مقابلتها للقرية فيراد بها «رفاهية العيش»، ثم أخذ هذا المعنى يتوسع إلى أن أصبح في القرن التاسع عشر يدل «على المعنى المفهوم منه الآن وهو: التهذيب الداخلي والخارجي والتزين بالمعارف والآداب والفضائل»[1]. وحالة «التمدن والظرف»، في عرفه، والتي يمتاز بها الإنسان عن سائر الحيوانات، «هي تلك الحالة الطارئة على الإنسان من التهذيب في الخلق والأخلاق التي يكتسبها شيئاً فشيئاً بواسطة التقليد والجد والاجتهاد إلى أن يصل إلى أسمى درجاتها»[2]. وحذر أنصار كل شيء قديم من تبني «تمدن الأجيال السالفة» لأنه كان «قليل المنفعة سريع الزوال»، كما حذر أنصار «تمدن أوروبا» الحالي من مغبة الاعتماد الكلي على هذا التمدن الجديد «لأن أكثره غير كامل من أوجه كثيرة»[3]. كما نصحهم بألا يتهافتوا على جميع ما يأتيهم من الديار الأفرنجية وإلا يقبلوا أي شيء منها «دون فحص مدقق وانتقاد صحيح» وأن يمارسوا عملية «انتخاب ما جل منها فقط مما يفيدهم تقدماً وتهذيباً»[4]. كي لا يكونوا كالذين «يخدعون أنفسهم ويقبضون الدرهم الزائف مع الدينار الخالص، ويرقعون أثواباً بالية بخرق جديدة». وأما وسائط التمدن، والتي لا تكون إلاّ تدريجية، فتشتمل على أمور ثلاثة[5]: أولاً ـ الديانة الصحيحة. ثانياً ـ الحكم السياسي الذي يهمه صالح رعاياه. ثالثاً ـ وسائط اكتساب الآداب كالمدارس والمطابع والجرنالات والتجارة. ولقد مارس المعلم بطرس البستاني جميع وسائط اكتساب الآداب باستثناء التجارة. لا شك أن المبادىء التي انطوت عليها نشرة نفير سورية كانت نبراساً يهتدي به سليم البستاني بكر أولاد المعلم بطرس البستاني، في افتتاحياته ومقالاته الواردة في مجلة الجنان، فلطالما ردد تعابيرها مثل «الحكم ملح الأرض» وشر الحروب الأهلية «وحب الوطن» وروح العصر والتمدن. ولذلك قيل عنها عن حق بأنها «أتت برهاناً جديداً على طول باعه

---

(١) المصدر ذاته، سطر ٨ ـ ٩.
(٢) المصدر ذاته، سطر ١١ ـ ١٢.
(٣) المصدر ذاته، سطر ٢٩ ـ ٣٠.
(٤) المصدر ذاته، سطر ٤٦ ـ ٤٧.
(٥) المصدر ذاته، سطر ٥٥ ـ ٦٢.

(المعلم بطرس البستاني) وسعة اطلاعه في الإنشاء والسياسة»[1].

خطاب في آداب العرب

اشتهر المعلم بطرس البستاني بخطبه ومواعظه المؤثرة التي وصفتها النشرة الأسبوعية لسان حال «الإرسالية السورية» بأنها «تأخذ بمجامع الفؤاد وتلين صلد الجماد، فكم أجرت دموعاً وأذابت قلوباً وضلوعاً»[2]. ومن هذه الخطب المدونة خطاب في آداب العرب، أو على حد تعبيره، «وإن شئتم فقولوا علوم العرب أو فنون العرب أو معارف العرب»[3]. ألقاه أرتجالاً في اليوم الخامس عشر من شهر شباط سنة ١٨٥٩ في مدينة بيروت وذلك بحضور «عمدة الخطب» وأمام محفل حافل من إفرنج وأبناء عرب. وهو الخطاب الثاني من خطبه الثلاثة المطبوعة. لقد حدد البستاني بخطابه هذا أهم الاصلاحات الواجب القيام بها لنهوض مجتمعنا المتخلف من سباته العميق وانحطاطه المزري.

لقد ذكر بأن عليه، قبل الولوج في معالجة موضوع آداب العرب، أن يتطرق إلى بعض القضايا بطريقة موجزة كمدخل للموضوع، وقدم الأمور الثلاثة التالية:

أولاً: إن العلوم من شأنها النمو بالتدريج كالحيوان والنبات.

ثانياً: إن العقل البشري إنما يحصّل العلوم بواسطة الحواس على سبيل التعليم والاستقراء.

ثالثاً ـ لا بد للعقل من وسائط خارجة عنه تساعده لاكتساب العلوم. من هذه الوسائط: السفر، والمطالعة، وحرية الفكر التي هي في نظره «من أكبر المطلوبات لأدراك الحقائق وتحصيل العلوم، لأن الفكر المستعبد لا يمكن أن يكون فيه استعداد كما يجب للعلوم»[4].

---

(١) «المرحوم المعلم بطرس البستاني» المقتطف ج٨ (١٨٨٣) ص ٢. «دائرة المعارف، دائرة المعارف ج٧ (١٨٨٣) ص ٥٩٠.

(٢) «المرحوم بطرس البستاني» النشرة الأسبوعية. ج١٣ (١٨٨٣) ص ١٤٩، «بطرس البستاني». الجنان ج١٤ (١٨٨٣) ص ٢٩٠، «دائرة المعارف» دائرة المعارف، ج٧ ص ٥٩٦.

(٣) بطرس البستاني، خطاب في آداب العرب. بيروت، المطبعة الأميركانية، ١٨٥٩ ص ٣.

(٤) المصدر ذاته.

لقد قسم البستاني خطابه هذا إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: تناول فيه حالة العلوم بين العرب قبل ظهور الإسلام، حيث كان العرب في أيام الجاهلية «قوما أميين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة إلا القليل منهم»[١]، ثم تطوروا إلى أن بلغوا درجة من الرقي حيث أخذوا يجتمعون مرة كل سنة في سوقي مكة وعكاظ «يتبايعون ويتناشدون الأشعار ويتفاخرون فيها»[٢]. ولقد خلفوا لنا، نتيجة لهذه الاجتماعات الدورية، المعلقات السبع المشهورة.

القسم الثاني: تناول فيه حالة العلوم بين العرب بعد ظهور الدعوة الإسلامية، حيث إن امتلاك العرب «للبلدان السعيدة التي كانت مقراً للذوق والرونق القديم ولدت فيهم روح لطف وتمدن»[٣]، ولقد كانوا شديدي الحرص «على اكتساب العلوم والآداب واجتهادهم في نموها وانتشارها»[٤]، ولم يكونوا، حسب اعتقاده، متقلدين بواسطة الترجمة والاقتباس بل كانوا مولّدين في جميع العلوم التي اكتسبوها لأنهم أضافوا على هذه العلوم أموراً كثيرة ولا سيما «في العلوم الطبيعية والعلوم الرياضية والعلوم اللغوية حتى أنه لا يوجد في العالم قوم يقدرون أن يفوقوا العرب حتى لا نقول أن يدركوا طبقاتهم فيها»[٥]. وأشاد بالدور الكبير الذي أداه العرب إلى المدنية وبأنه كان لهم الفضل الأول في تنبيه «الافرنج في أجيالهم المظلمة من سباتهم الثقيل إلى طلب العلوم والصنايع»[٦]، كما انهم كانوا حلقة الاتصال التي تربط العلوم القديمة بالعلوم الحديثة. وينتقل إلى ذكر فضل اللغة العربية «وطواعيتها في قبول العلوم من دون احتياج إلى استخدام لغات أجنبية إلا في ما ندر»[٧]. ولا يخفي تقديره العظيم واحترامه للغته الأم لأنها من أقوى الوسائط لوجود الآداب وانتشارها بين أهلها لا بل يسمو بها إلى مصاف اللغات العالمية الراقية ويصنفها بأعلى الدرجات حيث يقول: «لا سبيل إلى الشك بأن

---

(١) المصدر ذاته، ص ٤.
(٢) المصدر ذاته، ص ٥.
(٣) المصدر ذاته، ص ٧.
(٤) المصدر ذاته، ص ١٣.
(٥) المصدر ذاته، ص ١٦.
(٦) المصدر ذاته، ص ١٧.
(٧) المصدر ذاته، ص ١٨.

اللغة العربية هي من أقدم لغات العالم وأكملها وأشرفها، ولولا الخوف من أن تُطلب مني البيّنة لكنت أدعي لها بأنها هي اللغة التي أُنزلت على قلب أبينا آدم في الفردوس الأرضي. . . وغِناها في الألفاظ والمعاني يجعلانها في الرتبة الأولى بين لغات حيّة كانت أم ميتة»[1]. وهذه شهادة صادرة عن المعلم بطرس البستاني الذي كان يتقن عدداً من اللغات مثل اللغة اللاتينية، واللغة الانكليزية، واللغة العبرية، واللغة السريانية. ولإزالة الفساد الطارىء على اللغة العربية والذوق العربي يقترح على أبناء لغة الضاد الغيورين على لغتهم أن يسقوا الكلمات الدخيلة مثل «كوميسيون» و «سيكورته» و «أفندم» مقداراً كافياً من الأفيون كي يغمى عليها بحيث لا يبقى هناك أي مجال لصحوها، وأن يضعوا قنينة من روح النشادر أمام أنف الكلمات العربية المرادفة لها مثل «العمالة» و «الضمانة» و «سيدي» كي تستفيق من سباتها. كما انه لا يغفل احتياج أية لغة حيّة، بما في ذلك اللغة العربية، إلى الاستعارة من لغات أخرى بعض الكلمات المستجدة على أساس أن يقتصر ذلك «على ما لا وجود له في أصل تلك، مما يزيدها قوة وحسناً لا تنافراً وثقلاً»[2]. ولا يعتبر كثرة المرادفات لكلمة واحدة في اللغة العربية بأنه مصدر من مصادر غنى هذه اللغة بل إن ذلك في نظره «لا يفيد زيادة في المعاني التي هي المقصود الأصلي في اللغات»[3]. ويستخلص من كل ذلك بأن اللغة العربية من هذا القبيل تحتاج إلى إصلاح لكي تتمكن من مجاراة التطورات الحديثة التي يحتمها روح العصر، وذلك لأنه «لا يليق بالإنسان الذي إنما جعلت له اللغة واسطة وباباً للعلوم أن يجعلها غاية»[4] ويصرف حياته كلها لتعلمها، ولذلك يقترح وضع قاموس للغة العربية والعلوم المتعلقة بها في قالب «يجعل تحصيلها في ظرف سنة ميسوراً لأهلها الذين نباهتهم في اكتساب اللغات الغربية في المدة المذكورة يشهد بأنه لا يجب أن يصرفوا أكثر منها في تعلم أصول لغة قد رضعوها مع اللبن»[5]. وأما فيما يتعلق باللغة الدارجة أو العامية، التي يعتبرها من العوائق التي تهدد دائماً اللغة الأصلية، فهو مطمئن بأنها لا تشكل خطراً أساسياً بل إنه بالإمكان التغلب على هذه

---

(١) المصدر ذاته.
(٢) المصدر ذاته، ص ٢٠.
(٣) المصدر ذاته.
(٤) المصدر ذاته، ص ١٨.
(٥) المصدر ذاته، ص ٢١.

العقبة بواسطة ازدياد عدد المدارس والمطابع ودور الكتب[١].

القسم الثالث: في آداب العرب في هذه الأيام ـ القرن التاسع عشر.

لقد ازدهرت الآداب والعلوم عند العرب وبلغت ذروة مجدها في القرن الثاني عشر الميلادي ثم أخذت شمسها بالأفول وذلك بسبب «سقوط رغبة الملوك والأكابر» بالعلوم وانقطاع أسباب الطلب وتعطيل السعي في تحصيله مما أدى إلى كساد «بضاعة العلم وأفنى الدهر أهله واستولى الجهل بسطوة عظيمة على الناس حتى صاروا يظنون أن تحصيل العلوم أمر فاسد وسعي باطل»[٢]، وعم الجهل وانحطت الآداب عند العرب ووصل أبناء العرب إلى أدنى درجة من الجهالة والبربرية، حتى أن مدينة بيروت، التي كانت تعتبر مرضعة للآداب وسريراً للتمدن، أصبحت في أوائل القرن التاسع عشر خالية من المتعلمين، وأنه كان على المرء أن يتجول في أسواقها ويفتش باجتهاد كلي على من يقدر أن يقرأ مكتوباً، أو كما يقال «يفك الاسم»[٣]. ويعود الفضل في إحياء الأمل بعودة ما كان للعرب من علوم وحضارة ومدنية إلى خديوي مصر محمد علي باشا الذي أمر بترجمة أطايب كتب الافرنج إلى اللغة العربية، وإلى فضل مساعي المرسلين الأميركان والرهبان والراهبات اللاتين وعلى الخصوص الرهبنة اليسوعية منهم واللعازارية بواسطة انشاء المدارس والمطابع في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في الديار الشامية.

وسائط اكتساب الآداب.

يعدد البستاني في خطابه هذا الوسائط العملية التي يمكن أن يتم بواسطتها اكتساب الآداب ويلخصها بالأمور التالية: أولاً: بواسطة إنشاء المطابع التي هي قادرة على نشر المعارف والتمدن في برهة وجيزة وذلك بما تخرجه من تصانيف مفيدة في مختلف العلوم. ثانياً: بواسطة الجرائد التي يعتبرها من أكبر الوسائط لتمدن الجمهور إذا ما استعملت على حقها[٤]. ثالثاً: بواسطة دور الكتب التي يذكر بأن هناك خزائن

---

(١) المصدر ذاته، ص ٢٤.

(٢) المصدر ذاته، ص ٢٥.

(٣) المصدر ذاته، ص ٣٠.

(٤) يخصص بالذكر المطبعة السورية لصاحبها خليل الخوري الذي أنشأ سنة ١٨٥٨ جريدة حديقة الأخبار. المصدر ذاته، ص ٣٤.

كتب كثيرة خصوصية عائدة للأفراد في الديار الشامية ولكن كتبها غير متوفرة للجميع، وينحي باللائمة بذلك على بخل مقتنيها أو متوليها من الجهة الأولى وعدم أمانة مستعيري الكتب من الجهة الأخرى. وكأني به يقترح إنشاء دور كتب عمومية عندما ذكر بأن مالكي هذه الكتب يقفلون الأبواب الحديدية على كتبهم متروكة لرحمة العث ومأوى للغبار[1]. رابعاً: بواسطة إنشاء المدارس التي يعتبرها من أهم وسائط اكتساب الآداب لأنه «ما الفائدة من تكثير الكتب إذا لم يكن من يقرأها»[2]. ويكرر تنبيهه إلى وجوب تعليم النساء. وإثر تعداد فضل المدارس من مارونية وكاثوليكية وأرثوذكسية وإسلامية يوجه نداء حاراً إلى أهالي البلاد يحثهم فيه على النهوض من سباتهم العميق وولوج الباب المؤدي بهم إلى اللحاق بركب الحضارة، حيث يقول: «فيا أبناء الوطن يا ذرية أولئك الأفاضل وحفدة معاشر السريان واليونان الممتطين سنام الجيل التاسع عشر، جيل المعرفة والنور، جيل الاختراعات والاكتشافات، جيل الآداب والمعارف، جيل الصنائع والفنون، هبوا، استفيقوا انتبهوا، استيقظوا، شمروا عن ساعد العزم ها الآداب واقفة من كل جهة على أبوابكم تقرع طالبة الدخول إلى جبالكم الشامخة البهية وأوديتكم وسهولكم وصحاريكم التي زينتها الطبيعة بحلاها الفاخرة فانبذوا عنكم تعصبكم وافتحوا الأبواب لهذا الصديق القديم الآتي إليكم بعد غربة مستطيلة وترحبوا به واقبلوه بكل فرح وحبور فيملأ بلادكم راحة ورفاهية ويكسوها رونقاً وفخراً»[3].

لقد طبق البستاني جميع النظريات التي كان يبشر بها، ولذلك دعي عن حق «العالم العامل» فلقد أنشأ ثلاث نشرات دورية ومطبعة[4] لطبع هذه النشرات الدورية وكتاب **دائرة المعارف**، كما أسس «المدرسة الوطنية»، وكان سكرتيراً لمكتبة الجمعية السورية التي تأسست في بيروت سنة ١٨٤٧ والتي كانت قوانينها تسمح بإعارة الكتب

---

(١) المصدر ذاته، ص ٣٦.

(٢) المصدر ذاته. لم ينفرد البستاني بالتشديد على تأسيس المدارس، بل نرى أن الشيخ محمد رشيد رضا يذهب أبعد من ذلك في مقالته «فضل تشييد المدارس على الجوامع». **المنار** ج٢ (١٨٩٩) ص ١٦٤ ـ ١٦٥؛ وج٦ (١٩٠٣) ص ١٥٢.

(٣) المصدر ذاته.

(٤) مطبعة المعارف، التي تشارك في استثمارها سنة ١٨٦٨ مع خليل سركيس وفسخت الشركة سنة ١٨٧٦. وبقيت في ملك المعلم بطرس البستاني وبنيه إلى أن أبطلت سنة ١٨٨٨. لويس شيخو «تاريخ فن الطباعة في المشرق». **المشرق** ج٤ (١٩٠١) ص ٨٩ ـ ٩٠.

لاعضاء الجمعية وكان لها قاعة مطالعة للجميع[١].

المدرسة الوطنية

أسس المعلم بطرس البستاني سنة ١٨٦٣ مدرسة داخلية للبنين في بيروت دعاها «المدرسة الوطنية»، وسعى جاهداً أن تمتاز باتساع أبنيتها وملاعبها وجودة مناخ مركزها وطلاقة مناظره[٢] بالإضافة إلى أنه اختار لها نخبة من خيرة المدرسين[٣]، مراعياً بذلك كله الناحيتين الجسدية والعقلية. كان يؤمن إيماناً ثابتاً بأن القيام بتأسيس المدارس الحديثة المناهج هو من أهم الوسائل العصرية للنهوض بالمجتمع والسير به قدماً نحو التمدن الحقيقي الذي كان ينشده لأبناء وطنه. ولم يكن إيمانه هذا مجرد تفكير نظري، لا يمت إلى الواقع بأية صلة، بل كان مبنياً على أسس راسخة من الخبرة العملية الطويلة في حقلي التعليم وتأليف الكتب المدرسية[٤]. لقد مارس قبل تأسيسه المدرسة الوطنية، كما رأينا أعلاه، مهنة التعليم في مدرسة عين ورقة أولاً ثم في مدرسة المبشرين الأميركان التي أسسها الدكتور فان ديك سنة ١٨٤٦ في عبيه، كما إنه كان عضواً في اللجنة المولجة بالأشراف على المدارس الإنكليزية في لبنان وسوريا وعمل سكرتيراً لها منذ سنة ١٨٥٦[٥]، وقام بإعداد المنهاج الدراسي للمدرسة الداودية في

---

(١) أعمال الجمعية السورية، ص ز ـ ح وكانت قوانين المكتبة مؤلفة من سبع مواد. وهي أول مكتبة في العالم العربي وضع لها قوانين محددة.

(٢) كانت تقع في حي زقاق البلاط. فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، ج١ ص ٨٨. يذكر فيليب حتي خطأ أن البستاني أسس «مدرسة في عبيه سماها المدرسة الوطنية التي نقلها سنة ١٨٦٣ إلى بيروت وأدمجت بالكلية السورية». لبنان في التاريخ. ص ٥٦١.

(٣) عرف منهم: الشيخ يوسف الأسير، والشيخ أحمد عباس الأزهري، وسعيد شقير، والشيخ خطار الدحداح، وسعد الله البستاني، وعبد الله البستاني، وشاهين سركيس، وخليل ربيز، وعبد الله شبلي، وفضل الله غرزوزي، والشيخ ناصيف اليازجي، والشيخ إبراهيم اليازجي، وقبلان الدحداح، واسبر شقير، ويوسف الباحوط، وشاكر الخوري، بالإضافة إلى المعلم بطرس البستاني وابنه سليم وابنته سارة. انظر: طرازي، ج١ ص ١٣٦، وشاكر الخوري، مجمع المسرات، بيروت، مطبعة الاجتهاد، ١٩٠٨ ص ١١٥.

(٤) ألف كتاب: كشف الحجاب في علم الحساب (بيروت، ١٨٤٨): روضة التجار في مبادىء مسك الدفاتر (بيروت ١٨٥١): مصباح الطالب في بحث المطالب.

(٥) *Report on the Lebanon Schools, 1856 p. 4.*

عبيه بناء على تكليف من متصرف جبل لبنان داود باشا[1]. الأمر الذي اكسبه لقب «معلم» عن جدارة واستحقاق، هذا اللقب الذي عرف به طيلة حياته.
عند تأسيسه المدرسة الوطنية، وضع البستاني نصب عينيه المقاصد التالية[2]:

أولاً: أراد أن يجعل منها مدرسة وطنية، بكل ما في كلمة وطنية من معنى، بحيث تكون أبوابها مفتوحة على مصراعيها لجميع أبناء الوطن من دون تعرض لمذاهبهم الخصوصية.

ثانياً: صَرَف جل اهتمامه في تنشيط تعليم اللغة العربية، لغة الوطن، التي يتوقف على اتقانها نجاح الطلبة في كافة حقول المعرفة، كما انه كان مقرر في ذهنه أن أساس تقدم كل قوم إنما هو الإلمام التام باللغة التي يرتضعونها مع اللبن.

ثالثاً: توخى من مدرسته أن تحافظ كل المحافظة على المشرب الوطني بحيث لا يكون المتعلمون بها كغرباء في وطنهم وذلك كيلا تفوت على أبناء الوطن الفوائد المرجوة من تعليمهم.

رابعاً: تبنى تعليم جميع حقول المعرفة التي رأى بثاقب نظره أن البلاد في حالتها وقتئذ كانت في مسيس الحاجة إليها، أي إنه اهتم أن يجد خريجو مدرسته مراكز مرموقة لهم في المجتمع.

خامساً: اجتهد في تنمية الشعور بمحبة الوطن في قلوب تلامذتها وغرس مبادىء الإلفة والاتحاد في أفئدتهم ليكونوا ذوي غيرة على وطنهم وأمناء له ولحكومته عندما يشغلون المراكز المهمة في البلاد، تجارية كانت أم سياسية أم غير ذلك.

سادساً: حرص جاهداً على تطبيق هذه المقاصد لأنها ضرورية لنجاح البلاد وأولى اهتماماً خاصاً بتنشيط العنصر الوطني الذي هو من اهم مقاصد المدرسة الوطنية وأعظمها.

قدم البستاني، عند دخول المدرسة الوطنية في سنتها الحادية عشرة، بياناً مفصلاً عن حالتها أورد فيه أهم الأمور المتعلقة بمدرسته وذلك استجابة لرغبة أهالي البلاد.

---

(١) طرازي، تاريخ الصحافة العربية. ج١ ص ٨٩. «دائرة المعارف» دائرة المعارف، ج٧ ص ٥٩٢. «المرحوم المعلم بطرس البستاني». المقتطف ج٨ (١٨٨٣) ص ٦.

(٢) «المدرسة الوطنية». الجنان ج٤ (١٨٧٣) ص ٦٢٦ ـ ٦٢٧؛ وج١ (١٨٧٠) ص ٧٠ ـ ٧١.

ولأهمية هذا البيان الذي نشر في مجلة الجنان والذي يوضح العديد من النقاط الغامضة حول «المدرسة الوطنية» ونظراً لأهمال المصادر التي تذكر المدرسة الوطنية لهذا البيان، سأورده هنا بحذافيره[1]:

«أولاً ـ إن مركز المدرسة الوطنية وأبنيتها هو من أحسن مراكز بيروت وأبنيتها. وموقعها في أحسن المواقع من جهة جودة المناخ وحسن الهواء وطلاقة المنظر. ومحلاتها فسيحة يتخللها فسح متسعة من الأراضي المغروس أكثرها بالأشجار المظللة لأجل حركة تلامذتها وتفسيحهم.

ثانياً ـ إن لغات المدرسة الوطنية هي العربية والتركية والفرنساوية والإنكليزية واليونانية واللاتينية، وكل لغة غيرها جارية يوجد لها من الطلبة ستة فما فوق، مع صناعة الخط في جميع هذه اللغات. وعلومها هي الصرف والنحو والعروض والمعاني والبيان والبديع والمنطق والجغرافية والتاريخ والحساب والجبر والهندسة والمساحة والطبيعيات والكيميا والفسيولوجية والجيولوجية والنبات والفقه وفن الترجمة وصناعة الانشاء والتأليف والخطب وحساب الزنجير، ويضاف إليها علم آلات الموسيقى وصناعة التصوير والحفر لدى الطلب. وفيها معلمون من أبناء وطن وأجانب لهم الاقتدار التام على إيصال تلامذتها إلى أعلى طبقات هذه العلوم وتلك اللغات وهي تلاحظ في جميع ذلك نفع التلامذة واستعدادهم وطلب الأهالي واحتياجات البلاد. آخذة في توسيع دائرتها وترقية درجاتها سنة فسنة بحسب أحوال البلاد ومقتضيات العصر بحيث لا تكون المدرسة سابقة العصر على بعد قاص لئلا تفوت الوطن الفائدة المقصودة منها.

ثالثاً ـ إن المدرسة الوطنية تقبل تلامذة من جميع الطوائف والملل والأجناس من دون أن تتعرض لمذاهبهم الخصوصية أو تجبرهم باتباع مذهب غير مذهب والديهم، مع اعطاء الرخصة التامة لهم في إجراء فروض ديانتهم وتعلم عقائد ديانتهم بواسطة معلمين من مذهبهم داخل المدرسة والتوجه إلى معابدهم الخصوصية في الأوقات

---

(١) «المدرسة الوطنية» الجنان ج٤ (١٨٧٣) ص ٦٢٧ ـ ٦٢٨. من أجل مطالعة نصوص الأصول «بأمعان وتدقيق» راجع أسد رستم. مصطلح التاريخ. ص ٧١ ـ ٧٥؛ ص ١٠٧ ـ ١٢٣؛ ص ١٢٤ ـ ١٢٩؛ ص ١٦٠ ـ ١٧٥.

المفروضة مصحوبين بمن يعتمد عليه من معلمي المدرسة ذهاباً وإياباً، كما انها تستخدم معلمين من مذاهب وأجناس مختلفة ناظرة إلى كفاءتهم وحسن تقواهم واقتدارهم على التعليم من دون إلتفات إلى معتقداتهم الخصوصية.

رابعاً ـ إن أوقات الدرس كل يوم، ما عدا الأحد ويوم الأربعاء بعد الظهر، هي ثلاث ساعات ونصف في المدرسة العمومية مع الناظر للاستعداد، وسبع ساعات في المدارس الخصوصية مع المعلمين لأخذ المثالات: منها ساعة لتعليم الخط وباقي الساعات تصرف في النوم والتنزه والأكل وغير ذلك من الواجبات.

خامساً ـ إن التلامذة يأكلون ثلاث مرات كل يوم، أي صباحاً والظهر ومساء، بحيث يكون لهم الظهر صنفان من الطعام والمساء ثلاثة أصناف على الأقل ما عدا النقل والفواكه التي تقدم لهم في أوقاتها. وخبز المدرسة وطعامها هما من الأصناف الجارية في أحسن البيوت مما اعتادته التلامذة في بيوت أهلهم. والمعلمون يأكلون مع التلاميذ ومن نفس طعامهم.

سادساً ـ إن المدرسة هي في جميع الساعات ليلاً ونهاراً تحت مناظرة رئيسها وذلك بنفسه وبواسطة نائبه والمعلمين. ولها طبيب من أشهر الأطباء ويكون دائماً في الليل حراس يوثق بهم ملاحظة التلامذة وتغطيتهم. وإذا كان الرئيس وعائلته مقيمين في نفس المدرسة تعتبر التلامذة كأعضاء العائلة ويحصل لهم نفس الالتفات والاهتمام اللذين لعائلة الرئيس نفسها.

سابعاً ـ إن المدرسة تقبل التلامذة من كل سن قابل للعلم وذلك: أولاً لأنه يوجد في المدرسة نساء مختبرات لأجل الاهتمام بالصغار منهم، ثانياً لأنه يكون فصل بين التلامذة الذين هم دون سن البلوغ وبين البالغين منهم، وذلك في محلات النوم ومحلات الأكل ومحلات اللعب.

ثامناً ـ إنه يقبل في المدرسة كل طالب مع قطع النظر عن درجة معرفته. وذلك لأنه يوجد في المدرسة معلمون للمبتدئين كما يوجد فيها معلمون للمتقدمين من الطلبة. ويكون دائماً عدد المعلمين بحسب عدد الطلبة، بحيث لا يكون معدل عدد التلاميذ عند كل معلم في وقت من أوقات التدريس فوق المقتضى.

تاسعاً ـ إن سنة المدرسة هي عشرة أشهر، ابتداؤها اليوم الأول من شهر تشرين

الأول وآخرها اليوم الحادي والثلاثون من شهر تموز كل سنة. وأما آب وأيلول فهما شهرا الفرصة يصرفهما التلامذة عند أهلهم، إلاّ الذين يرغب أهلهم أن يبقوهم في المدرسة مدة الفرصة ويدفعوا عنهم اجرة عن الشهرين المذكورين علاوة على اجرة السنة وبمعدلها فهؤلاء يصير الاعتناء بهم في مدة الفرصة ويعين لهم بعض ساعات للتعليم كل يوم.

عاشراً - إن تأخر الأهل عن دفع مرتبات المدرسة في أوقاتها المعينة يوجب أثقالاً على المدرسة ومصاريف زائدة من دون حصول فائدة للأهل من ذلك. ولذلك يؤمل منهم أنهم من الآن وصاعداً لا ينسون المتوجب عليهم من هذا القبيل ويوصلون المطاليب رأساً إلى المدرسة وبذلك يوفرون على المدرسة وعلى أنفسهم ثقلة المطالبة وكراهتها.

حادي عشر - إن تأخر التلامذة عن الرجوع في الوقت المعين يوجب ضرراً لهم وخسارة الوقت على أهلهم وأثقالاً على المدرسة يعلمها كل من له خبرة في الأمور المدرسية. ومع أن سنة كل تلميذ جديد تبتدىء يوم دخوله يكون أحسن للتلاميذ الجدد أن يدخلوا في أول السنة عند رجوع التلاميذ القدماء.

ثاني عشر - إن المدرسة تقدم للتلامذة التعليم والأكل والشرب وتخت النوم. وأما باقي اللوازم من كتب وورق واجرة طبيب وغسيل ثياب ونحو ذلك من اللوازم فهي على الأهل ويسمح للأهل أنفسهم بتقديم هذه اللوازم وبغسل ثياب أولادهم في بيوتهم إذا شاؤوا.

ثالث عشر - إن اجرة المدرسة عن سنتها المدرسية من أصحاب الميسرة هي عشرون ليرة مجيدية. غير أنه مراعاة لحالة البعض ممن يصعب عليهم دفع القيمة المذكورة، قد ينزل شيء من ذلك بحيث لا تكون الاجرة أقل من خمس عشرة ليرة.

رابع عشر - إن الاجرة السنوية تؤخذ سلفاً على قسطين: القسط الأول عند الدخول والقسط الثاني بعد الدخول بخمسة أشهر. وإذا خرج التلميذ هرباً، أو لأية علة كانت، قبل نهاية المدة المدفوع عنها سلفاً لا يحق لأهله استرجاع شيء مما دفع عنه. كما انه إذا بقي في المدرسة ولو يوماً واحداً بعد نهاية المدة المدفوع عنها يحسب ذلك تجديداً لمدة أخرى. والمصاريف النثرية تدفع في آخر النصف الأول من سنة المدرسة

مع القسط الثاني وفي نهاية سنة المدرسة قبل خروج التلاميذ للفرصة وتسليم حوائجهم».

لقد حافظ البستاني، بكل أمانة، على تنفيذ جميع المبادىء القويمة التي قامت عليها المدرسة الوطنية والتي أسست من أجلها، وأهمها حرية الاعتقاد والتسامح الديني. ترك لنا الدكتور شاكر الخوري، أحد طلبة المدرسة الوطنية ومعلميها، شهادة في كتاب مجمع المسرات تدل دلالة واضحة على مدى تطبيق البستاني للمبادىء التي وضعها لمدرسته، وبصورة خاصة المبدأ القائل بوجوب الابتعاد عن التعصب الديني والدعوة إلى الإلفة بين مختلف الطوائف، حيث يقول[١]: «كانت تلامذة هذه المدرسة من ملل مختلفة، فكان يرسل الرئيس (بطرس البستاني) كل واحد إلى كنيسته مع معلم مخصوص نهار الأحد والأعياد. وطول حياته لم يتكلم عن المذاهب... وكان يوجد اختلاف بين المطران بطرس البستاني، مطران صور وصيدا[٢] وبين المطران طوبيا، مطران بيروت[٣]، بشأن هذه المدرسة. فالمطران بطرس كان يجيز لأولاد أبرشيته الدخول فيها[٤] وبعكس ذلك المطران طوبيا. ففي ذات يوم ذهبنا كالعادة إلى الكنيسة المارونية في بيروت صحبة أحد المعلمين. فبعد دخولنا حضر أحد الكهنة وأخرجنا منها عن أمر سيادته ولهذا صرنا نذهب إلى كنيسة الروم الكاثوليك».

وأما تعليم الديانة الإسلامية فقد أنيط بالشيخ أحد عباس الأزهري، أحد خريجي الجامع الأزهر، الذي عاد إلى بيروت سنة ١٢٩١ هـ ١٨٧٤: «وكان العلامة العامل الكبير المعلم بطرس البستاني قد أنشأ مدرسة وطنية وأزدحم فيها الطلبة من كل ملة. فدعي الأزهري الجديد إلى التدريس فيها واختصاص التلامذة المسلمين بدرس ديني.

---

(١) شاكر الخوري، مجمع المسرات، بيروت، مطبعة الاجتهاد، ١٩٠٨ ص ١١٦.

(٢) زميل المعلم بطرس البستاني بالدراسة في مدرسة عين ورقة، انظر أعلاه ص ١١.

(٣) المطران طوبيا عون.

(٤) لعل هذا الاتفاق بين رفيقي الدراسة أثار ضغينة المرسل الأميركي وليم أدي فاتهم المعلم بطرس البستاني بخيانة المصالح البروتستانتية لكسب ود المطران بطرس البستاني.

I felt great distrust of Maalim Butrus. He deliberately betrayed the interests of protestantism in his village Dibbee, allowed a promising work there to be crushed out to keep the favor of Bishop Butrus for his school. W. Eddy to Daniel Bliss, Sidon, March 10, 1866. Jafet Library.

أرشيف مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت.

فلبى الدعوة وقام بالعمل إلى أخر سنة ١٢٩٤ هـ/ ١٨٧٧ م حيث صرفت المدرسة تلامذتها وأقفلت بسبب انتشار الهواء الأصفر»[١].

لم يكتف البستاني بمراعاة هذه المبادىء بدقة فائقة بل انه لم يسمح بوقوع أي انحراف مخل بها يؤثر على مدى فاعلية مدرسته أو «يتعرض لاستقلايتها أو لنسبتها لأبناء الوطن»[٢]، بالرغم من محاولات مجلس مدراء الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية في بيروت حالياً) السيطرة على مدرسته والضغط عليه لإجراء بعض التعديلات على قوانيها لتوافق أنظمة الكلية وقوانينها[٣]. وللدلالة على ذلك لا بد من التطرق إلى علاقة كل من مسز وطسن، مديرة المدارس الإنكليزية في سورية وقتئذ[٤]، والكلية السورية الإنجيلية بالمدرسة الوطنية. فيما يتعلق بعلاقة المدرسة الوطنية بمسز وطسن يذكر المرسل الأميركي هنري جسب أن مسز وطسن أسست مدرسة للبنين في بيت المعلم بطرس البستاني في بيروت مستخدمة الأموال المعطاة لها من قبل لجنة لندن (London Committee) والتحق ثلاثون طالباً بمدرستها هذه، ومن ثم تولى المعلم بطرس البستاني أمر هذه المدرسة وأصبحت تدعى «المدرسة الوطنية» والتحق بها مائتا طالب واحتضنتها الكلية السورية الإنجيلية لفترة من الزمن كي تقوم بتحضير الطلاب للدراسات العليا[٥]. ويذكر جسب في مكان آخر من كتابه أن البستاني أسس المدرسة الوطنية على قطعة أرض يملكها وكان يتسلم مساعدات مالية من أصدقاء انكليز وأميركان[٦]. بينما يؤكد البستاني أن مسز وطسن كانت تقدم مساعدات مالية لمدرسته للقيام بتعليم ١٢ طالباً مجاناً، وذكر أنها دفعت له «مئتي ليرة استرلينية سنوياً لكل من السنتين الأولى والثانية (١٨٦٣ و ١٨٦٤) كما استلم سبعين ليرة استرلينية للسنة

---

(١) عبد الباسط فتح الله، «الشيخ أحمد عباس الأزهري البيروتي»، المنار ج ٢٨ (١٩٢٧) ص ٣٩٠.

(٢) «المدرسة الوطنية» الجنان ج٤ (١٨٧٣) ص ٦٢٦.

(٣) قرار مجلس مدراء الكلية السورية الإنجيلية المتخذ بتاريخ ٢/١١/١٨٦٥ والموجود في أرشيف مكتبة الجامعة الأميركية.

(٤) النشرة الأسبوعية، ج٢١ (١٨٩١) ص ٢٩٧.

(٥) H. Jessup: *Fifty Three Years in Syria.* Vol. 1. p. 270.

(٦) المصدر ذاته، ص ٤٨٤.

الماضية (١٨٦٥) بواسطة مجلس مدراء الكلية السورية الإنجيلية ولكنه لم يستلم شيئاً للسنة الحالية (١٨٦٦)»[١].

أما علاقة الكلية السورية الإنجيلية بالمدرسة الوطنية التي دامت لمدة ثلاث سنوات فقط (١٨٦٦ ـ ١٨٦٨) والتي حتمتها مصلحة الكلية فلقد كانت على النحو التالي: رأى المرسلون الأميركان أثناء اجتماعهم المنعقد في بيروت بتاريخ ٢٣ كانون الثاني سنة ١٨٦٢ أن حاجة الديار الشامية إلى مؤسسة علمية تدرس فيها العلوم العالية أمر لا مناص منه، ولذلك بذلوا قصارى جهدهم لكي يتم هذا الأمر الجليل على أيديهم لا على أيدي الرهبنة اليسوعية التي كانت تنافسهم في هذا المجال[٢]. وعينوا الدكتور دانيال بلس رئيساً للكلية المقترح تأسيسها على أن يكون لها مجلس أمناء مقره في نيويورك، ومجلس مدراء مقره في بيروت. ولقد اتخذ مجلس مدراء الكلية السورية الإنجيلية في اجتماعه المنعقد في بيروت بتاريخ ٢ تشرين الثاني سنة ١٨٦٥ القرارات التالية المتعلقة بالمدرسة الوطنية[٣]:

أولاً: إن مصلحة الكلية السورية الإنجيلية تتطلب أن يلحق بها دائرة استعدادية منظمة تنظيماً جيداً.

ثانياً: أن تجعل المدرسة التي تدعى «المدرسة الوطنية» والتي يديرها حالياً المعلم بطرس البستاني لمدة (ـ)[٤] سنوات كدائرة استعدادية، ولكن مع اجراء بعض التعديلات الضرورية على قوانيها لتوافق أنظمة الكلية وقوانينها.

ثالثاً: أن يكون المعلم بطرس البستاني رئيساً للدائرة الاستعدادية مع تحديد راتب مقطوع له.

رابعاً: أن يحدد مجلس المدراء منهاج الدراسة في الدائرة الاستعدادية.

---

(١) جواب المعلم بطرس البستاني على السؤال الثامن الموجه إليه من قبل مجلس مدراء الكلية السورية الإنجيلية الموجود في أرشيف مكتبة الجامعة الأميركية.

(٢) D. Bliss. *Reminiscences of Daniel Bliss.* pp. 167 - 168.

(٣) تقرير مجلس مدراء الكلية السورية الإنجيلية الموجود في أرشيف مكتبة الجامعة الأميركية.

(٤) تركت فراغاً بالأصل ثم حددت بثلاث سنوات في الاقتراح الأول للجنة المنبثقة عن مجلس المدراء.

خامساً: أن يعين مجلس المدراء الأساتذة الذين سيتولون تدريس المنهاج الدراسي المحدد ودفع رواتبهم.

سادساً: من المستحسن استئجار غرف معينة من مباني المدرسة الوطنية التي يملكها المعلم بطرس البستاني وذلك بقدر ما تحتاجه الدائرة الاستعدادية.

سابعاً: من المستحسن أيضاً استئجار القسم العلوي من المبنى الرئيسي من المعلم بطرس البستاني وذلك من أجل استعماله لأغراض الكلية.

ثامناً: إن مجلس المدراء سيقوم بتشجيع استعمال مطعم الدائرة الاستعدادية ومهجع النوم العائد لها وذلك بواسطة اشراك كل طالب تقدم له مساعدة مالية ويرغب المجلس تعليمه[1].

واتخذت اللجنة المنبثقة عن مجلس مدراء الكلية السورية الإنجيلية في اجتماعها المنعقد في بيروت بتاريخ ٦ كانون الأول سنة ١٨٦٥ التوصيات التالية[2].

أولاً: إن الاتفاق المعقود مع المعلم بطرس البستاني يضع تحت تصرف مجلس المدراء جميع المباني التي يحتاجها حالياً من أجل استعمالها لأغراض الكلية والدائرة الاستعدادية بما في ذلك قاعات التدريس والنوم والمطعم وملاعب الرياضة. إن الذين يعلمون مدى الصعوبات التي يواجهها المرء حالياً للحصول على استئجار مكان سكن عادي في بيروت، ومدى ارتفاع تكاليف السكن، لا يقللون من اهمية اعتبار عملنا هذا.

ثانياً: يستوعب كل من المطعم ومهجع النوم ١٦٠ طالباً، إن المعلم بطرس البستاني على أتم الاستعداد لتحمل جميع التبعات المترتبة.

ثالثاً: إن رئيس المدرسة الوطنية يهتم بالغ الاهتمام بترغيب أهالي الطلاب وأوصيائهم للقيام بدفع رسوم تعليمهم. إن الأجانب لا ينجحون بسهولة في تنفيذ هذا الاجراء الضروري. إن باستطاعة المواطنين من سكان البلاد التعامل بصورة أفضل مع مواطنيهم.

---

(١) بُلّغ البستاني هذا القرار فقط. جواب البستاني على اسئلة مجلس مدراء الكلية السورية الإنجيلية الموجودة في أرشيف مكتبة الجامعة الأميركية.

(٢) أرشيف مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت.

رابعاً: بلغ عدد الطلاب في المدرسة الوطنية ١٥٠ طالباً في السنة الماضية (١٨٦٤)، ٩٠ منهم يدرسون اللغة الفرنسية و٦٠ يدرسون اللغة الإنكليزية.

خامساً: «إن الكلية ستباشر أعمالها بالاستفادة من خدمات دائرة استعدادية منظمة لها خبرة خدمة سنتين بدون أية تكاليف ملقاة على كاهل المجلس».

وقد اقترحت اللجنة تبني القرارات التالية(١):

أولاً: إن تحدد مدة التعاقد مع المدرسة الوطنية بثلاث سنوات وكانت قد تركت المدة فراغاً في القرار الثاني لمجلس المدراء.

ثانياً: أن يحدد راتب المعلم بطرس البستاني كرئيس للدائرة الاستعدادية بمائتين وعشرين ليرة مجيدية ذهب في السنة.

ثالثاً: أن يدفع مجلس المدراء راتب مدرسين قديرين للقيام بتدريس اللغة الفرنسية والتركية واللاتينية على ألا يزيد راتب كل منهما على ٩٠ ليرة مجيدية ذهب سنويًا(٢)، وأيضاً دفع راتب مدرسين للأدب العربي على ألا يزيد راتب كل منهما على ٧٠ ليرة مجيدية ذهب سنوياً. سيعين مجلس المدراء هؤلاء الأساتذة.

رابعاً: إن رئيس المدرسة الوطنية سيكون مسؤولاً عن تدريس اللغة الإنكليزية بالإضافة إلى مهامه بالإشراف الكلي على الدائرة الاستعدادية.

خامساً: إن منهاج الدروس في الدائرة الاستعدادية يشمل اللغات العربية والإنكليزية والتركية واللاتينية، وتعليم الحقول العلمية الأخرى، والثقافة العامة، كما سيحدد بواسطة مجلس المدراء.

سادساً: إن الاجار السنوي لمباني الدائرة الاستعدادية (شاملاً المدرسة وقاعات الدرس والمطعم ومهجع النوم وملاعب الرياضة) هو ١٣٠ ليرة مجيدية ذهب.

---

(١) اقتراحات اللجنة المنبثقة عن مجلس مدراء الكلية السورية الإنجيلية المتخذ بتاريخ ٦ كانون الأول سنة ١٨٦٥ والموجودة في أرشيف مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت.

(٢) من أجل قيمة النقود التركية في القرن التاسع عشر راجع:

Edgar S. Furniss. «The Currency of the Ottoman Empire». *alKulliyeh*. vol. III (1912) pp. 216 - 221.

سابعاً: إن اجار المباني المخصصة للكلية السورية الإنجيلية هو ٩٠ ليرة مجيدية ذهب.

ثامناً: من المستحسن، لأسباب تظهر مرضية للجنتكم، أن تستأجر البناية الشمالية من أجل استعمال الكلية عوضاً عن المبنى المذكور في قرار المجلس رقم ٧.

تاسعاً: نظراً لتكبد المعلم بطرس البستاني مصاريف باهظة لترميم المباني التي ستخصص لاستعمال الكلية حسب الاتفاق مع لجنتكم، بالإضافة إلى ازدهار هذا المشروع المشترك، يجب دفع مجموع قيمة الاجار مقدماً لمدة الثلاث السنوات المحددة بالاتفاق مع المعلم بطرس البستاني. لاحظت اللجنة أن قيمة التكاليف التي يحتاجها الطالب هي ١٦ ليرة استرلينية لكل سنة، وأن اللجنة ستدفع لرئيس المدرسة الوطنية تلك التكاليف عن كل طالب معان».

لم تنجح تجربة الكلية السورية الإنجيلية مع المدرسة الوطنية مما أدى إلى إلغاء جميع الترتيبات المتفق عليها مع مجلس مدراء الكلية بعد مضي السنوات الثلاث المحددة. وذلك، على حد تعبير الدكتور دانيال بلس، نظراً إلى أن الدائرة الاستعدادية لم تف بتطلعات مجلس المدراء[١]. ولعل هذا النفور بين الكلية والمدرسة الوطنية يعود إلى طبيعة شخصية كل من رئيس المؤسستين. فالمعلم بطرس البستاني، رئيس المدرسة الوطنية كان يصر على استقلال مدرسته والتعاون مع الكلية دون افساح المجال لادارتها بالسيطرة على مدرسته[٢]. بينما كان الدكتور دانيال بلس رئيس الكلية، يطمح بتأسيس دائرة استعدادية تكون جزءاً لا يتجزأ من الكلية ضارباً عرض الحائط بجميع الأضرار التي قد تسببها هذه الدائرة الجديدة بالمدارس الأخرى الموجودة في بيروت[٣]، بالإضافة إلى عدم استعداد إدارة الكلية الموافقة على دفع مبالغ مالية

(١) ورد في تقرير الدكتور بلس إلى مجلس المدراء سنة ١٨٦٨ ما يلي:
«It was found in the early part of the collegiate year that the Preparatory Department was not meeting the expectations of the Board of Managers». *Annual Reports*, Board of Managers, Syrian Protestant College. Beirut, A. U. B., 1963, p. 3.

(٢) يضاف إلى ذلك، «الريبة الدينية من الكلية السورية الإنجيلية». جاء ذلك في الجواب الحادي عشر للمعلم بطرس البستاني على أسئلة مجلس المدراء حول احجام طلاب المدرسة الوطنية من التقدم لاجتياز امتحان الدخول إلى الكلية. أرشيف مكتبة الجامعة.

(٣) ذكر الدكتور بلس في رسالة إلى زوجته ما يلي: At the meeting of the Board (of =Managers) Mr. Black said that the establishment of a preparatory school will injure

لمساعدة أية مؤسسة ليس لها سيطرة مطلقة عليها[1]. كما أن الدكتور بلس كان يعتقد بأن المدرسة العائدة للبطريركية الأرثوذكسية في بيروت (مدرسة الثلاثة قمار) كانت تزود الكلية بطلاب أكثر أهلية من مدرسة البستاني[2].

لم يشارك جميع أفراد «الإرسالية السورية» الدكتور بلس في موقفه المناوىء للمدرسة الوطنية بل إن مجلة الميشنري هيرلد، لسان حال الإرسالية في بوسطن، أشادت بجهود البستاني لتأسيسه مدرسة ثانوية داخلية للبنين في بيروت، ووصفتها بأنها مستقلة وقادرة على كفاية ذاتها بذاتها كلياً، التحق بها ١٥٠ طالباً من الطوائف الست التي تتألف منها تلك البيئة المختلطة[3]. وذكرت النشرة الاسبوعية، لسان حال الإرسالية في بيروت، أن البستاني أسس مدرسة وطنية ذاع ذكرها في الآفاق وكانت «باكورة المدارس الكلية والعامة في هذه المدينة (بيروت). فكانت بالحقيقة وطنية لوجود الإلفة فيها وخلوها من الغلو والتعصب المذهبي وقد ارتقى كثيرون من طلبتها إلى وظائف معتبرة ومراتب سامية»[4].

موقف السلطة التركية الحاكمة من المدرسة الوطنية.

اتسمت علاقة ولاة سوريا ومتصرفي بيروت وجبل لبنان بالمدرسة الوطنية بطابع التأييد والتشجيع لما كانت تقوم به من خدمات لم تكن تتعارض مع سياسة ولاة الأمور حينئذ. فلقد ذكر المعلم بطرس البستاني في خطاب ألقاه لمناسبة زيارة متصرف بيروت عبد الهادي باشا للمدرسة الوطنية جاء فيه بأنه «يحق لهذه المدرسة أن تفتخر بكونها قد حازت رضى الدولة العلية ونظرها وتنشيطاتها ونالت الشرف بزيارة جميع ولاتها العظام ومتصرفيها الكرام الذين شرفوا قطرنا منذ تأسيسها إلى الآن (١٨٦٣ ـ ١٨٧٠)»[5]،

= other schools. I simply remarked, «Gentlemen we'll remember that this Board meets to legislate for the good of the college and not for other schools». D. Bliss to Abby Bliss, Beirut, Sep. 3, 1873. p. 52.

(١) «We shall not consent to pay for anything we have not absolute control». D. Bliss, Jan. 6, 1874 p. 167.

(٢) Ibid., Nov. 1. 1873 p. 101.

(٣) «الإرسالية السورية». الميشنري هيرلد، ج٦١ (١٨٦٥) ص ٥. الطوائف التالية: الموارنة والكاثوليك والأرثوذكس والسنة والشيعة والدروز.

(٤) «المرحوم بطرس البستاني». النشرة الأسبوعية، ج١٣ (١٨٨٣) ص ١٤٩. من طلابها: سليمان البستاني، مترجم الالياذة، وسليم تقلا مؤسس جريدة الأهرام.

(٥) «المدرسة الوطنية». الجنان، ج١ (١٨٧٠) ص ٧١.

لأنها كانت تشخص حالة المملكة وتمكّن في الأذهان حب الوطن «والأصول التي اتخذتها الدولة في ممالكها المحروسة، من حيث التسوية وحرية المذهب، ترى أن ذلك الالتفات لم يكن في غير محله وتسترحم مداومته في المستقبل بطريق أقوى»[1].

ومن الشواهد على رضى أصحاب الشأن الأتراك على المبادىء التي قامت عليها المدرسة الوطنية الزيارات التي كانوا يقومون بها لهذه المدرسة والرسائل التي كانوا يبعثون بها إلى رئيسها، نورد هنا رسالتين منها متبادلتين بين محمد رؤوف باشا متصرف بيروت والمعلم بطرس البستاني:

أولاً: رسالة محمد رؤوف باشا إلى المعلم بطرس البستاني[2].

عزتلو أفندي

إن الذي شاهدناه في زيارتنا هذا الصباح للمدرسة الوطنية المختصة بجنابكم من النجاح والتقدم الحاصل للتلامذة إن كان في اللغة والفنون والعلوم الرياضية والأدبية في اللسان العربي العميق الفسيح أو في اللسان الفرنساوي يستحق بالحقيقة التحسين والمدح التام، وأما ما اطلعت عليه من تعليم اللغة التركية وفنونها وعلومها لغة الحكومة السنية والبراعة والاقدام المشاهدين من التلاميذ قد أوجب محظوظيتنا الوافرة لا سيما الغيرة والملاحظة الواقعين من جنابكم والاجتهاد الحاصل من المعلمين بهذا الأمر يستوجب الشكر فنتعشم بأن المساعي والاقدام الواقعين من جنابكم بأمر تقدم التلاميذ ونجاحهم في العلوم والفنون والتهذيب يكون يوماً فيوماً على قدم الإزدياد حيث منه ينتج النجاح والترقية للوطن فاشعاراً لأبراز مآثر حاسيات الممنونية من كمال غيرتكم واقدامكم بادرنا بتسطير شقة الخلوص في ٢٦ رمضان سنة ٨٧ وفي ٧ كانون الأول سنة ٨٦ (مكان الختم) شريف محمد رؤوف متصرف لواء بيروت ومدير أمور أجنبية ولاية سورية».

---

(١) المصدر ذاته. ذكر كاتب سيرته بأن المعلم بطرس البستاني احرز من الدولة العلية «نيشاناً مكافأة له على إنشاء المدرسة الوطنية تجمع بين رغائب الأهلين والولاة الذين كان كل منهم يزورها مرات عديدة شاكراً محرضاً على اقتفاء المنهاج الوطني القويم الموفق بين مصلحة الوطن والدولة». المرحوم المعلم بطرس البستاني. المقتطف ج٨ (١٨٨٣) ص ٣، و«دائرة المعارف» دائرة المعارف، ج٧ (١٨٨٣) ص ٥٩١.

(٢) «ولاية سورية». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ١٧.

جواب المعلم بطرس البستاني على رسالة محمد رؤوف باشا[1].

«فقدمنا لسعادته العريضة الآتية

سعادتلو أفندم حضرتلري

لقد تشرف هذا الرقيق بورود مرسوم سعادتكم الكريم المؤرخ في ٢٦ رمضان سنة ٨٧ المتضمن ما انطوت عليه عواطف معاليكم من الهمة والرغبة في ترقية أسباب المعارف والعَلوم التي حملت سعادتكم على ابراز مآثر المحظوظية عندما أشرقت أنوار طلعتكم البهية متلالية في ربوع المدرسة الوطنية، وهو غني عن البيان أن التقدم والنجاح اللذين نراهما الآن في المعارف وأسباب التمدن في الممالك الشاهانية المحروسة ليسا إلاّ نتيجة الحماية والالتفات اللذين نالهما في كل مكان وزمان مديرو المدارس من طرف حضرة مأموري ولي نعمتنا الدولة العلية وإذ كانت المدرسة الوطنية مؤسسة على مبادىء وطنية صحيحة وليس لها مقاصد إلا ترقية أسباب المعارف والتمدن والإلفة وتعليم جميع صفوف تبعة ولي نعمتنا الدولة العلية منذ نعومة أظافرهم مبادىء العبودية الخالصة والصداقة نحو حكومتهم السنية والاخلاص في خدمتها وخدمة الوطن قد حازت الشرف في كل آن بالحصول على الرعاية والعناية من طرف جميع أولياء الأمور بفيض مراحم حضرة الذات الشاهانية أيدها الله تعالى والآن ابراز المآثر ممنونية عموم المدرسة واملأ بشمولها دائماً بالنظر الشريف قد صارت المبادرة بتقديم عريضة العبودية مع تأدية فريضة الدعاء بحفظ وجود سعادتكم ذخراً وفخراً والأمر لوليه أفندم.

عن المدرسة الوطنية في ٣٠ رمضان سنة ٨٧ في ١١ ك ١ سنة ٨٦ بنده رئيس المدرسة الوطنية».

لا شك بأن المعلم بطرس البستاني كان رائداً فذاً بتأسيس مدرسة وطنية، هي أفضل مؤسساته، «واخلص مآتيه في سبيل اتحاد أبناء بلاده»[2]، والتي تقاطر إليها الطلبة «من كل فج ونجحت نجاحاً غريباً وأخرجت تلامذة من أحسن أدباء عصرنا،

(١) المصدر ذاته، ص ١٨.

(٢) فؤاد أفرام البستاني، بطرس البستاني، ص ٥٧؛ أبعاد القومية اللبنانية. الكسليك، ١٩٧٠ ص ٧٤.

ولما كثرت المدارس الطائفية قلّ عدد تلامذتها فالغيت»[1] سنة ١٨٧٧ بعد مضي ١٥ سنة على تأسيسها. كانت «المدرسة الوطنية» مثالاً يحتذى ونموذجاً يتطلع إليه مؤسسو المدارس من جميع الطوائف. ولم يقتصر ذلك على المدارس التي تأسست في القرن التاسع عشر بل تعدى ذلك إلى الفترة التي تلت زوال العهد العثماني سنة ١٩١٨. يذكر الشيخ محمد رشيد رضا، صاحب مجلة المنار الإسلامية أنه بعد سقوط الدولة العثمانية عاد إلى بيروت سنة ١٩١٩ وأخذ يسعى بتأسيس مدرسة كلية للمسلمين لمجاراة المدارس المسيحية كالكلية الإنجيلية وكلية القديس يوسف. ولما شعر المسيحيون بهذا السعي «استكبره على المسلمين المستكبرون» وكتبوا في جرائدهم أنهم يريدون لسوريا مدارس وطنية لا مدارس دينية «فالدين هو الذي فرق كلمتنا، وأغرى العداوة والبغضاء بيننا»[2]. فرد عليهم مقترحاً على أبناء البلاد من جميع الطوائف تبني فكرة تأسيس مدرسة وطنية على غرار مدرسة المعلم بطرس البستاني التي تأسست قبل ٥٦ سنة، وذكر أنه في حال قبول المسيحيين ترك المدارس الدينية واستبدالها بمدارس وطنية «فإننا نضع أيدينا في أيديكم وأموالنا مع أموالكم وأولادنا مع أولادكم... وإننا بالتربية الوطنية يمكننا أن نجعله (نجعل الدين) من أكبر أسباب الاتفاق والتعاون. وفي نصوص القرآن والإنجيل ما يهدي إلى سلوك هذه السبيل، وهي التي سلكها فقيد الوطن

---

(١) شاهين مكاريوس، «المعارف في سورية» المقتطف ج٧ (١٨٨٣) ص ٣٩٠، وجرجي زيدان، تاريخ الآداب العربية، ج٤ ص ٢٨، ولويس شيخو، الآداب العربية ج١ ص ٧١، وأنيس النصولي. «أسباب النهضة العربية في القرن التاسع عشر» الكلية ج١١ (١٩٢٥) ص ٢٢٧. يذكر شاكر الخوري أن المدرسة الوطنية أقفلت أبوابها سنة ١٨٦٥ بسبب الكوليرا لفترة وجيزة ثم استأنفت عملها. مجمع المسرات، ص ١١٩ ـ ١٢٠. أصيبت بيروت بالكوليرا أيضاً سنة ١٨٧٥ ويذكر أحد ذوي البستاني أن المعلم بطرس البستاني أوقف مدرسته بعد أن أصبح في بيروت عدد وافر من المدارس واجابته إلى مشورة بعض المخلصين ولولا ذلك «لما أبطل مدرسته على كونه أنفق المبالغ الجسيمة على إدارتها سخياً لا يمسك عن بيع بيت سكنه لو اقتضت الحال». «المرحوم المعلم بطرس البستاني». المقتطف ج٧ (١٨٨٣) ص ٥، «دائرة المعارف» دائرة المعارف، ج٧ (١٨٨٣) ص ٥٩.

(٢) «الرحلة السورية الثانية». المنار ج٢٢ (١٩٢١) ص ٦٢٢ ـ ٦٢٣. ورحلات الإمام محمد رشيد رضا تحقيق يوسف إيبش، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ١٩٧١، ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩.

البستاني الذي اتفق المسلمون مع المسيحيين على احترامه»[١]. ومن الذين تأثروا بالمعلم بطرس البستاني ومشوا على خطاه المربي إلياس شبل الخوري الذي أسس سنة ١٩١٣ مدرسة في مدينة عاليه دعاها «الجامعة الوطنية» على غرار «المدرسة الوطنية»[٢]. لقد أعلن «أنه خلال أكثر من نصف قرن من خدمته في حقل التربية لم يسأله أحد ولا هو سأل أحداً مرة عن طائفته»[٣]. وهذا جل ما كان يبتغيه المعلم بطرس البستاني. لأنه بالرغم من الخدمات الجلى التي قدمتها المدارس الأجنبية، إلاّ إن فيها، على حد تعبير سليمان البستاني مترجم الإلياذة إلى العربية واحد تلامذة «المدرسة الوطنية» ثلمة متسعة لا يمكن سدها إلا بتغيير الأحكام. «فمن من أرباب تلك المدارس على فضله يهتم ببث روح الوطنية بين تلامذته. بل من منهم وهم متمون لامم متناظرة لا يسعى جهد طاقته في استمالة تلامذته إلى أمته ودولته. وهكذا نشأ الطلاب على اختلاف في الأفكار والمذاهب. وهكذا عمل الأجانب بطريق العلم على اقتسام عقولنا، كما عملوا بطريق السياسة على اقتسام بلادنا»[٤]. وكان المعلم بطرس البستاني يقول بأنه ينبغي «أن تكون هيئتنا الإجتماعية كالمدرسة الوطنية. فإن طلاب العلم فيها مع اختلاف المذاهب والمشارب وتنوع التربية أخوة وطنيون لا تأثير لاختلاف الأديان في أعمالهم ودروسهم ومعيشتهم وأن تلامذتها يكونون من أهم العناصر المرقية للبلاد»[٥]. ومما جرت عليه عادته في المدرسة الوطنية أنه كان يخطب في الطلاب مرتين في الأسبوع. أولاً: يوم تلاوة مذكرة العلامات التي كانت تدعى «علامات حال الطالب» المؤذنة بمقدار اجتهاده. ثانياً: خطبة يوم الأحد[٦] التي «كان يضمنها الحض على التقوى والصلاح وتقويم المسالك وحب الوطن»[٧].

---

(١) المصدر ذاته.

(٢) الجامعة الوطنية: تقريرها السنوي. (١٩١٣). المقدمة.

(٣) «المربي شبل الخوري». النهار. العدد ١٢٤٩٥ تاريخ ١/٦/١٩٧٥ ص ٨.

(٤) سليمان البستاني، عبرة وذكرى. القاهرة، ١٩٠٨ ص ٣٨.

(٥) سليم البستاني، «بطرس البستاني». الجنان ج١٤ (١٨٨٣) ص ٣٢١.

(٦) كان رئيساً لمدرسة الأحد لمدة طويلة. «بطرس البستاني». الجنان ج١٤ (١٨٨٣) ص ٢٩٠.

(٧) «المرحوم المعلم بطرس البستاني». المقتطف ج٨ (١٨٨٣) ص ٣، «دائرة المعارف» دائرة المعارف، ج٧ ص ٥٩٠.

خطاب في الهيئة الاجتماعية والمقابلة بين العوائد العربية والإفرنجية.
(بيروت، مطبعة المعارف، ١٨٦٩)

ألقى المعلم بطرس البستاني خطاباً في الجمعية العلمية السورية[1] سنة ١٨٦٩ تحدث فيه عن المجتمع والعادات العربية والافرنجية مبيناً حسنات عادات كل فريق وسيئاتها. لقد قسم خطابه إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: الهيئة الاجتماعية.

ثانياً: العادة.

ثالثاً: مقابلة عادات العرب مع عادات الافرنج.

القسم الأول: الهيئة الاجتماعية.

ابتدأ خطابه بتعريف الهيئة الاجتماعية بأنها «عبارة عن سكان بلاد أو مدينة لهم صوالح مشترك»[2]، وهي الحالة الناشئة عن الاجتماع البشري التي تشكل احتياجات الأفراد ومخاوفهم أساسه الحقيقي. إن تلك الاحتياجات والمخاوف تزداد شيئاً فشيئاً بقدر ابتعاد مجموعة ذلك الاجتماع البشري عن حالة الخشونة «إلى أن تصل إلى درجة التمدن التام الذي تصل فيه الاحتياجات والمخاوف إلى أعلى درجاتها»[3]، حيث يحصل الإنسان على السعادة التي تقوم «بنوال مرغوباته على أتم منوال بحسب درجته من التمدن»[4]، وعلى ذلك يمكن القول إنه بقدر ما تكون «تلك الاحتياجات متسعة ومهمة والمخاوف متنوعة وقوية يكون ذلك الأساس متيناً ورباطاته وأسبابه شديدة»[5].
وقسم احتياجات الإنسان إلى سبعة أقسام:

---

(١) تأسست في بيروت سنة ١٨٦٨ وكان غرضها «تنشيط المعارف وتعزيز شأن الآداب وزيادة انتشار المدارس لتنوير أذهان الشعب وارتقاء الأمة في معارج الفلاح». فيليب دي طرازي. تاريخ الصحافة العربية ج١ ص٥٧. وكان المعلم بطرس البستاني عضواً بارزاً في هذه الجمعية، المصدر ذاته ص ٩١.

(٢) بطرس البستاني، خطاب في الهيئة الاجتماعية والمقابلة بين العوائد العربية والإفرنجية. بيروت، مطبعة المعارف، ١٨٦٩. ص ٢.

(٣) المصدر ذاته ص ٣.

(٤) المصدر ذاته ص ٤.

(٥) المصدر ذاته، ص ٢.

١ ـ احتياجات طبيعية: «وهي ما يلزمه لقيام وجوده من القوت والكسوة والمأوى لوقاية ذلك الكيان وتلك اللوازم»[١].

٢ ـ احتياجات عقلية: «وهذه تقوم بما من شأنه أن يجذب عقول الناس إليه ويوجد فيها تياقة ولذة ومعرفة من شأنها أن تمكنهم من قضاء واجبات الحيوة بأكثر نجاح وذلك كالكتب والآلات الفلسفية»[٢].

٣ ـ احتياجات معشرية: «وهذه تقوم بما يخولنا قدرة على مساعدة أصحابنا في أمر الضيافة وما أشبهها، وبذلك تقوي الأسباب والعلائق التي تربطنا بالجنس البشري»[٣].

٤ ـ احتياجات أدبية: «وهي تقوم بما يخولنا رغبة وقدرة على عمل الخير نحو الآخرين. وبهذه الواسطة نربي في أنفسنا تلك الخصال التي تجعلنا أكثر أهلية لأعتبار من يشاركنا في الطبيعة»[٤].

٥ ـ احتياجات دينية: «وهي تقوم بما يساعدنا على تأدية تلك الواجبات التي يطلبها منا خالقنا والمعتني بنا وذلك نحوه ونحو أنفسنا ونحو القريب لكي نكون مرضين له عز وجل»[٥].

٦ ـ احتياجات سياسية: «وهذه تقوم بمركز القوة الذي يفرغه الجمهور في عدد معين من أفراده من أصحاب القوة الأدبية والأمانة لأجل حفظ نظامه ووقايته من الخلل والمحافظة على دمه وماله وعرضه»[٦].

٧ ـ احتياجات اكمالية: «وهي تقوم بأمور لا يضطر الإنسان إليها غير أنها ذات منفعة لرفاهية جسمه ورياضة عقله والحصول على شهواته الطبيعية التي غرسها فيه باري الطبيعة»[٧].

---

(١) المصدر ذاته، ص ٤.
(٢) المصدر ذاته، ص ٥.
(٣) المصدر ذاته.
(٤) المصدر ذاته.
(٥) المصدر ذاته.
(٦) المصدر ذاته، ص ٥ ـ ٦.
(٧) المصدر ذاته، ص ٦.

إن الإنسان يحتاج بالضرورة إلى تبادل الخدمات وإلى من يقدم له العون والمساعدة لتأمين هذه الاحتياجات الطبيعية التي لا يتيسر أمر إيجادها لفرد واحد أو لجماعة واحدة بل يتوجب اشتراك عدد كبير من الناس لتأمينها على حقها، وسبب ذلك أن الاجتماع البشري قد ظهر قبل كل شيء كنتيجة حتمية لهذه الاحتياجات[1]. فللناس احتياجات كثيرة ولا يوجد إنسان على وجه الأرض يستطيع القيام بجميع هذه الاحتياجات على أساس الاكتفاء الذاتي[2]. واستشهد بالمصاعب الجمة التي كابدها المغامر روبنصن كروزو في جزيرته المنعزلة لتأمين حصوله على احتياجاته الضرورية[3]. يعتمد الاجتماع البشري، في عرفه، على مبدأ تقسيم الأعمال[4] بين مختلف أفراده لأنه لا يمكن «لإنسان واحد أن يكون زراعاً وحلاجاً وغزالاً وبراماً وحائكاً وخياطاً، ولا قطاعاً ونحاتاً وبناء وكلاساً ونجاراً، ولا تلميذاً ومعلماً، ولا رعية وملكاً وشيخاً أو قسيساً»[5]. وطالما أن منافع الاجتماع البشري لا تنال على أتم ما يرام «إلاّ بواسطة القرب والاختلاط نتج من ذلك عمار المزارع ثم القرى ثم المدن ثم العواصم»[6]، التي لم تكن بحد ذاتها كافية لأن هذه الاحتياجات لا توجد جميعها في مكان واحد ولذلك نتج بالضرورة «اتصال قرية بقرية ومدينة بمدينة وهكذا حصل الاجتماع المدني»[7]، أي حصل اجتماع مدني في بلاد واحدة. ولم يتوقف البستاني عند حدود البلاد الواحدة الضيقة بل إن نظريته الاجتماعية كانت عامة لتشمل الجنس البشري في سلسلة حلقاته المتعددة ليؤلف عائلة واحدة، وذلك لأن الاحتياجات الطبيعية لا توجد جميعها في بلاد واحدة «لأن باري الكون لأجل كمال الاتصالية والإلفة بين الجنس البشري بحيث يصير الجميع كعائلة واحدة جعل بحكمته الباهرة

---

(١) المصدر ذاته، ص ٧ ـ ٨.

(٢) قارن هذه الفكرة مع آراء أفلاطون بالجمهورية. جورج سباين. تطور الفكر السياسي. ترجمة جلال العروسي. القاهرة، ١٩٥٤ ص ٦٠.

(٣) **خطاب في الهيئة الاجتماعية**، ص ٧. ترجم المعلم بطرس البستاني هذه الرواية إلى العربية ودعاها: **التحفة البستانية في الأسفار الكيروزية**. بيروت، مطبعة الأميركان، ١٨٦١.

(٤) Division of Labor.

(٥) **خطاب في الهيئة الاجتماعية**، ص ٧ انظر أدناه ص ١٩٤.

(٦) المصدر ذاته، ص ٧.

(٧) المصدر ذاته.

لكل بلاد أو إقليم خاصيات ومواد لا توجد في غيره حتى صار العالم بأسره نظير سلسلة تعددت، كانت كل واحدة منها مفتقرة إلى أختها بحيث لا يتيسر حفظ تركيبها ونظامها بدونها ومن ذلك نتج اتصال البلدان واختلاط أهاليها معاً لاشتراكهم في الصوالح»[١].

وللدلالة على صحة نظريته الاجتماعية هذه ضرب مثلاً حيا لتوضيح ما كان يرمي إليه من وراء نظريته الإجتماعية هذه. لقد استشهد بمدينة بيروت التي كانت تشكل في عرفه حلقة من حلقات تلك العائلة الواحدة. كان يعتبر بيروت مركزاً «مهما لنا ولسورية بلادنا لأنها موصلة بين بلادنا وبين نفسها وبينها وبين البلدان الأجنبية»[٢]، وتساءل عن حالة الهيئة الاجتماعية في بيروت، ولكنه قبل الإجابة على ذلك أورد ثلاثة أمور تتعلق بتلك الهيئة:

الأمر الأول: «إن أكثر أهالي بيروت هم من محبي السلامة والراحة العمومية، وأصحاب صوالح مشتركة وهم مؤلفون من أرباب الصنائع والتجار وأصحاب الأملاك وولاة الأمور وعدد الأوباش فيها قليل جداً إذا قابلناها مع مدن أخرى»[٣].

الأمر الثاني: «إنه يوجد في بيروت أشخاص من بلدان وأجناس مختلفة أو من أكثر الأجناس الذين تحت قبة الفلك يجمعها فريقان أبناء الشرق وأبناء الغرب، وهم وإن اختلفوا في أمر الجنسية والمشرب يشتركون في الصوالح ولا سيما التجارية والمدنية والأدبية، وإذا شاؤوا يمكنهم أن يعيشوا معاً بالأمن والراحة والرغد والسعادة»[٤].

الأمر الثالث: «إن أكثر سكان بيروت متمدنون وعواطفهم جميعاً متجهة نحو التمدن ومائلة إليه وهم شديدو الاهتمام في توسيع دائرته في بلادهم وانتشار فوائده في جهات أخر»[٥].

---

(١) المصدر ذاته، ص ٧ ـ ٨.
(٢) المصدر ذاته، ص ٨.
(٣) المصدر ذاته، ص ٨ ـ ٩.
(٤) المصدر ذاته، ص ٩.
(٥) المصدر ذاته.

يمكن الاستنتاج من وصف حالة الهيئة الاجتماعية لمدينة بيروت بأن احتياجات أفرادها ومخاوفهم هي احتياجات ومخاوف قوم متمدنين «ولهذا لكي تكون هيئتهم الاجتماعية موافقة لاحتياجاتهم ويكونوا هم متمتعين بنتائج تلك الحالة لا بد لهم من إيفاء تلك الاحتياجات على حقها ودفع تلك المخاوف قاطبة»[1]. واستخلص من أجابته عن تساؤله أن بيروت تمتاز بأربع صفات واضحة، هي:

أولاً: إن احتياجات الاجتماع البشري الطبيعية في بيروت «من القوت والكسوة والمأوى وأسباب وقايته من المخاوف باعطاء الأمنية التامة على دم الأهالي ومالهم وعرضهم تكاد تكون مساوية للمطلوب»[2]. ويمكن القول نتيجة للعناية التي يبذلها أولياء الأمور في هذه المدينة، إنها «آمن مدينة في العالم، وذلك مما زادها عماراً وجعل الناس تتقاطر إليها من كل جهة»[3]. وتنبأ بأنه سيكون «لهذه المدينة مستقبل سعيد»[4] لأن سكانها «هم أصحاب همة ونشاط ونباهة واقدام لا يفوقهم فيها أحد من سكان الكرة الأرضية»[5]، وإنها، كما كانت في الأزمان السالفة مرضعة للفقه والآداب، «ستكون كذلك في ما يأتي وتكون موصلاً بين الغرب والشرق في كل أمر مفيد»[6].

ثانياً: إن احتياجات بيروت العقلية، بالرغم من انتشار المعارف فيها وانتشار عدد وافر من المدارس والمطابع «لا تزال قاصرة كثيراً عن المطلوب»[7] وذلك لعدم توفر ما يطلبه روح العصر من الكتب المناسبة للمطالعة، كما أنه لا يوجد فيها دور كتب «تحتوي على ما تلذ مطالعته من الكتب والكازتات التجارية أو الجرنالات الصناعية»[8] بالرغم مما يبذله أعضاء الجمعية العلمية السورية من همة ونشاط في هذا المضمار

---

(١) المصدر ذاته، ص ١٠.
(٢) المصدر ذاته.
(٣) المصدر ذاته.
(٤) المصدر ذاته.
(٥) المصدر ذاته.
(٦) المصدر ذاته، ص ١١.
(٧) المصدر ذاته. راجع أيضاً، سليم البستاني، «الهيام في جنان الشام. **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٥٩ حول فائدة الكتب الأدبية.
(٨) المصدر ذاته.

لتأمين قاعات للمطالعة للجمهور. لا شك أن مجال الإصلاح والتقدم واسع من هذا القبيل وذلك لأن تعذر وجود مثل هذه الوسائط المؤدية إلى فائدة الذين يعرفون القراءة وتوليد الرغبة عند الأميين في تعليم القراءة «هو من أكبر الأسباب التي تملأ القهاوي من الشبان والشيوخ الذين يترددون إليها لأجل قتل الوقت نهاراً وتملأ البيوت من الدومنيات والشدات والطاولات لأجل قتله هناك ليلاً»[1].

ثالثاً: إن احتياجات بيروت المعشرية هي قاصرة أيضاً «فإنه لا يوجد فيها قاعات خطب ولا مراسح لعب ولا تحف معتبرة مما من شأنه أن يوسع دائرة العقل ويقوي عناصر الإلفة ويحسن حالة الهيئة الاجتماعية»[2] الشيء الذي جعل اهتمام معظم أهاليها يقتصر على معاشرة «دفاترهم ومخازنهم ودكاكينهم وصنائعهم وملاعبهم وعماراتهم نهاراً والتأمل بها والكلام عنها ليلاً»[3]. فلم يلتفتوا إلى إيجاد أو تدبير شيء نافع لذريتهم أو لوطنهم ولذلك أصبحت «المصالح العمومية، التي يتوقف عليها نمو الهيئة الإجتماعية وراحة العموم وخير أبناء الوطن، متأخرة كل التأخر وقلما يوجد لها محام أو نصير:

وكـل امـرء لا خيـر فيـه لغيـره فسيان عندي فقده ووجوده»[4]

رابعاً: إن حالة احتياجات بيروت الأدبية والدينية ليست أحسن حالاً من وضع الاحتياجات المعشرية «لأن حالة الذين واجباتهم إيجاد وتيسير تلك الاحتياجات ظاهرة لا تحتاج إلى دليل»[5]. ولم يشأ أن يتعرض للكلام عن حالة هؤلاء الأشخاص لأن ذلك موضوع طويل عريض لا يمت إلى مقاصده بصلة.

واستخلص من بحثه هذا أن الأمنية التجارية، التي هي الدولاب والمحور اللذين تدور عليهما أشغال أكثر سكان مدينة بيروت «هي من أعظم احتياجات مدنية كهذه»[6]، وأن هذه الأمنية التجارية قد وصلت إلى درجة «أوجبت خللاً في الأعمال

---

(١) المصدر ذاته.
(٢) المصدر ذاته، ص ١٢.
(٣) المصدر ذاته.
(٤) المصدر ذاته.
(٥) المصدر ذاته، ص ١٣.
(٦) المصدر ذاته.

وبطؤاً في الحركة وضيقة عمومية»[١]. ولكنه كان يأمل أن يتخذ أهالي بيروت التدابير والوسائل الفعالة لعودة دولاب الأعمال إلى مركزه السابق وذلك «بواسطة اكتساب رضى وأركان من بيدهم زمام الأمور ودفة الأعمال ومفاتيح القوة والغنى والأمنية، وبواسطة تقوية رباطات الاتحاد الذي هو أعظم قوة خسرتها العرب وقهرتهم بها الإفرنج»[٢].

القسم الثاني: العادة

عرّف البستاني العادة بأنها مأخوذة أصلاً «من العَوْد ومعناه الرجوع، والمراد به ما تعوده الإنسان من فعل قبيح أو عمل مليح وذلك مع التكرار والمواظبة»[٣]. إن أساس العادة إنما هو الاحتياج الطبيعي الذي قد يسببه «مزاج الهواء أو الذوق أو الديانة أو ما أشبه، وربما نتجت العادة من مصدر آخر كطلب المشابهة والتقليد مثلاً، وهذه ربما وافقت الهواء والذوق والديانة أو خالفتها»[٤]. إن أكثر العادات هي اضطرارية وبصورة خاصة تلك «المسببة عن الهواء والذوق»[٥]، ولكن هناك عادات اختيارية ناتجة عن التقليد إما لاستحسانها وإما طلباً للتشبه وإما طلباً للمضادة»[٦]. والعادة على ثلاثة أنواع[٧]:

أولاً: قد تكون ملكة راسخة في النفس وتعرف بالخلق.

ثانياً: «الغرائز المركوزة في البدن» بحيث تصبح طبيعة خامسة. وعلى ذلك يقال «عادة في البدن لا يغيرها إلا الكفن».

ثالثاً: مصطلحات قوم في أمر الأكل واللبس والمعاشرة وما أشبه. وتشتمل هذه المصطلحات على جميع الأمور التي يصعب تركها إما لائتلاف الطباع عليها أو

---

(١) المصدر ذاته.
(٢) المصدر ذاته.
(٣) المصدر ذاته، ص ١٤. راجع: سليم البستاني، «فاتنة». **الجنان** ج٨ (١٨٧٧) ص ٣٣.
(٤) المصدر ذاته.
(٥) المصدر ذاته، ص ١٦.
(٦) المصدر ذاته، ص ١٦ ـ ١٧.
(٧) المصدر ذاته، ص ١٤.

لموافقتها ذوق الأكثرية. وهذا النوع الثالث من العادات هو الذي كان يقصده بخطابه والذي ركز فيه على أن هذه العادات تتمدن بتمدن أهلها. ونظراً لاعتقاده أن الإنسان بطبيعته هو غير كامل «كانت عاداته غير كاملة وكان فيها دائماً عيوب كثيرة ونقائص شتى، وإن يكن قد ارتقى إلى أسمى درجة من سلم التمدن»[١].

حدد البستاني أنه يمكن النظر في عادة قوم وتقييمها من زاويتين مختلفتين:

أولاً: «باعتبارها في نفسها مع قطع النظر عن ذوق أهلها أو من يخالفهم ونحكم بجودتها أو رداءتها من حيث نفعها الذاتي أو ضررها»[٢].

ثانياً: «باعتبار من هي جارية عندهم ونحكم بجودتها ورداءتها من حيث مطابقتها لهيئتهم الاجتماعية أوعدم مطابقتها أو من حيث سدها لاحتياجاتهم أو عدمه»[٣].

واستنتج أنه لا يجوز أن تتخذ فكرة قبول عادة عند قوم أو رفضها كدليل على حسنها أو رداءتها بل يجب «أن نجرد تلك العادة عن ذوق أهلها ومن يضادهم»[٤] إذا ما أردنا أن نعطي حكماً صائباً من جهة جودتها أو قبحها. يهتم الذين يتخذون عادات جديدة بتغييرها وتحسينها وتهذيبها شيئاً فشيئاً، ومن ثم يبدلونها حتى يخيل للباحث أنهم سيرجعون إلى كثير من العادات القديمة كأنهم بذلك «يمشون على محيط دائرة حتى يصلوا كل مدة إلى النقطة التي خرجوا منها، ثم يقطعون ذلك المحيط ثانية وهكذا إلى ما شاء الله»[٥].

القسم الثالث: مقابلة عادات العرب والإفرنج.

عند مقابلته للعادات عند كل من العرب والإفرنج يرجح بأن التباين والتضاد والاختلاف بين عادات الإفرنج وعادات العرب يعود إلى طبيعة كل من الشعبين

---

(١) المصدر ذاته، ص ١٩.
(٢) المصدر ذاته، ص ١٤ ـ ١٥.
(٣) المصدر ذاته، ص ١٥.
(٤) المصدر ذاته، ص ١٥. راجع سليم البستاني، «بنت العصر». الجنان ج٦ (١٨٧٥) ص ٦٨. يتبنى هذه الفكرة.
(٥) خطاب في الهيئة الاجتماعية. ص ٢٠.

مؤكداً أن مصدر عادات الإفرنج ليس هو طلب معاكسة عادات العرب[1]، ولذلك يمكن القول إنه ليس «كل ما عند الإفرنج من عادات يوافق العرب ولا كل ما عند العرب من ذلك يوافق الإفرنج»[2]. كما انه لا يجوز لأي من الفريقين أن يلوم الفريق الآخر لعدم اتفاقه معه في عاداته. واقترح على كل منهما أن يتحلى برحابة الصدر ويتبنى مبدأ «الاجتهاد في كل مكان وزمان في ابطال ما كان من العادات مضراً بآداب الجمهور أو صحتهم أو مالهم»[3].

لقد وجد اختلافات ظاهرة بين عادات الفريقين فيما يتعلق بشعر الرأس، وفي أمور اللباس، والأطعمة وأدوات الأكل.

أولاً: إنه يوجد اختلاف واضح بين الشعبين من جهة إرخاء شعر الرأس وحلقه. إن وجود الشعر «لم يكن عبثاً بل قصد به الوقاية أو الزينة أو التمييز بين جنس وجنس فهو الكساء الطبيعي الذي جعله الله لخلائقه الحية الحساسة كافة كلا على قدر حاجته»[4]. فاللحية عند الإفرنج ليست إلاّ كالأظافر يحلقونها متى شاؤوا ويختلفون حول ذلك فيما بينهم «حتى نرى بعضهم بلحية كاملة وشاربين، وبعضهم بلحية بلا شاربين، وبعضهم بشاربين بلا لحية، وبعضهم بعارضين، وبعضهم بعنقفة»[5] وذلك لكي تكون على وجوههم كل الأشكال التي يمكن العقل أن يتصورها «ولعل لهم في ذلك حكمة ومقاصد لا يقدر العقل العربي أو الشرقي على التوصل إلى ادراكها»[6]. وهذا التصرف الغريب هو ما يجعل الذوق العربي ينفر من عادات الإفرنج من جهة إرخاء الشعر وحلقه لأنها مغايرة على خط مستقيم لطبيعتهم.

ثانياً: هناك اختلاف بين عادات العرب والإفرنج في أمر الأزياء واللباس وبصورة

---

(١) المصدر ذاته، ص ١٩.
(٢) المصدر ذاته، ص ١٧. راجع سليم البستاني، «الهيام في جنان الشام». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ١٩٠ حول عادت الإفرنج.
(٣) **خطاب في الهيئة الإجتماعية**. ص ١٨.
(٤) المصدر ذاته، ص ٢٠.
(٥) المصدر ذاته، ص ٢١.
(٦) المصدر ذاته.

خاصة «من جهة ضيقه عند الإفرنج واتساعه عند العرب»[1]. إن الغاية الأصلية من اللباس إنما هي «وقاية الجسم الإنساني من البرد والحر وستره عن النظر»[2]. ولهذا كان لكل بلاد ولكل فصل من فصول السنة لباس يوافقه. فلباس الإفرنج «الضيق يوافق حركتهم السريعة الناتجة من شدة اعتبارهم لقيمة الوقت وحرصهم»[3]، بينما يوافق لباس العرب الواسع «حركتهم البطيئة الناتجة من عدم اعتبارهم لقيمة الوقت وقلة مطامعهم، ومن تعليقهم أمر الرزانة الأدبية على الرزانة الطبيعية»[4]. ويظهر أن البستاني كان يستهجن كلا اللباسين الضيق والواسع، وكان ينشد الوصول إلى اعتماد لباس معتدل وموافق للفريقين ولذلك اقترح قائلاً: «كنت أريد أن أقطع عرضاً من جبة العرب فأصل به طول جبة الإفرنج التي لا تصل عند البعض إلى ما فوق العجز، وأن أفتق عرضين من سروال العرب لأصل بهما عرض البنطلون الإفرنجي»[5]. مع العلم أنه كان يعتقد أن اللبس في نفسه ليس شيئاً بالنظر إلى حقيقة الإنسان[6].

ثالثاً: وهناك اختلاف في أمر الأطعمة وأدوات الأكل. إن الإفرنج يقصدون النفع أكثر من اللذة في معظم مأكولاتهم بينما يقصد العرب اللذة في أغلبها. ومجاملات العرب في العزيمة إلى ولائم الطعام تفوق حد الاعتدال بينما لا يتكلف الإفرنج في أمر العزيمة إلاّ إلى قولهم «تفضل»[7]. ودعا العرب إلى الإقلاع عن عادة الإصرار على ضيوفهم بالأكل «كرمال فلان» «وكرمال فلانة».

رابعاً إن الاختلاف بين الفريقين من جهة الأمور المتعلقة بالمعاشرة كثيرة ومتنوعة، كما يجري أثناء التعارف بين شخصين، أو كاصطلاحات التحية التي ربما

---

(١) المصدر ذاته، ص ٢٢.
(٢) المصدر ذاته.
(٣) المصدر ذاته، ص ٢٢ راجع سليم البستاني، «الهيام في جنان الشام». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ١٢٤ حول بطيء الحركة عند العرب.
(٤) المصدر ذاته، ص ٢٢.
(٥) المصدر ذاته، ص ٢٣ ـ ٢٤. أخذ سليم البستاني هذه الفكرة بحذافيرها وتبناها في إحدى الإفتتاحيات. **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٦٥.
(٦) المصدر ذاته، ص ٢٤.
(٧) المصدر ذاته، ص ٢٧.

تستغرق أكثر من ربع ساعة بدون فائدة ترجى لفراغ الأجوبة من أي معنى[١].

خامساً: إن الإفرنج يثبتون على كل شيء ويدققون في الأمور ولا يعملون شيئاً بدون الاعتماد على قاعدة أو قانون حتى جعلوا لجميع الأمور قوانين وأعراف مدونة، بخلاف العرب الذين تؤخذ جميع الأمور عندهم بالتسليم[٢]. ودعا العرب إلى انتهاج مبدأ التخطيط والثبات والمثابرة في أعمالهم إذا ما أرادوا النجاح.

سادساً: يختلف الفريقان في نظر أحدهما إلى الآخر. إن أكثر الإفرنج الموجودين في بلاد العرب والذين لم يتيسر لهم التربية اللازمة «ينظرون إلى العرب نظر الاستخفاف والازدراء ويعاملونهم معاملة من شأنها أن تدقر حاسيات العرب من الجهة الواحدة وتحط شأن الإفرنج من الجهة الأخرى»[٣]، وأما «أكابرهم» فلا يأتون أعمالاً كهذه بل يتصرفون بمقتضى «مبادىء التمدن وحقوق الإنسان والأدب»[٤]، بينما يقدم العرب للإفرنج «كل أعتبار، وربما أضروهم بذلك، ويجتهدون في أن يكرموهم كضيوف»[٥]. وهنا دعا الإفرنج للنظر إلى العرب نظرة منصفة لا تحامل فيها.

سابعاً: يختلف الفريقان من جهة الآداب. فإن الإفرنج يخالفون العرب «في جلوسهم ومشيهم وحركاتهم ومعشرهم واجتماعاتهم ووسائط الانتقال والحركة وأعراسهم ومآتمهم»[٦]، وغير ذلك مما لا يتسع له الوقت لتعداده. بينما يتفق الفريقان في شيء واحد مشترك بينهما «هو أننا جميعاً ذوو طبيعة واحدة بشرية مائلة إلى الفساد والشر»[٧] وكلاهما من أب واحد، وهو نوح. ولذلك حث كلا الفريقين على تذكر هذا الأمر ليعيشوا معا «بالمحبة والإلفة ومساعدة بعضهم بعض مدة غربتهم على الأرض

---

(١) المصدر ذاته، ص ٣١. يتفق الأديب اللبناني ميخائيل نعيمة مع البستاني في الاعتراض على هذه العادة. راجع: ميخائيل نعيمة، الغربال. ضمن المجموعة الكاملة. بيروت، دار العلم للملايين ١٩٧١ ج٣ ص ٣٨٠ ـ ٣٨١.

(٢) خطاب في الهيئة الاجتماعية، ص ٣٤.

(٣) المصدر ذاته، ص ٣٥. يتبنى سليم البستاني هذه النظرية. راجع «الهيام في جنان الشام». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٢٨ و١٢٣.

(٤) المصدر ذاته.

(٥) المصدر ذاته، ص ٣٦.

(٦) المصدر ذاته، ص ٣٧.

(٧) المصدر ذاته، ص ٣٧. انظر أدناه ص ١٩٦ هامش رقم ٣.

سواء كانوا على سطحها الغربي أو الشرقي»[١]. وختم خطابه بالنصيحة التي كان قد وجهها إلى أبناء وطنه، قبل تسع سنوات، في الوطنية الحادية عشرة من وطنياته المعروفة بنفير سورية والتي حثهم فيها إلى الأخذ بالتمدن الحديث بعد «فحص مدقق وانتقاد صحيح وانتخاب ما جل منها»[٢] كما نبههم بألا يخدعوا أنفسهم بقبض «الدرهم الزائف مع الدينار الخالص، ويرقعون أثواباً بالية بخرق جديدة»[٣] وألاّ يقلدوا الأجانب تقليداً أعمى، وألاّ يتمسكوا «بالعرض أكثر من الجوهر» لأن كل «من استهجن كل شيء لأجل مجرد كونه عربياً وبالعكس يقع في تطرف مضر»[٤]. وأضاف على تلك النصيحة البيتين التاليين من الشعر:[٥]

لا يعجبنك أثواب على رجل   دع حسن أثوابه وانظر إلى الأدب
فالعود لو لم تفح منه روائحه   لم يفرق الناس بين العود والحطب

لقد تبنى سليم البستاني معظم الآراء الواردة في خطاب والده، إن كان ذلك في مقالاته أو في رواياته، حيث كان يستشهد بها أحياناً بنصها الحرفي ويتوسع فيها مع بعض التصرف في معظم الأحيان.

محيط المحيط[٦]

رأينا فيما سبق أن المعلم بطرس البستاني كان قد اقترح في خطاب القاه في بيروت سنة ١٨٥٩ وضع قاموس للمفردات العربية والعلوم المتعلقة بها في قالب «يجعل تحصيلها في ظرف سنة ميسوراً لأهلها الذين نباهتهم في اكتساب اللغات الغربية في المدة المذكورة يشهد بأنه لا يجب أن يصرفوا أكثر منها في تعلم أصول لغة قد رضعوها مع اللبن»[٧]. هذه اللغة العربية التي أنطق الله العرب بها بأفصح الكلمات

---

(١) المصدر ذاته، ص ٣٨.
(٢) المصدر ذاته، ص ٤١. راجع: سليم البستاني، «اسما». الجنان ج٤ (١٨٧٣) ص ٥٣٧ و٦١٠.
(٣) المصدر ذاته.
(٤) المصدر ذاته.
(٥) المصدر ذاته، ص ٤٢.
(٦) المعلم بطرس البستاني، محيط المحيط. بيروت، ١٨٦٩ ـ ١٨٧٠ في جزءين.
(٧) المعلم بطرس البستاني، خطاب في اداب العرب، ص ٢١ انظر أعلاه ص ٥١.

وجعلها «شامة في وجه اللغات»[١] والتي إذا ما عدت اللغات «كانت هي في المقام الأول وإذا قيس بها غيرها كانت هي كالبحر وهو كالجدول»[٢]. على أن يكون اعداد هذا القاموس «أهم خدمة للجيل الحاضر والأجيال المستقبلة من أبناء اللغة»[٣]. ويظهر أن فكرة تأليف قاموس للمفردات العربية كانت قد راودته قبل ذلك بأربع سنوات حيث أبلغ رغبته هذه إلى الدكتور عالي سميث، المرسل الأميركي في رسالة بعثها إليه بتاريخ ١٨ تموز سنة ١٨٥٥ [٤]. كما إنه وعد القراء في آخر كتابه **مفتاح المصباح** المطبوع سنة ١٨٦٢ بالقيام باعداد هذا القاموس[٥]. وذكر في مقدمة كتابه **محيط المحيط** أنه ألف هذا الكتاب انجازاً لوعده في آخر كتابه **مفتاح المصباح**. ويوضح سليم البستاني، بكر أنجال المعلم بطرس البستاني، هدف والده الذي لم يشرع في اعداد قاموس محيط المحيط «إلا لتيقنه عجز العامة عن الاستفادة من قواميس اللغة الصعبة المراس»[٦] وكان يقول «إن هذا التأليف هو الخطوة الأولى في سبيل تعميم اللغة»[٧]. وكان البستاني الكبير يعتبر عمله هذا خدمة جزئية لأبناء وطنه من محب للوطن جل اهتماماته ومقاصده «أن يرى ابناء وطنه يتقدمون في الآداب والمعارف والتمدن تحت لغتهم الشريفة وأن تكون وسائط ذلك متيسرة لخاصتهم وعامتهم على أتم ما يرام»[٨]. ولم يأسف للوقت الطويل، ١٥ سنة، ١٨٥٥ ـ ١٨٦٩، الذي كابده في اعداده ولا للمشقات العظيمة التي واجهها لأن كل ذلك صرف في سبيل خدمة الوطن، واستشهد ببيت الشعر التالي:

---

(١) **محيط المحيط**، المقدمة.

(٢) المصدر ذاته، ج ١ ص ٨٤٧.

(٣) المصدر ذاته، ج ١ ص ٨٤٨.

(٤) الطيباوي، ص ١٧٢ الهامش رقم ١٢٥.

(٥) المعلم بطرس البستاني، **مفتاح المصباح**. بيروت، ١٨٦٢. لم ترد هذه الفقرة في الطبعة الثالثة ١٨٩٥.

(٦) ذكر المقتطف أن البستاني استجمع بكتاب **محيط المحيط** «شتات اللغة واستدنى إليه شواردها على أسلوب لين ومأخذ سهل بما سوى بين العالم والجاهل والمنتهي والمبتدى في التناول منه».

«المرحوم المعلم بطرس البستاني» **المقتطف** ج٨ (١٨٨٣) ص ٢.

و«دائرة المعارف»، **دائرة المعارف** ج٧ (١٨٨٣) ص ٥٩٠.

(٧) سليم البستاني، «بطرس البستاني»، **الجنان** ج١٤ (١٨٨٣) ص ٣٢٢.

(٨) **محيط المحيط**، المقدمة.

فيا وطني ان فاتني بك سابق   من الدهر فلينعم لساكنك البال[١]

التعريف بكتاب محيط المحيط

قدم للقراء في مقدمة الكتاب وفي نهاية باب حرف الراء وعلى الصفحة الأخيرة في نهاية الكتاب المعلومات التالية حول قاموسه:

أولاً: يستحق أن يسمى محيط المحيط لأنه قد جمع ما ذهب في كتب اللغة شماطيط[٢].

ثانياً: يحتوي على ما في محيط الفيروزابادي وعلى ما في صحاح الجوهري[٣] وعلى زيادات كثيرة عثر عليها في كتب القوم يحتاج إليها كل مطالع[٤].

ثالثاً: ألحق بذلك اصطلاحات العلوم والفنون وكثيراً من المسائل والفوائد والقواعد والشوارد وغير ذلك مما يتعلق بمتن اللغة[٥].

رابعاً: ذكر كثيراً من كلام المولدين وألفاظ العامة منبهاً في أماكنها على أنها خارجة عن أصل اللغة[٦].

خامساً: أضاف إلى أصول الأركان فروعاً كثيرة وتفاصيل وذلك لكي يكون الكتاب كاملاً شاملاً يجد فيه كل طالب مطلوبه[٧].

---

(١) المصدر ذاته، ج١ ص ٨٤٨.

(٢) المصدر ذاته. شماطيط تعني القطع المتفرقة. ابن منظور، **لسان العرب**، بيروت، صادر، ١٩٥٦، ج٧ ص ٣٣٧.

(٣) وردت في إعلان على غلاف الجنان ١٨٧٠.

(٤) **محيط المحيط**، المقدمة.

(٥) المصدر ذاته، ج١ ص ٨٤٧. ويذكر حسين نصار أن البستاني قال في خاتمة «**قطر المحيط**» عن «**محيط المحيط**» ما يلي: أدرجنا فيه كل ما قدرنا أن نقف عليه من مفردات اللغة وأصولها وفروعها واصطلاحات العلوم والفنون وكثيراً من كلام المولدين واللغة الدارجة ورصعناه بالشواهد من القرآن والحديث والشعر وأمثال العرب إلى غير ذلك من الفوائد والنوادر والشوارد مما لا غنى عنه للمطالع وكان كل ذلك سبب تسميته **محيط المحيط**. حسين نصار، **المعجم العربي، نشأته وتطوره**، القاهرة، ١٩٥٦ ص ٦٧٦. لم أجد هذه الفقرة في خاتمة **قطر المحيط**. لعلها كتبت على غلاف الكتاب.

(٦) **محيط المحيط**، ج١ ص ٨٤٧.

(٧) المصدر ذاته.

سادساً: رتبه بطريقة سهلة المراس على العامة فضلاً عن الخاصة[١].

سابعاً: اختار في ترتيبه اعتبار الحرف الأول من الكلمة دون أواخر الكلم بخلاف الاصطلاح المتعارف عليه عند الأقدمين، لأن ذلك أيسر في التفتيش على المفردات[٢].

ثامناً: ميز بين الأفعال والأسماء وبين المجرد والمزيد من الفريقين كل نوع على حدته مندرجاً مع نظيره من الأبنية[٣].

تاسعاً: تطلب اللفظة إذا ما كانت مجردة في باب أول حرف منها[٤].

عاشراً: تجرد اللفظة أولاً من الزوائد إذا ما كانت مزيدة ثم تطلب في باب الحرف الأول مما بقي منها[٥].

حادي عشر: تطلب اللفظة، إذا ما كانت تحتوي على حرف مقلوب عن آخر، في مكان الحرف الأصلي المقلوب عنه. أي تطلب: «بحث» في باب الباء. و«دحرج» في باب الدال. و«يقاتل» في «قتل» من باب القاف. «واستخرج» في «خرج» من باب الخاء و«ديه» في «ودي» من باب الواو. و«ترامى» من «رمى» من باب الراء[٦].

ثاني عشر: تعميماً لفائدة الكتاب ذكر في المقدمة أنه سيدرج في آخر كتابه هذا فهرساً مرتباً على حروف المعجم لأسماء ما اشتهر من الأماكن والأشخاص والقبائل ولا سيما الواردة في التصانيف العربية[٧]. ولكن لم يسمح له طول الوقت وكبر حجم الكتاب ولحاجة المشتركين بإدراج ذلك ولذلك استصوب أن يفرد لها كتاباً خاصاً بها **(دائرة المعارف)** وأن يدرج أشهرها في **الجنان**[٨].

لم يدعِ البستاني لكتابه **محيط المحيط** العصمة والكمال، لأن هاتين الصفتين «من

(١) المصدر ذاته.
(٢) المصدر ذاته، ص ٨٤٨.
(٣) المصدر ذاته.
(٤) المصدر ذاته، ج٢ ص ٢٣٠٨.
(٥) المصدر ذاته.
(٦) المصدر ذاته.
(٧) المصدر ذاته، المقدمة.
(٨) المصدر ذاته، ج٢ ص ٢٣٠٨.

صفات ذي القدر والجلال» بل أعترف بأن كتابه هذا «شأنه من النقص والزلل شأن كل ما خضع ليد إنسان من السهو والنسيان»[١]. واعتذر من خلانه واخوانه على جرأته هذه معترفاً بأنه يرى نفسه «غير أهل لأن يعد من فرسان هذا الميدان»[٢].

واعتقاده هذا دعاه إلى الالتماس من الواقفين على كتابه من أهل العلم «أن ينبهوه على ما يعثرون عليه من الأوهام والسقطات التي لا يتبرأ إنسان منها ولا يخلو كتاب عنها. وبذلك يحق لهم عليّ الشكر والثناء الجزيل. ويصح القول عند ذلك إنني وإياهم قد بذلنا المجهود بخلوص النية في تأدية ما فرض علينا من واجبات أهمْ خدمة للجيل الحاضر والأجيال المستقبلة من أبناء اللغة»[٣]. وكان مراده من هذا الالتماس أن يذيّل كتابه بإضافة جدول بإصلاح ما ربما يكون وقع فيه من الأغلاط المطبعية أو السهو ولكنه استحسن تأخير ذلك إلى وقت آخر كي يتيح لنفسه فرصة كافية لمراجعته وإلى أن يستلم إجابة أهل العلم على التماسه[٤]. رفع المعلم بطرس البستاني إلى السلطان عبد العزيز نسخة من محيط المحيط فأجازه السلطان «بالجائزة الأولى التي يعطاها المؤلفون وهي النيشان المجيدي مع عطية ٢٥٠ ليرة مجيدية»[٥].

تصدى لنقد عمل البستاني هذا ثلاثة من أشهر علماء اللغة العربية ونظراً لعدم توفر الفرصة للبستاني بذكر اعتراضات علماء عصره على قاموسه لا بد هنا من ذكر هذه الاعتراضات الثلاثة وذلك تطبيقاً لالتماسه. كان الشيخ أحمد فارس الشدياق[٦] أول

---

(١) المصدر ذاته.

(٢) المصدر ذاته.

(٣) المصدر ذاته، ج١ ص ٨٤٨.

(٤) المصدر ذاته، ج٢ ص ٢٣٠٨.

(٥) «المرحوم المعلم بطرس البستاني» **المقتطف** ج٨ (١٨٨٣) ص ٣، و«دائرة المعارف» **دائرة المعارف**، ج٧ (١٨٨٣) ص ٥٩٠. وصموئيل صميلز. **سر النجاح**. ترجمة يعقوب صروف. الطبعة الثانية. القاهرة، مطبعة المقتطف، ١٨٨٦ ص ٢١٤

(٦) أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ ـ ١٨٨٧). راجع عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**. دمشق، مطبعة الترقي، ١٩٥٧ ج٢ ص ٤١ ـ ٤٢ لقد وصفه الشيخ محمد عبده بأنه «امام في اللغة». محمد رشيد رضا، **تاريخ الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده**. القاهرة، مطبعة مصر، ١٩٣١ ج١ ص ٩٩٧.

هؤلاء المعترضين والشيخ إبراهيم اليازجي[1] ثانيهم، والأب انستاس ماري الكرملي[2] ثالثهم.

اعتراضات الشدياق

انبرى الشيخ أحمد فارس الشدياق، رئيس تحرير مجلة **الجوائب** التي كانت تصدر بالآستانة، لنقد كتاب **محيط المحيط** متهماً مؤلفه البستاني بأنه «عامل على إفساد اللغة العربية وانتحال محاسنها للغات الأعجمية»[3] ولذلك عمد إلى تخطئته لأنه أحاط نفسه بهالة من «الكبر والعنجهية والغطرسة والعيدهية[4] والتطول والتمدح والتبجج والمفاخرة والمباهاة حتى كاد يفسد اللغة»[5]. واختار عدداً من الألفاظ الواردة في **قطر المحيط**[6] وعرج على تخطئتها إما على أساس ضبط حركاتها، وإما على أساس صيغها الصرفية[7]. واتهم البستاني بأنه «غير أمين في النقل ولا صادق في الرواية» وأنه «عُرف

---

(١) إبراهيم اليازجي (١٨٤٧ ـ ١٩٠٦) راجع **معجم المؤلفين**، ج١ ص ١٢٠ ـ ١٢١. وصفه الدكتور يعقوب صروف رئيس تحرير مجلة المقتطف بأنه «عالم لغوي طويل الباع في مفردات العربية وآدابها». «اختراع» **المقتطف** ج٥ (١٨٨١) ص ٢٣٩. وقال عنه الشيخ محمد عبده: «هو اكتب من اديب بكثير بل هو أكتب المعاصرين. **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، ج١ ص ٤٠٨. ودعاه الشيخ محمد رشيد رضا، رئيس تحرير مجلة المنار، «الكاتب اللغوي الشهير» المصدر ذاته، ص ٩٤ و١٠٥٩، و«اللغوي الأديب النقادة». المصدر ذاته، ص ١٠٣١.

(٢) الأب انستاس ماري الكرملي (١٨٦٦ ـ ١٨٤٧). يذكر كوركيس عواد، كاتب سيرته، بأنه يعد في طليعة علماء اللغة العربية الأفذاذ، «الذين تفرغوا لدرس هذه اللغة، والغوص في أعماقها والتمكن من مفرداتها، واستكناه أسرارها، والكشف عن خفاياها. «كوركيس عواد. **الأب انستاس ماري الكرملي حياته ومؤلفاته**. بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٦ ص ٣.

(٣) **الجوائب** العدد ٥٦٧ تاريخ ١٠/١/١٨٧٢ ص ٢.

(٤) الجفاء والغلط. ابن منظور، **لسان العرب**. بيروت، دار صادر ١٩٦٨ ج١٣ ص ٥١٤.

(٥) **الجوائب** العدد ٥٦٦ تاريخ ٣/١/١٨٧٢ ص ٥. فند البستاني اعتراضات الشدياق واستخلص قائلاً «فمما تقدم يعلم من هو عامل على إفساد اللغة العربية ومنتحل محاسنها للغات العجمية وقانا الله من أطواره ودعاويه. «**الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٩٢.

(٦) اختار **قطر المحيط** لأنه لم يظفر **بمحيط المحيط** وقال ان ذلك «هو كاف في إظهار جهله وفضح كبريائه». **الجوائب** العدد ٥٦٦ ص ٤.

(٧) اختار لفظة «الاب» بمعنى الكلأ التي قال البستاني أن تجمع على «اوب» واعترض عليها بأن لا جمع لها على هذه الصيغة بجميع قواميس اللغة وبأنها تجمع قياساً على «ابوب» كحب =

بالتحريف والتصحيف»[1]. ولذلك اقترح وضع قاعدة للناقلين تقول بأنه «إذا انفرد أحد بنقل حرف من اللغة... وجب عليه أن يذكر اسم من نقل عنه وإلاّ فيرد عليه»[2]. ولعل السبب غير المباشر الذي دعا الشدياق إلى التهجم على البستاني بهذه الطريقة العنيفة يعود إلى أن البستاني فتح المجال أمام الشيخ إبراهيم اليازجي للرد على اعتراضات الشدياق حول ديوان الشيخ ناصيف اليازجي على صفحات مجلة **الجنان**. ولذلك نرى الشدياق يصف البستاني بأنه ظهير لإبراهيم اليازجي على الوقاحة وبأنهما كانا يترقبان الفرصة لمعاداته[3].

فند البستاني جميع الاعتراضات والشواهد التي أوردها الشدياق وقال إنه كان الأجدر بمحرر **الجوائب** ومؤلف كتاب **الفارياق** «الذي جمع فيه جميع أنواع السفاهة أن يدافع أولاً عن نفسه ويناضل عن كتبه ويصلح ما بها من الغلط ليبرهن على أنه كفؤ للدخول في هذا الميدان، ويركن إليه ويعتمد على رأيه وانتقاده، ثم يأخذ كما هو دأبه في الطعن في غيره وتخطئة تآليفهم»[4]. ورفض أن يدخل معه بمماحكات صبيانية لا طائل تحتها «لأن ذلك ليس من مقاصد **الجنان**»[5]، والتمس منه أن يضع قاعدة للمخطئين كما وضع قاعدة للناقلين، وهي: «أن لا يتعرضوا لتخطئة غيرهم ما لم يكونوا موقنين بأنهم كفؤ لذلك، وأن لا ينددوا بالمؤلفين وكتبهم ما لم يكونوا هم وكتبهم خالين مما يسوّغ لغيرهم أن ينددوا بهم، وأن يفعلوا ذلك بخلوص النية وقصد الافادة والاستفادة لا على وجه المكابرة والانتقام والنكاية، وأن يتجنبوا السفاهة في ذلك فإنها ليست من الخير في شيء ولا تقوم مقام الدليل، وهو من أعظم الجهل أن لا يقر الإنسان بجهله وأن يدعي العصمة لنفسه ولا يسلم بصحة شيء مما لغيره وأن يرى عيوب غيره ويغفل عن عيوبه»[6].

= وحبوب. **الجوائب** العدد ٥٦٦ ص ٤.

(١) **الجوائب** العدد ٥٦٦ ص ٤.

(٢) المصدر ذاته. ذكر البستاني أن الشدياق طالما خالف هذه القاعدة **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٨٩.

(٣) **الجوائب** العدد ٥٦٦ ص ٤. انظر أدناه ص ٢١٧.

(٤) **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٨٨.

(٥) المصدر ذاته.

(٦) المصدر ذاته، ص ٩٠.

اعتراضات الشيخ إبراهيم اليازجي.

هناك تنبيهات على محيط المحيط ذُكر أنها جمعت من بعض التعاليق التي كان يضعها الشيخ إبراهيم اليازجي على هوامش الكتاب. جمع هذه التنبيهات وحل رموزها كل من الدكتور سليم شمعون وجبران نحاس ونشرا باب «الهمزة» منها فقط[١]. وتشتمل تنبيهات اليازجي على الاعتراضات التالية:

أولاً: ينبه على ضبط حركات بعض الألفاظ. فمثلاً نبه بوضع خط تحت «أبتة» الغضب الشديد، الواردة على الصفحة ٣ سطر ٨ وذكر أنها جاءت مضمومة الهمزة والصواب فتحها[٢].

ثانياً: ينبه على بعض النواقص التي لم ترد. فمثلاً نبه على لفظة «مآبر» وهي بيت الأبرة، الواردة على الصفحة ٤ سطر ٢٤ وكتب على الهامش «ومآبير وكثير من هذه المادة لم يذكر في القاموس ولا في الصحاح»[٣].

ثالثاً: ينبه على بعض الأخطاء المطبعية. فمثلاً يذكر أن لفظة «تبجج» الواردة في باب «تأبب» على الصفحة ٣ سطر ٤ كتبت بجيمين وصحتها بجيم بعدها حاء مهملة[٤].

رابعاً: ينبه على بعض الأخطاء في الترتيب الهجائي: فمثلاً أثبت البستاني لفظة «الأكسيجين» بين مادتي «اوق» و «اوك» وقد رسمه بهمزة بعدها كاف فكان محله بين حرفي «أكر» و «أكف»[٥]. ونشر جامعا هذه التنبيهات صورة فوتستات لإحدى الهوامش بخط اليازجي علق فيها على لفظة «الهوام» الواردة على الصفحة ٢٠٢٨ سطر ٣. يوضح اليازجي في هذا الهامش أن البستاني اعتمد في قاموسه على فريتغ[٦] في معجمه

---

(١) تنبيهات اليازجي على محيط البستاني. جمع الدكتور سليم شمعون وجبران نحاس. الإسكندرية، مطبعة صلاح الدين، ١٩٣٣.

(٢) المصدر ذاته، ص ٧.

(٣) المصدر ذاته، ص ١١ ـ ١٢. ذكر الشيخ إبراهيم اليازجي أنه شرع في وضع كتاب «مقتصراً على الفصيح دون المولّد والمحدث في الإصطلاح لأني رأيتهما طرفين لا يلتقيان ولا تؤلف منهما حلقتا بطان». المقتطف ج٦ (١٨٨١) ص ٨.

(٤) تنبيهات اليازجي على محيط البستاني، ص ٧.

(٥) المصدر ذاته، ص ٧٦.

(٦) Georgii Wilhemi Freytagii. *Lexicon Arabica - Latinum.* Halis Saxconum, 1830. 4 v.

العربي اللاتيني ويذكر أن قول محيط المحيط «الهوام» وهو ما أثبته فريتغ وتابعه عليه كاذيمرسكي[١] «هو الدليل القاطع على أن مؤلف الكتاب (البستاني) كان معتمداً على فريتغ فأصبح بينه وبين كاذيمرسكي نسب دال»[٢].

اعتراضات الأب انستاس ماري الكرملي.

منذ أخذ الأب انستاس ماري الكرملي يفهم اللغة العربية حق الفهم وجد في مصنفات السلف اللغوية نقصاً بيناً فأخذ يدون ما لا يجده في المعاجم اللغوية. واشترى في سنة ١٨٨٣ كتاب محيط المحيط ووضع ورقة بيضاء بعد كل ورقة مطبوعة وأخذ يقيد فيه كل ما يعثر عليه فتضاعف حجم الكتاب[٣]. ويذكر أنه قرأ كتاب محيط المحيط من الغلاف إلى الغلاف خمس مرات ووجد فيه أوهاماً عديدة وألف كتاباً ضخماً في اظهار تلك الأوهام إلاّ إن ذلك الكتاب أتلف في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ ـ ١٩١٨ مع ما أتلف من كتبه[٤]. يتهم الأب انستاس ماري الكرملي صاحب محيط المحيط بأنه «حاطب ليل، فهو ينقل عن هذا وذلك بدون أدنى نقد»[٥]، كما يتهم لغوي عصره المحدثين بأنهم عالة على محيط المحيط[٦] وبأنهم «حاطبو ليل ينقلون بلا ترو ولا تبصر»[٧]، فكتاب أقرب الموارد (بيروت ١٨٨٩) لسعيد الشرتوني هو النسخة الثانية لمحيط المحيط[٨] وكتاب البستان (بيروت، المطبعة الأميركية، ١٩٢٧ ـ ١٩٣٠) لعبد الله البستاني هو النسخة الثالثة لمحيط المحيط[٩]، كما نقل

---

(١) A. de Biberstein Kazimirski. *Dictionnaire Arab - Francais.* Caire, 1875. 4 v.

(٢) تنبيهات اليازجي على محيط البستاني. الصفحة التي تلي صفحة ١٠٠.

(٣) الأب أنستاس ماري الكرملي، «معجمنا أو ذيل لسان العرب»، لغة العرب ج٧ (١٩٢٩) ص ٨٣٣.

(٤) لغة العرب ج٥ (١٩٢٧) ص ١٧١.

(٥) المصدر ذاته.

(٦) لغة العرب ج٥ (١٩٢٧) ص ٦١٢.

(٧) المصدر ذاته. يوافق حسين نصار على هذا الرأي حيث يقول «كل هذه الأخطاء... نجدها عند أفراد مدرسة اليسوعيين جميعاً، لتأثرهم الشديد بالبستاني. حسين نصار، المعجم العربي نشأته وتطوره، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٦٩٥.

(٨) المصدر ذاته. كان الشرتوني يعتبر البستاني في محيط المحيط وقطر المحيط «نموذج الجد والإقدام» ودعاه بالعالم الفاضل. أقرب الموارد، ص ٨.

(٩) المصدر ذاته. وهناك مقالة للأب انستاس ماري الكرملي يعتبر «البستان» نسخة ثانية لمحيط =

عنه[1] كل من جرجس همام في كتاب معجم الطالب (بيروت ١٩٠٧) والأب لويس معلوف في كتاب المنجد (بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٠٨)، وجرجس عطية في كتاب المعتمد (بيروت ١٩٢٧) واتهم جميع مؤلفي معاجم اللغة العربية المحدثين بأنهم غير مدققين في أعمالهم لذلك تعد «حججهم ضعيفة لا قيمة لها عند المحقق»[2] لأنهم يجرون على آثار محيط المحيط «فيتدهورون في مهاويه ويدهورون الغير»[3].

يتفق الأب انستاس ماري الكرملي مع الشيخ إبراهيم اليازجي بأن البستاني أعتمد على معجم فريتغ[4]، ويذكر بأن معظم الأوهام الواردة في محيط المحيط وصلت إلى البستاني من فريتغ في معجمه العربي اللاتيني وذلك «لأن فريتغ كثيراً ما كان يستل الألفاظ من الكتب الخطية. ولما لم يكن يحسن القراءة فكان يشوه الألفاظ تشويها قبيحاً»[5]. وصاحب محيط المحيط، على حد قول الأب أنستاس ماري الكرملي، كان «يؤمن إيماناً أعمى بما كان يكتبه فريتغ فهفا هفواته»[6]. كما يذكر أيضاً أن فريتغ نفسه يعترف بأنه وجد بعض الألفاظ «في كتاب الأضداد لمؤلف لم يذكر اسمه عليه ولم يعرفنا بتاريخ النسخة ولا منزلتها من الصحة. فانظر بعد هذا كيف يجب أن نعتبر ما جاء في محيط المحيط ومن نقل عنه من أصحاب الدواوين العصرية»[7].

اعتراضاته على محيط المحيط.

أولاً: كان الأب أنستاس ماري الكرملي يؤمن بأن محيط المحيط «ليس حجة في اللغة»[8] وأن أول أخطاء البستاني كانت في تسمية كتابه محيط المحيط والصواب أن

= المحيط. مجلة المجمع العلمي العربي ج١٤ (١٩٣٦) ص ١٢٧ ـ ١٤٠.

(١) المصدر ذاته. قال جرجس همام «وجعلت محيط المحيط امامي لحسن تنسيقه والصحاح و التاج مرجعاً لمزيد التوثيق. معجم الطالب ص «ج».

(٢) لغة العرب ج٦ (١٩٢٨) ص ٣٧٩.

(٣) لغة العرب ج٥ (١٩٢٧) ص ٤٢٤.

(٤) تنبيهات اليازجي على محيط البستاني، الصفحة التي تلي ١٠٠، وانظر أعلاه ص ٩٣.

(٥) لغة العرب ج٥ (١٩٢٧) ص ٤٢ و١٧٠ ـ ١٧١ و٤٨٩ و٦١٩.

(٦) لغة العرب ج٥ (١٩٢٧) ص ٦١٣. انظر أيضاً: حسين نصار، المعجم العربي، نشأته وتطوره، ص ٦٨٢ و٧٠٨.

(٧) لغة العرب ج٦ (١٩٢٨) ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠.

(٨) لغة العرب ج٤ (١٩٢٦) ص ٤٨٨.

يسمى المحيط بالمحيط»[١].

ثانياً: مخالفته لأصول الصرف، عدّد بعض الأخطاء الصرفية الواردة إما بصيغة المفرد أو بصيغة الجمع وقال بإنه لا يريد أن يتوسع في هذا المجال «لأن لا تخلو صفحة من مثل هذه الأوهام التي يؤسف على وجودها في مثل هذا السفر»[٢].

ثالثاً: مخالفته لضبط حركات بعض الألفاظ، وعدّد له نحو «مائتي غلط من هذا الضرب»[٣].

رابعاً: جهله المعرب من الألفاظ، كأن يذكر البستاني مثلاً أن أصل اللفظ فارسي أويوناني معرّب فيصحح الأب انستاس ماري الكرملي ذلك، ويقول «ومثل هذا الجهل مئات»[٤].

خامساً: روايته معاني لا حقيقة لها، واستشهد بتعريف البستاني للفظ الابش: الذي يزين فناء الرجل وباب داره بطعامه وشرابه[٥]، وقال: «الصواب أن معنى الابش ما يزين فناء الرجل ودار طعامه وشرابه، وهو ضرب من الزليج (أي الأجر المربع الملون بألوان مختلفة) تزين بها صدور المنازل ولا سيما طعام الرجل... فلم يفهم بعضهم هذا المعنى فذهبوا فيه مذاهب لا يقبلها العقل ولا تأتلف والحقيقة»[٦]، ثم جاء البستاني «ونقل ذلك بقلب مطمئن ونفس سمحة، كأنه يكتب لقوم من القرون الأولى للميلاد أو للهجرة ونسي نفسه أننا في عصر التدقيق والتحقيق»[٧].

واستخلص من كل اعتراضاته أن محيط المحيط «بحر ظلمات لا يهتدي السالك

---

(١) وردت في لسان العرب: «احيط بفلان» و«محاط به» و«احاطت به» ابن منظور، **لسان العرب** ج٧ ص ٢٢٨٠ ووردت بالآية ﴿**إلا أن يحاط بكم**﴾ سورة يوسف رقم ١٢ الآية ١٦ و﴿**أحيط بثمره**﴾ سورة الكهف رقم ١٨ الآية ٤٢. راجع أيضاً **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**. القاهرة ١٣٦٤ ص ٢٢٠ ـ ٢٢١. ويعرف البستاني في **محيط المحيط** «الطوق» بأنه «المحيط بالشيء» **محيط المحيط** ج٢ ص ١٣٠٤.

(٢) **لغة العرب** ج٥ (١٩٢٧) ص ٦١٣.

(٣) المصدر ذاته، ص ٦١٤.

(٤) المصدر ذاته، ص ٦١٥.

(٥) **محيط المحيط** ج١ ص ٤.

(٦) **لغة العرب** ج٥ (١٩٢٧) ص ٦١٦.

(٧) المصدر ذاته.

فيه إلاّ وبيده حقة المغناطيس لكي لا يتيه سواء السبيل»[1]. واقترح القيام بحرق الكتاب لكثرة ما فيه من الأغلاط[2].

قطر المحيط. بيروت، ١٨٦٩.

اختصر المعلم بطرس البستاني كتابه **محيط المحيط** بوضع كتاب آخر سماه **قطر المحيط** لأن نسبته إلى كتابه المطول «توشك أن تكون كنسبة قطر الدائرة إلى محيطها»[3]، واضعاً نصب عينيه أنه يؤلف معجماً مختصراً للطلبة يسد حاجاتهم من المفردات، ويسهل عليهم الرجوع إليه، ويكون على مستوى مناهجهم الدراسية. أشار في مقدمة الكتاب إلى الدوافع التي حفزته للقيام بعمله هذا قائلاً بعد حمد الله «الذي أنطق العرب بأفصح الكلمات وجعل العربية شامة في وجنة اللغات، أما بعد، فلما كان إحياء اللغة العربية التي هشمتها أيادي الزمان وحالت دون نور محياها الساطع ودون أهلها براقع الهجر والجهل والنسيان فَرْضاً على كل من نطق بالضاد، وكان أمر تحصيلها وتسهيل أسبابه من مرغوبات من اتصف بالحماسة الوطنية والحمية العربية، رأينا أن نضع فيها هذا المؤلف على وجه هيّن المراس، سهل المأخذ، ليكون للطلبة مصباحاً يكشف لهم عما اشكل عليهم من مفردات اللغة التي معرفتها عند المحققين هي نصف العلم، لأن إفادة العلم واستفادته تتوقفان عليها»[4]. أهداه إلى «الخديوي الأعظم سعيد باشا أحديّ الأحد والتاج الفرد على هامة الأمة العربية» وجعله كهدية «تذكّر على الدوام أبناء الوطن فضل دولته وفضل تلك السلالة المأمونية الشريفة على العصابة العربية بإحياء الآداب والمعارف وانتشار وسائط التقدم من القديمة والحديثة بين خاصتهم وعامتهم»[5].

اتبع البستاني في كتابه «قطر المحيط» نفس الأسلوب ونفس المنهج اللذين كان

---

(١) المصدر ذاته، ص ١٧١.

(٢) راجع أيضاً: «نقد صفحة من البستان»، لغة العرب ج٦ (١٩٢٨) ص ٦٨ ـ ٧٣، و«الشيخ عبد الله البستاني ولغتنا». لغة العرب ج٦ (١٩٢٨) ص ١٢٨ ـ ١٣٦، و«البستان» نسخة ثانية لمحيط المحيط. مجلة المجمع العلمي العربي ج١٤ (١٩٣٦) ص ١٢٧ ـ ١٤٠.

(٣) بطرس البستاني، قطر المحيط، بيروت، ١٨٦٩. المقدمة.

(٤) المصدر ذاته.

(٥) المصدر ذاته.

قد اتبعهما في كتابه «محيط المحيط»، إلاّ إنه أوجز في تعريفات مواده وتصرف وزاد في بعض المواد، فلا يوجد كبير فرق بينهما من حيث قلة المواد وكثرتها «وإنما وجه الخلاف الوحيد في المادة نفسها: إذ حذف جزءاً كبيراً منها وزاد في بعضها، وتصرف في بعضها. فحذف بعض ما صدره في الأبواب عن الحروف، وبعض المعاني والصيغ والصفات والمواد والمصطلحات والألقاب وأسماء الفرق والعامي والشواهد من القرآن والشعر والنثر، وبعض الاشارات إلى اللغات والمعرب وأصله، وبعض تعليلات الأسماء وتكرير الفعل مع معانيه المختلفة وإحالات الألفاظ إلى مواضعها الصحيحة، وأجزاء من التفسيرات قد تكون ضرورية في بعض الأحيان. وكان كثير مما حذفه من زياداته التي أضافها في المحيط على القاموس. أما ما زاده فقليل جداً لا يكاد يتعدى بعض المشتقات القريبة كمضارع الفعل الماضي أو مصدره أو ما قارب ذلك. وأما ما تصرف فيه فيكاد يعادل زياداته في القلة، ونجملها في تغيير ترتيب بعض الألفاظ في المادة، أو تغيير كلمة بأخرى»[1].

هنالك دراسة تدور حول المعجم العربي، نشأته وتطوره للدكتور حسين نصار[2] تأتي على ذكر معجمي البستاني محيط المحيط وقطر المحيط وتعتبرهما ضمن مجموعة معاجم اليسوعيين. يذكر صاحب هذه الدراسة خطأ أن «أول معجم أنتجه اليسوعيون هو محيط المحيط لبطرس البستاني»[3] مع أن التباين واضح جلي بين غاية البستاني من وضع معجمه وغرض اليسوعيين من وضع معاجمهم. يذكر سعيد الشرتوني الذي كُلف من قبل اليسوعيين القيام بإعداد معجمه أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد أن المرسلين اليسوعيين جُذبوا بحب اللغة العربية الشريفة «وعرفان مرتبتها المنيفة، مع أجنبيتهم عنها، إلى أن يفرضوا تعليمها في مدارسهم. وذلك ليأتي الطالب على اللغة، ولو مرة في الطلب، فتتعرف المعاني في ذهنه إلى ما يليق بها من الألفاظ ويتمرس بأساليب اللغويين، وتتراءى له بلاغة كلامهم... فتفقدوا المعروف من كتب اللغة،

---

(١) حسين نصار. المعجم العربي: نشأته وتطوره. القاهرة، دار الكتاب العربي بمصر ١٩٥٦ ص ٦٧٩.

(٢) هي رسالة أعدها سنة ١٩٥٣ بكلية الآداب بجامعة القاهرة لنيل درجة الدكتوراه في الأدب من قسم اللغة العربية.

(٣) المعجم العربي، ص ٦٧٥.

فلم يجدوا منها كتاباً يواجه مقصودهم ويشايع مرادهم، وذلك لالتزام المؤلفين ذكر ألفاظ السوءات وما يتعلق بها، سداً للحاجة ووفاء بحق اللغة. ومثل تلك الألفاظ مما حظر المرسلون المشار إليهم ادخاله في كتب المتعلمين. فتفقدوا هذا القاصر على تأليف معجم محذوف ألفاظ السوءات وما يضاف إليها من الألفاظ المبذؤة رعاية لحرمة الأدب. هذا جل الغرض من وضع هذا الكتاب»[1]. وبما أن البستاني التزم في معجميه **محيط المحيط وقطر المحيط**، أسوة فيمن سبقه من علماء اللغة كابن سيده في **المحكم**، وابن منظور في **لسان العرب**، والجوهري في **الصحاح**، والفيروزابادي في **قاموس المحيط**، أن يذكر ألفاظ الرفث والعورات والسوءات وتحدث عن التناسل في المرأة والرجل بوجه عام، كما أورد المواد: الباه، بظر، بعط، الجماع، الحشفة، خجأ، الدبر، ذلغ، الذكر، رفث، زنى، الزوال، سفلج، شغر، طمث، العورة، الفجور، الفرج، الفسق، القناف، قبل، نكح، لعج، نبنب، وطىء، لذلك وجد اليسوعيون أن كتابيه لا يواجهان مقصودهم ولا يشايعان مرادهم فوضعوا معاجمهم معترفين له بالفضل وذكروا أنهم تأثروا به ومشوا على خطاه. ولم ينفرد اليسوعيون باتباع فكرة حذف ألفاظ السوءات من معاجعهم بل ان أصحاب المطبعة الأميركية التابعة للإرسالية الأميركانية[2] في بيروت جاروهم في ذلك. يذكر مدير المطبعة الأميركانية بولس أرضمن في مقدمة معجم البستان أن المطبعة كانت ترغب في إعادة طبع معجم **محيط المحيط** بعد «حذف وتنسيق تسهيلاً للوصول إلى المرام من أقرب طريق»[3] إلاّ إنها عدلت عن فكرتها هذه وكلفت الشيخ عبد الله البستاني ليضع لها «معجماً مطولاً خالياً من الألفاظ البذيئة والكلام الحوشي المهجور»[4]. مع العلم أن المعلم بطرس البستاني عني في معجميه بتصوير الأمور الجنسية عناية محمودة وتحدث عنها بطريقة تفرضها المعرفة العلمية وتحتمها ضرورة الالمام بها، ولم يخرج على حدود اللياقة الأدبية، ولم يكن في شرحه لهذه المواد سافراً في إثارة الغرائز والتنبيه على النواحي الجنسية بل امتاز أنه استطاع أن يشرح هذه الألفاظ بعبارات سهلة يقبلها

---

(١) سعيد الشرتوني. **أقرب الموارد في فصح العربية والشوارد**. بيروت، ١٨٨٩. ص ٨.
(٢) كانت تدعى «الإرسالية السورية» قبل سنة ١٩٢٠.
(٣) عبد الله البستاني، **البستان**. بيروت، المطبعة الأميركانية، ١٩٣٠ ص ٣.
(٤) المصدر ذاته.

الذوق السليم وذلك تمشياً مع المبادىء الأخلاقية التي كان يدين بها. لقد حدد، في مقدمة كتابه دائرة المعارف المنهج الذي اتبعه تجاه هذه الأمور قائلاً: إننا قد تجنبنا كل ما هو من قبيل الخلاعة وما يمجه السمع أو يخل بالآداب حتى التزمنا في بعض المواقع أن نهذب ما كان من هذا القبيل أو نحذفه مع الإشارة إليه»[1]. ولا شك أنه قد أتبع المنهج ذاته في معجميه محيط المحيط وقطر المحيط. ولعل المعلم بطرس البستاني، بهذا الصدد، هو من أوائل القائلين بوجوب الانتباه «إلى تنظيف دواوين العرب وكتاباتهم ومجالسهم مما لا يليق من الكلام والأعمال»[2].

دائرة المعارف

رأى المعلم بطرس البستاني بأم عينه، بعد خبرة طويلة في حقلي الترجمة والتأليف، أن الاختلاف السائد لمعاني الألفاظ العربية بين الناطقين بالضاد كان عقبة كأداء في سبيل تعميم هذه اللغة في البلدان العربية ولذلك اهتم بكل ما أوتي من جلد ومثابرة لإخراج معجميه محيط المحيط وقطر المحيط إلى حيز الوجود. وكان عمله هذا توطئة لتأليف موسوعته العربية دائرة المعارف[3]. يوافقه على هذا الرأي الاستاذ كارلو أ. نللينو (Carlo A. Nellino)، أحد الأعضاء البارزين في لجنة دائرة المعارف الإيطالية وأحد مشاهير المستشرقين وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة وأستاذ الدراسات الشرقية في جامعة رومة. يقول الاستاذ نللينو في أجابته على سؤال طرح عليه سنة ١٩٣٦ حول ما إذا كان بالإمكان تحقيق وضع موسوعة عربية، على أن الخطوة الأولى في سبيل اعداد موسوعة عربية يجب أن تبدأ بوضع معجم لغوي وذلك

---

(١) دائرة المعارف ج١ ص ٤.

(٢) التحفة البستانية في الأسفار الكيروزية. ترجمة بطرس البستاني. بيروت، مطبعة المعارف، طبعة ثانية، ١٨٨٥، المقدمة.

(٣) وضع البستاني تعبير «دائرة المعارف» ترجمة للفظ الأجنبي فعرف به كتابه وكل كتاب من جنسه، واختار الشيخ إبراهيم اليازجي اسم «موسوعات» لهذا النوع من التآليف (انظر الطبيب ١٨٨٤ - ١٨٨٥ ص ٣٣٠)، واقترح الأب انستاس ماري الكرملي لفظة «معلمة» لمثل هذا النوع من التآليف (انظر دار السلام ج١ (١٩٢٢) ص ٣٣)، ووافق أحمد تيمور على تسمية هذا النوع من التآليف بال «معلمة». انظر مجلة المجمع العلمي العربي ج٣ (١٩٢٣) ص ٥٦ - ٥٨، و١١٦ - ١٢١.

لأن «التمسك بالعرف في كل إقليم من الأقاليم الإسلامية جعل هناك اختلافاً كبيراً بين كثير من الألفاظ ومدلولاتها. وهذا الاختلاف يحتاج إلى التغلب عليه ومحوه بتوحيد الاصطلاحات في هذه الأقاليم، ووضع معجم لغوي يكون مرجعاً لجميع الناطقين باللغة العربية حتى تكون الموسوعة عربية عامة»[١].

عرّف البستاني كلمة «انسكلوبيذيا» بأنها: «لفظة يونانية معناها دائرة التعليم. وهي في الأصل اسم لمجموع الفنون والعلوم التعليمية السبعة التي كان أعيان الناس يتعلمونها في القديم وهي: الغراماتيق، والحساب، والهندسة، والموسيقى، والهيئة، والمنطق، والبيان... أما كلمة انسكلوبيذيا في أيامنا هذه (١٨٨٠) فمعناها ملخص المعرفة البشرية، إما في باب واحد أو في الأبواب كلها. وهي إما أن تكون مرتبة ترتيباً قاموسياً موافقاً للارتباط المنطقي بين المواضيع أو ترتيباً قاموسياً موافقاً لنظام الأحرف الهجائية. ولذلك كانت الانسكلوبيذيا على نوعين خاصة أو عامة، نظامية بحسب المواضيع أو قاموسية بحسب الأحرف»[٢]، وهي بذلك دائرة المعارف التي تعني «الكتاب الجامع لكل شيء» أو قاموس عام للمعارف «من جغرافية وتاريخية وعلمية وصناعية وسياسية وأدبية»[٣]، وهذا النوع من التآليف يعرف عند الغربيين بأنه «من أسباب المنافع العمومية التي تبسط أمام المطالع كل علم ومعرفة وفن وصناعة وحكمة بل كل ما في العالم من المطالب والمعارف المهمة بحيث يستغنى بها عن مئات من الكتب وتفتح الأبواب لجميع ما ذكر مع سهولة مراس وقرب مأخذ حتى أن كل شعب متمدن قد أدخل تلك المؤلفات في لغته وزان جيد مكتبتها بقلائدها»[٤]. ولما كان لا بد لأهل اللغة العربية من الحصول على تلك المنافع لترقية «أسباب التمدن والثروة والرفاهية والعلوم والمعارف في ربوعهم لكي ينخرطوا في سلك من نهج هذا المنهج من معاصريهم» وبصورة خاصة بعد أن كثرت الجرائد والكتب المؤلفة عندهم وأدركوا

---

(١) «الموسوعة العربية: هل يمكن تحقيقها». الهلال ج٤٤ (١٩٣٦) ص ٧٣٦ ـ ٧٣٨.

(٢) «انسكلوبيذيا»، دائرة المعارف، بيروت، مطبعة المعارف، ١٨٨٠، ج٤ ص ٥٠٠ ـ ٥٠١، راجع أيضاً كلمة Encylopedia في *Encylopedia Americana* لقد ترجم البستاني هذه النبذة بحذافيرها عن طبعة ١٨٧٦، وأضاف عليها ما يتعلق بالانسكلوبيديات الشرقية.

(٣) دائرة المعارف، بيروت، مطبعة المعارف، ج١ (١٨٧٦) ص ٥.

(٤) المصدر ذاته، ص ٢.

أنهم في افتقار كلي إلى تحسين كل عمل من أعمالهم واتقانه لمجاروتهم البلدان الآخذة بشآبيب التمدن الحديث. ونتيجة لافتقار أبناء وطنه إلى «معارف هذا الزمان وأسباب اتقان زراعته وصناعته وتجارته وهلم جرا مما هو من أسباب النجاح والثروة»[1] خطر للمعلم بطرس البستاني أن يؤلف «انسكلوبيذيا عربية تقوم بسد هذه الاحتياجات المتعددة»[2]. وعدد أسباباً خمسة حفزت عزيمته للقيام باعداد دائرة معارفه:

«أولاً: طالما سمعنا أبناء اللغة العربية يقولون انهم في احتياج إلى كتب في لغتهم. فإن كتبها القديمة غير محتوية على ما جدّ من معارف هذا العصر واكتشافاته واختراعاته وغرائبه وعجائبه والكتب الجديدة نادرة الوجود فيها وقاصرة عن المطلوب.

ثانياً: إذا أخذ العرب في تأليف الكتب المستوفية لكل فنّ لا يدركون المقصود إلاّ بعد زمان طويل ولا يكون ذلك عمومياً أي أنه يكون مكتوباً بلغة تفهمها الخاصة دون العامة.

ثالثاً: إنه لا يقدر كل ذي ذوق أن يبذل مالاً كافياً ليشتري الكتب التي تمكنه من معرفة حقيقة كل شيء يخطر له ببال أو يراه في الطبيعة أو في الكتب فضلاً عن أنه ليس لتلك الكتب وجود في اللغة العربية في هذا الزمان.

رابعاً: إن الإفرنج قد سهلوا الحصول على تلك الفوائد مع وجود كتب كل المعارف عندهم ورخص أثمانها وذلك بواسطة الكتاب المعروف عندهم بالانسكلوبيذيا وهو قاموس عام لكل شيء ومطلب.

خامساً: إن احتياجنا إلى هذا الكتاب الجامع لكل شيء هو أشد كثيراً من احتياجهم لأن عندهم كتباً مستوفية لكل باب على حدة ومكاتب متسعة ولذلك قد عزمنا بحوله تعالى على أن ننشىء في اللغة العربية كتاباً كذلك الكتاب «انسكلوبيذيا» Encyclopedia[3].

---

(١) المصدر ذاته، ج١ (١٨٧٦) ص ٢.

(٢) المصدر ذاته.

(٣) «اعلان الكوثر»، الصادر بتاريخ أول أيار سنة ١٨٧٤ ص ١.

وذكر أن كتابه الجديد هذا «عام لكل شيء ما عدا اللغة»[١] وبذلك يختلف عن كتابه **محيط المحيط** الذي يتعلق باللغة فقط، ويختلف أيضاً عن كتاب **آثار الأدهار**[٢] الذي ينحصر بأسماء الأشخاص والأماكن المشهورة بصورة مختصرة، بينما يشمل كتاب **دائرة المعارف** كل ذلك «بالتفصيل والاستيفاء مع سائر ما في الكون من الماديات وغيرها»[٣] ولا يختص بفئة معينة من الناس بل هو عام للجميع «من رجال السياسة، وأرباب التجارة والصناعة والزراعة والطب والصيدلة، وخَدَمة الدين على اختلافها، والعلماء في كل فن وعلم، والملاحين، وهلم جرا»[٤].

اختار البستاني «الكوثر» إسماً لكتابه «لما بينه وبين الكوثر من المطابقة»[٥] كما جاء في الإعلان عن الكتاب الصادر بتاريخ أول أيار سنة ١٨٧٤. ولكن أُخذ عليه «أن هذا الاسم خاص بمعنى ديني[٦] وهو محظور أن يستعمل لمثل هذا الكتاب»[٧]. وبما أنه جعل أساس تأليف هذا الكتاب «خلو الغرض من كل وجه والابتعاد عن التحزبات بحيث يكون كتاباً عمومياً لكل الملل والمذاهب يستفيد منه من لا كتاب له كما يستفيد منه صاحب الكتاب»[٨] إضطر أن يتخلى عن فكرته الأولى وسماه «دائرة المعارف». لقد أورد في معجمه «**محيط المحيط**» جميع المعاني التي ذكرتها معاجم اللغة العربية للفظة «الكوثر»[٩] وأضاف عليها المعنى التالي: «وفي الكليات كل كثير في العدد أو كبير القدر والخطر فإن العرب تسميه كوثراً»[١٠]، ولعله عندما اختار «الكوثر» إسماً

---

(١) المصدر ذاته، ص ١. «لأن اللغة مفتقرة إلى قاموس لا يكون مقصوراً على الاعلام بل يحتوي كل فن ومطلب» «المرحوم المعلم بطرس البستاني» **المقتطف** ج٨ (٨٨٣) ص ٣.

(٢) لمؤلفيه سليم جبرائيل الخوري وسليم ميخائيل شحادة. بيروت، ١٨٧٥.

(٣) «اعلان الكوثر»، ص ١.

(٤) المصدر ذاته.

(٥) المصدر ذاته.

(٦) الإسلام والنبوة أو القرآن والنبوة.

(٧) جرجي صفا، «دائرة المعارف العربية». **الكلية** ج١٦ (١٩٣٠) ص ٣٩٦.

(٨) **دائرة المعارف**، ج١ ص ٤.

(٩) الخير الكثير، الكثير من كل شيء، الرجل الخير المعطاء، نهر في الجنة، الإسلام والنبوة، القرآن والنبوة، راجع أيضاً: **لسان العرب** ج٥ ص ١٣٣، **وتاج العروس**، ج٣ ص ٥١٦ ـ ٥١٧.

(١٠) **محيط المحيط** ج٢ ص ١٨٥٢.

لكتابه كان يقصد هذا المعنى بالذات لإيمانه بقدر كتابه وأهميته. ويستدل من «إعلان الكوثر» أنه لم يكن يقصد بذلك المعنى الديني بل أنه قصد به نهر جنات المعارف كما جاء في بيتي الشعر اللذين أوردهما قائلاً:[1]

هـذا كتـاب قـد أفـاض لعصـرنـا   من كل ما حوت البرية أنهرا
يجـري بجنـات المعـارف صـافيـاً   فدعوته طبق المسمى الكوثرا

وأضاف بأنه سماه «بالكوثر لما بينه وبين الكوثر من المطابقة فجاء إسماً على مسمى»[2].

محتويات كتاب دائرة المعارف

إن كتاب دائرة المعارف يحتوي على كل ما تصبو إليه النفس ويغني مقتنيه عن مكتبة كبيرة، على حد قول مؤلفه. وعدّد في «اعلان الكوثر» محتوياته بالاختصار كما يلي[3]:

أولاً: أسماء جميع الملوك ومشاهير الرجال القدماء وأكثر الحديثين مع أشهر أعمالهم وتواريخ حياتهم والملحوظات على ذلك مع ذكر أعلام الآدميين والأماكن المدرجة في الكتب المنزلة وفي كتب العرب الشعرية وغيرها والكتب الإفرنجية.

ثانياً: كل البلدان وطبائعها وتجاراتها وصنائعها وعدد سكانها وتواريخها وحدودها ومناخها وتربتها ومزروعاتها وحيواناتها وحشراتها ونباتاتها وفلاحتها ومعارفها وماليتها ومدارسها ولغاتها وعاداتها وأديانها وكل متعلقاتها وتفرعاتها.

ثالثاً: بحار الدنيا وأنهرها وجبالها ووديانها وسهولها وخلجانها ومضيقاتها وكهوفها ورؤوسها وجزائرها ومناطقها وترعها وجسورها وطرقها الحديدية وجبال النار فيها وكل شيء متعلق بها إذا كان مهما أو غير مهم كلاً بأسمه. فإذا أردت معرفة بحر قزوين مثلاً تفتح في هذا الكتاب حرف «القاف» فترى هناك مطلوبك.

رابعاً: أسماء أشهر الحيوانات والأسماك والطيور والحشرات وصفاتها وطبائعها وخصائصها وتواريخها فإن أردت أن تعرف ما هي الزرافة مثلاً فأطلب ذلك في حرف «الزاي».

---

(١) «اعلان الكوثر»، ص ٤.
(٢) المصدر ذاته، ص ١.
(٣) المصدر ذاته، ص ١ ـ ٣.

خامساً: كل أجناس البشر وتواريخها وصفاتها وهيئاتها والمناطق التي تقطنها وعماراتها وأديانها فإن أردت أن تعرف الجنس القوقاسي فأطلب حرف «القاف» أو الهندي فأطلب حرف «الهاء».

سادساً: أسماء كل الأمم منذ ابتداء التواريخ إلى الآن مع أعدادها وأديانها وبلادها وعاداتها وصفاتها وانتقالاتها وملابسها ولغاتها وغزواتها وانتصاراتها وانكساراتها وكل متعلقاتها الزراعية والعلمية والصناعية والتجارية والأدبية والحربية مع تقلباتها وتقدمها وتأخرها وكل ما له بها علاقة مهمة أو غير مهمة فإن أردت أن تعرف العرب فأطلب ذلك في حرف «العين» أو التتر فاطلب ذلك في حرف «التاء» أو الروسيين فأطلب ذلك في حرف «الراء».

سابعاً: أسماء كل دول العالم ومساحة أملاكها وحدودها ونظاماتها ووزاراتها وترتيب جيشها وبحريتها وعدليتها وزراعتها وعدد قواتها من جميع الأنواع وأسماء ملوكها وعائلتهم وولاياتها ومداخيلها ومصاريفها وديونها وعاداتها وكل ما يتعلق بها من كلي وجزئي فإن أردت أن تعرف حالة الدولة العثمانية فأطلب ذلك في باب «العين»، أو الانكليزية تطلب ذلك في باب «الألف»، أو الصينية تطلب ذلك في حرف «الصاد».

ثامناً: أسماء كل العيال المشهورة الملكية والغير الملكية وتواريخها وأسباب شهرتها وكل متعلقاتها مع أنسابها ومداخيلها وحقوقها فإن شئت أن تعرف عائلة استوار تطلب ذلك في حرف «الألف»، أو البوريون فأطلب ذلك في حرف «الباء»، أو الشهابيين فأطلب ذلك في حرف «الشين».

تاسعاً: أسماء العناصر الطبيعية والعقاقير وخصائصها ومنافعها وكل متعلقاتها فإن شئت أن تعرف الهواء أو الماء أو الرصاص أو الذهب أو الكينا تطلب ذلك في باب الحرف الأول من كل منها.

عاشراً: ذكر الحرارة والبرودة والشتاء والنار والرياح والزوابع والصواعق والشفق الشمالي والغسق والجبال النارية وكل شيء متعلق بذلك مع تواريخه وصفاته ومتعلقاته فإن أردت أن تعرف أسباب الشتاء ومتعلقاته فأطلب ذلك في حرف «الشين».

حادي عشر: عند ذكر المدن والجبال والبحار وغيرها نذكر تقلباتها الحربية والطبيعية فإن قلبت بالزلازل أو غرقت بالطوفان أو حرقت بالنار ترى لذلك ذكراً على

حدته وكذلك أعظم تأثيرات الزلازل وأشهرها فأطلب الزلازل في باب «الزاي»، والعواصف في باب «العين».

ثاني عشر: ذكر كل الصنائع ومخترعيها ومتعلقاتها وكيفياتها، فأطلب صناعة النسج في باب «النون»، والدبغ في باب «الدال»، والصبغ في باب «الصاد»، فتعرف كيفية العمل والأجزاء اللازمة والآلات فتستغني عن معلم مع تكرار التجارب.

ثالث عشر: ذكر كل الاختراعات والاكتشافات مع أسماء المخترعين والمكتشفين وتواريخها والبلدان التي اكتشفت واخترعت فيها مع وصفها فإن شئت أن تعرف اختراع الطباعة فأطلب ذلك في باب «الطاء»، والبخار فأطلب ذلك في باب «الباء»، والتلغراف في باب «التاء»، ويكون كذلك فيها أسماء الآلات الموسيقية ومتعلقاتها.

رابع عشر: ذكر الألعاب القديمة والجديدة وتواريخها ومخترعيها وغير ذلك فأطلب الرقص في باب «الراء»، والشطرنج في باب «الشين»، والروايات في باب «الراء»، وهلم جرا.

خامس عشر: ذكر الحروب العظيمة والحصارات المهمة براً وبحراً مع كل متعلقاتها ونتائجها. فأطلب حرب واطرلو في باب «الواو»، ويوم بدر في باب «الباء».

سادس عشر: ذكر الأديان والمذاهب كلها مع أصولها وكتبها وعاداتها والأمم التابعة لها وعددهم وملابسهم وغير ذلك فأطلب البوذيين في باب «الباء»، والإسرائيليين والإسلام في باب «الألف»، والمسيحيين في باب «الميم»، والحنفيين في باب «الحاء»، والدروز في باب «الدال»، والكاثوليك في باب «الكاف»، والموارنة في باب «الميم».

سابع عشر: ذكر كل الأدبيات والعلوم والأمثال واللغات وكل متعلقاتها من القبح والبخل والعلم والفضيلة والشر وكل شيء أدبي وتاريخي وأصله ونفعه وهلم جرا، فأطلب الحسن في باب «الحاء»، والشنق في باب «الشين»، والذنب في باب «الذال»، والفضيلة في باب «الفاء»، والنوم في باب «النون»، والاستحمام وأمثال العرب في باب «الألف»، واللبس في باب «اللام»، والتوراة في باب «التاء»، والقرآن في باب «القاف»، والكتابة في باب «الكاف»، والحرب في باب «الحاء»، والسلم في باب «السين»، والعهود في باب «العين»، مع كل ما يخطر للإنسان ببال من كلي وجزئي.

ثامن عشر: ذكر كل العلوم والفنون والمعارف والمدارس والتآليف وتواريخها ومشاهير مؤلفيها ووصفها وتعريفها وأصولها فإن شئت أن تعرف ما هو الفقه فاطلب

ذلك في باب «الفاء»، والنحو في باب «النون»، والحساب في باب «الحاء»، والجبر والجغرافية في باب «الجيم»، والطب في باب «الطاء»، والتوفير في باب «التاء»، والزراعة في باب «الزاي»، والسحر في باب «السين»، والتنجيم في باب «التاء»، وبالجملة لا يترك فنّ ولا علم ولا شيء بدون ذكره ذكراً مفصلاً مستوفياً.

تاسع عشر: للاختصار نقول إنه لا يترك شيئاً من عالم الحيوان ولا عالم النبات ولا المعادن ولا غير ذلك مما في الأفلاك والهواء والأرض والماء وتحت الأرض من المصنوعات والمعقولات أو الأدبيات فهذا كنز للإنسان باقتنائه يضع أمامه العالم فيعرف كل ما فيه في لحظة بالعقل وليس بالوهم. فهو إنجاز لوعدنا في آخر كتابنا **محيط المحيط** بافراد كتاب للاعلام أي أسماء الأشخاص والأمكنة وزيادة جسيمة كما ترى. وهو يبتدي من أول الخليقة وينتهي إلى أيامنا فهو والحالة هذه مكتبة المكاتب فعلى الله المتكل وبه المستعان فهو حسبنا ونعم الوكيل». وفي مقدمة الجزء الأول من دائرة المعارف قال إنها تتضمن بالإجمال:[1]

«أولاً العلوم الإلهية والفلسفية كعلم الكلام والفلسفة وفروعها. ثانياً العلوم المدنية والسياسية كالفقه والنظامات المدنية والحقوق الطبيعية والقانونية والعمومية والتجارية والجنائية، والتوفيرات السياسية والتربية. ثالثاً العلوم التاريخية كالجغرافية بفروعها وعلم التاريخ القديم والكنائسي والحديث وعلم الآثار والميثولوجيا اليونانية وغيرها من الخرافات القديمة. رابعاً العلوم التعليمية كالحساب والجبر والهندسة وفروعها. خامساً العلوم الآلية والكيماوية كالفلسفة الطبيعية وعلم الهيئة أو الفلك والكيمياء وفروع ذلك. سادساً العلوم الطبيعية كعلم طبقات الأرض والمعادن والنبات والإنسان والحيوان والطب وفروعها. سابعاً علم الأدب كعلم اللغة والفصاحة والبيان والشعر والإنشاء والتاريخ الأدبي وما يتعلق بذلك. ثامناً الصنائع والفنون كالاكتشافات وفن البناء والتصوير والموسيقى والحراثة والزراعة والصيد واستخراج المعادن والمطابع واصطناع الآلات والتجارة والأوزان والقياسات والمسكوكات، وهلم جرا». ولزيادة الإيضاح أضاف قائلاً إنها تتكلم[2]:

«عن الكواكب السيارة والثابتة والبروج والمنازل وذوات الأذناب والشهب.

---

(١) **دائرة المعارف**، ج١ ص ٥.

(٢) المصدر ذاته.

والعناصر وما يتعلق بها كالحرارة والبرودة والحوادث الجوية كالشفق والبرق والرعد والمطر والصواعق. والمواليد الثلاثة أي الحيوان والنبات والمعدن وما يتعلق بذلك والعقاقير وصفاتها ومنافعها ومضارها وما يتعلق بها. ووصف طبقات الأرض وحوادثها كالزلازل والبراكين أي الجبال النارية. ووصف الكرة الأرضية من تخطيط بلدانها ووصف طبائعها وتجارتها وعدد سكانها وتاريخها وحدودها وهوائها وتربتها ومزروعاتها وحيواناتها ونباتاتها ومعادنها ومعارفها وماليتها ومدارسها ولغاتها. ووصف بحار الدنيا وأنهارها وجبالها وأوديتها وخلجانها وبحيراتها ومضيقاتها وكهوفها وجزائرها ومناطقها وترعها وجسورها وطرقها الحديدية. وذِكْر الإنسان وما يتعلق به كمشاهير الرجال والنساء من قدماء ومعاصرين وأشهر أعمالهم وتواريخ حياتهم والمؤلفين منهم ومؤلفاتهم. والطوائف من كل الأجناس وما يتعلق بهم. وأسماء كل الأمم منذ ابتداء التواريخ إلى الآن مع تواريخ أعمالها وحروبها وعوائدها وملابسها وغير ذلك من متعلقاتها. وكل دول العالم وأملاكها ونظاماتها ووزارتها وجيوشها وقواتها العسكرية وقوانينها ومداخيلها ومصاريفها. وكل العيال المشهورة وتواريخها وأسباب شهرتها وأنسابها وحقوقها. وذكر الحروب وأسبابها ومواقعها وما يتعلق بها. وذكر الأديان والمذاهب بأصولها وفروعها وكتبها وأعتقاداتها. وذكر ما يتعلق بالأدب كفروع العلوم واصطلاحاتها واختلافاتها بين الأمم وما يتعلق بها. والأوصاف الغريزية كالحسن والقبح والكرم والبخل والفضيلة والرذيلة. وذكر المدارس وهيئاتها. والتآليف والمشهورين بشيء منها وما شاكلها بصفاتها والفنون المتعلقة بها. وذكر الصنائع بأقسامها وفروعها ومخترعيها والاكتشافات فيها وكيفية العمل بها والأجزاء والمواد اللازمة لها وما شاكل ذلك. وفوق كل ذلك قد تحرّينا أن نزينها بكثير من صور مشاهير الرجال والأماكن والحيوانات والنباتات والآلات العلمية والصناعية. فهي والحالة هذه قاموس عام للمعارف من جغرافية وتاريخية وعلمية وصناعية وسياسية وأدبية يحتوي على كل ما تصبو إليه النفس ويغني مقتنيه عن مكتبة كبيرة».

وإيماناً منه بأن التآليف العامة «الانسكلوبيذيات»، وكتابه دائرة المعارف منها، هي مفتاح المعارف العام ومصباحها المنير في عصر لا ثروة فيه ولا تمدن ولا تقدم إلا باكتساب المعارف[1] وضع على صفحة العنوان شعاراً لكتابه البيتين التاليين من الشعر:

---

(١) الجنان ج١١(١٨٨٠) ص ٧٤٨.

هذا كتاب قد أتى في عصرنا بمعارف مثل البحار الزاخرة
عمت فوائده فكان به الغنى إذ كل شيء صار ضمن الدائرة

المصادر والمراجع المعول عليها والأشخاص المساعدين

ذكر المعلم بطرس البستاني في الاعلان عن «الكوثر» أو كتاب دائرة المعارف، أنه سيعتمد في تأليف كتابه هذا على «الانسكلوبيذيات» الحديثة من إنكليزية وأميركية وفرنسية بالإضافة إلى الاعتماد على أشهر مؤلفات العرب والإفرنج وغيرهم في الأبواب المختلفة التي سيدرجها فيه «مع ذكر أمور كثيرة مما لا ذكر له في كتب العرب والإفرنج كحقائق بعض الأسماء والمواد إلى غير ذلك، والتوسيع يكون بحسب المقام والأهمية»[١]. وكتب إلى عدد من المؤسسات العلمية في جهات مختلفة فوردت إليه «الفوائد المحققة عن مصادر يوثق بها ويركن إليها في أمور كثيرة»[٢]. أما الأشياء التي لم تتوفر له الوسائط للتحقيق عليها مشاهدة أو بالمكاتبة فقد اكتفى فيها بالوقوف على كلام المؤلفين السابقين. وأدرج فيه «كل ما تصبو النفس إلى الوقوف عليه من أطايب أشعار العرب وترجمة بعض أشعار اليونان والسريان والإفرنج وما هناك من الحكم والأمثال»[٣] وذلك رغبة منه أن يكون تأليفه الجديد كتاب مطالعة كما هو كتاب مراجعة. أوضح في مقدمة الجزء الأول من كتاب دائرة المعارف أنه عوّل فعلاً في تأليف كتابه على مصادر ومراجع مختلفة «من تاريخية وجغرافية وعلمية ودينية وأدبية وسياسية، وهلم جرا، نقلاً وتلخيصاً وترجمة مع زيادات وإيضاحات وملاحظات اقتضاها المقام»[٤]. ويظهر من الاستشهادات التي أوردها في متن الكتاب أنه لخص أو نقل عن كتب المؤلفين التالين: إبن الأثير وإبن بطوطة، وإبن خلدون، وإبن خلكان، وإبن شاكر الكتبي، وإبن الشحنة، وإبن الوردي، والبلاذري، وحاجي خليفة، والدميري، والذهبي، والزمخشري، وطاش كبري زاده، والفيروزابادي، والقزويني، والمحبي، والمسعودي، والمقري، وياقوت الحموي، وغيرهم. واعتمد بعض الاعتماد على ترجمة مواد من كل من دائرة المعارف الفرنسية: انسكلوبيذيا القرن التاسع عشر

---

(١) «اعلان الكوثر»د ص ٤.
(٢) دائرة المعارف ج١ (١٨٧٦) ص ٤.
(٣) المصدر ذاته.
(٤) المصدر ذاته، ج١ ص ٤.

(طبعة ١٨٥٢)، ودائرة المعارف الانكليزية: انسكلوبيذيا بريتانيكا (طبعة ١٨٧٢)[١]. واعتمد كلياً على ترجمة كثير من أبواب كتابه ونسخ جميع الرسوم والصور من دائرة المعارف الأميركية (طبعة ١٨٧٦)[٢]. وجمع العديد من الأفادات من مجموعة الكتب النفيسة التي قدمها له الخديوي إسماعيل والتي كانت تحتوي على عدد وافر من مطبوعات مصر في القرن التاسع عشر[٣]. كما اعتمد على أصحاب الأقلام الذين يعتمد عليهم «من أصحاب المعارف داخل إدارة الدائرة وخارجها ممن لهم شهرة في علوم وفنون مخصوصة للوقوف على المواد قبل طبعها»[٤]. عُرف من هؤلاء الكتّاب كل من شاكر شقير، «أحد المساعدين في دائرة المعارف»[٥]، الذي اشتغل في دائرة المعارف مدة عشر سنوات متوالية «فانشأ لها الفصول المفيدة ونشر على صفحاتها كثيراً من المواد التي كان يترجمها من الانسكلوبيذيات الإفرنجية»[٦]، والسيد جمال الدين الأفغاني الذي كتب مقالة «البابية»[٧] والدكتور كرنيليوس فان ديك الذي كتب مقالتي: «دائرة»[٨] و«درجة»[٩]، والدكتور يوسف حجار الذي كتب المقالات الطبية المتعلقة «بالاستسقاء»[١٠]، والاسهال[١١] و«الالتهاب»[١٢]، وولده سليم الذي كان ساعده الأيمن في تأليف الأجزاء الستة الأولى والذي انفرد بعد وفاة والده في تأليف الجزء

---

(١) «انسكلوبيذيا»، دائرة المعارف، ج٤ (١٨٨٠) ص ٥٠٢.

(٢) المصدر ذاته، ص ٥٠١. وصف دائرة المعارف الأميركية بأنها من أحسن وأحدث الانسكلوبيذيات وقال: «وقد اعتمدنا عليها وعلى صورها في كثير من الأبواب». المصدر ذاته.

(٣) دائرة المعارف ج١ ص ٣.

(٤) المصدر ذاته، ص ٤.

(٥) شاكر شقير، «إعلان مهم ـ القاموس الجديد». الجنان ج٩ (١٨٧٨) ص٧٧٦ ـ ٧٧٨. والمقتطف ج٣ (١٨٧٨) ص ٢٥٦.

(٦) فيليب دي طرازي. تاريخ الصحافة العربية. بيروت، المطبعة الأدبية، ١٩١٣، ج٢ ص ١٨٩.

(٧) جمال الدين الأفغاني. «البابية». دائرة المعارف ج٥ (١٨٨١) ص ٢٦ ـ ٢٨، والمنار ج٣ (١٩٠٠) ص ٥٧٣ ـ ٦٠١.

(٨) كرنيليوس فانديك. «دائرة». دائرة المعارف ج٧ (١٨٨٣) ص ٥٨٤ ـ ٥٨٩.

(٩) كرنيليوس فانديك. «درجة». دائرة المعارف ج٧ / ١٨٨٣) ص ٦٥٧ ـ ٦٥٨.

(١٠) يوسف حجار. «الاستسقاء». دائرة المعارف ج٣ (١٨٧٨) ص ٤٠٣ ـ ٤٠٨.

(١١) يوسف حجار. «الاسهال». دائرة المعارف ج٣ (١٨٧٨) ص ٦٤٦ ـ ٦٤٩.

(١٢) يوسف حجار. «الالتهاب». دائرة المعارف ج٤ (١٨٨٠) ص ٢٢٠ ـ ٢٣٤.

السابع واعداد الجزء الثامن للطبع، كما وضع الأحرف الأولى من اسمه «س. ب» .S.B «[١] تحت مقالتي «آلات»[٢] و«آيرغرافيا (Aerography) [٣] و «س. ب.»[٤] تحت مقالتي «آسيا»[٥] و«الأرض»[٦]. وخير مساعدة تلقتها دائرة المعارف ومكنتها من الخروج إلى حيز الوجود كانت على يد الخديوي إسماعيل باشا وحكومته في مصر، حيث بسط يد المساعدة والعون إلى هذا المشروع العظيم عندما عرضه عليه سليم البستاني[٧] سنة ١٨٧٥. وفضلاً عن الامدادات الأدبية والمعنوية التي قدمها الخديوي إسماعيل إلى دائرة المعارف فقد دفع للمعلم بطرس البستاني خمسة آلاف ليرة ذهبية عثمانية كدفعة أولى بدلاً عن الاشتراك بألف نسخة من دائرة المعارف[٨]، وذلك لأن الحكومة المصرية ارتاحت «أيما أرتياح إلى اقتناء هذا الكتاب شداً لأزر صاحبه أولاً، وجلباً للنفع إلى مدارسها ومكاتبها ومحافلها العلمية ثانياً»[٩]. وأعترف المعلم بطرس البستاني بحسن جميل ما منت به يد الخديوي إسماعيل من المساعدة والعون لكتابه

---

(١) هناك أربع مقالات: اثنتان بقلم س. ب. .S. B لم تنشرا بالجنان واثنتان بقلم س. ب. نشرتا بالجنان.

(٢) س. ب. .S. B «آلات»، دائرة المعارف ج١ (١٨٧٦) ص ١٥٩ ـ ١٦٤ هناك أيضاً احتمال أن يكون كاتبها سليمان البستاني.

(٣) س. ب. .S. B «آيرغرافيا». دائرة المعارف ج١ (١٨٧٦) ص ١٥٩ ـ ١٦٤ هناك أيضاً احتمال أن يكون كاتبها سليمان البستاني.

(٤) لا شك أن المقالتين التاليتين هما من قلم سليم البستاني لأنهما نشرتا بالجنان تحت اسمه.

(٥) س. ب. (سليم البستاني) «آسيا» ـ دائرة المعارف ج١ (١٨٧٦) ص ٧٨ ـ ١٠٣. والجنان ج٧ (١٨٧٦) ص ٤٨٤ ـ ٤٩٣.

(٦) س. ب. (سليم البستاني) «الأرض». دائرة المعارف ج٣ (١٨٧٨) ص ١٠٨ ـ ١٣٤. والجنان ج٨ (١٨٧٧) ص ٦٦٨ ـ ٦٧٤، ٧٠١ ـ ٧٠٩، ٧٣٤ ـ ٧٤٣، ٧٧٣ ـ ٧٨٠.

(٧) سليم خليل نقاش. فوائد الروايات أو «التياترات». الجنان ج٦ (١٨٧٥) ص ٥٢٢.

(٨) جرجي صفا. «دائرة معارف جديدة». الكلية ج١٦ (١٩٣٠) ص ٣٩٧. ذكر أن المعلم بطرس البستاني لم يأت على ذكر ال ٥،٠٠٠ ليرة ذهبية عثمانية التي قبضها من الحكومة المصرية. كان ثمن الجزء ليرة ذهبية وهذا المبلغ هو بدل اشتراك ١٠٠٠ نسخة في الخمسة أجزاء الأولى من دائرة المعارف. ذكرت دائرة المعارف في مقدمة الجزء الأول ص ٣ أن الخديوي اشترك بِ ١٠٠٠ نسخة.

(٩) «المرحوم المعلم بطرس البستاني». المقتطف ج٨ (١٨٨٣) ص ٤. «دائرة المعارف»، دائرة المعارف ج٧ (١٨٨٣) ص ٥٩١.

الجديد قائلاً: «فلساننا وقلمنا قاصران عن تأدية فريضة الشكر عن هذه المنة على أن لسان حال هذا التأليف سيقوم بذلك في كل عصر ومكان ويذكّر أبناء اللغة على الدوام أن اتحافهم بكتاب هو ينبوع كل معرفة ناشيء عن تلك المساعدة. فنسأل الله تعالى أن يجزيه عنا وعن سائر أبناء لغتنا خيراً»[1]. هذا ما ذكر من فضل الحكومة المصرية في مقدمة الجزء الأول الذي صدر سنة ١٨٧٦ خلال حكم الخديوي إسماعيل في مصر، كما انه جدد الاعتراف بهذا الفضل في مقدمة الجزء الرابع الذي صدر سنة ١٨٨٠ خلال حكم الخديوي توفيق قائلاً بأن دائرة المعارف «تستقى على الدوام من ينابيع تتدفق من جود ذاته (الخديوي توفيق) العالية المزينة بأكمل الصفات»[2].

هيكل دائرة المعارف والخطة المعدة لاتمامها

إثر صدور الجزء الثاني من دائرة **المعارف** سنة ١٨٧٧، ظهر أن الوهم أخذ يساور بعض المشتركين بأن الدائرة ستكون حوالي ٣٠ جزءاً، مما دعا التنويه في مقدمة الجزء الثالث بأنها لن تتجاوز ال ١٦ جزءا[3]. ونظراً للشكوك العديدة التي أخذت تراود العديد من الذين لم تتح لهم الفرصة للوقوف إلاّ على ظواهر الأمور المتعلقة بدائرة المعارف والذين يخشون ألا يتمكن مؤلفها من أنجاز وعده في اتمامها أوضح المعلم بطرس البستاني لهم أن لا موجب لقلقهم لأن القائمين على هذا المشروع وضعوا، قبل البدء في تنفيذه، نصب أعينهم الحلول الجذرية لجميع الاحتمالات المرتقبة والتي تتلخص بما يلي: «أولاً: إن الأساس في الأعمال أصعبها، فأساس دائرة المعارف وهو ترتيب موادها من باب «الألف» إلى باب «الياء» قد تم مع الإشاررة إلى جميع الكتب التي ورد ذكرها فيها مع تبيين صفحاتها. وهذه الفهرسة الكبيرة الحجم مجلدة في إدارة الدائرة مكملة من جميع الوجوه. ثانياً: إن قسماً مهماً من المواد المتعلقة بالأجزاء القادمة مؤلف ومهيأ للطبع، والتأليف مستمر دون انقطاع. ثالثاً: إن

---

(١) دائرة المعارف ج١ (١٨٧٦) ص ٣.

(٢) دائرة المعارف ج٤ (١٨٨٠) المقدمة.

(٣) دائرة المعارف ج٣ (١٨٧٨) المقدمة. وُجّه نفس الاتهام إلى الدكتور فؤاد أفرام البستاني الذي ابتدأ منذ سنة ١٩٥٦ بإعداد «دائرة المعارف» حديثة. ورد على الاتهام بأنه سينتهي من العمل في الدائرة كلها مع ملاحقها سنة ١٩٨٠. «فؤاد أفرام البستاني يرد على منتقديه» الحوادث (بيروت). تاريخ ٢٧ آذار ١٩٧٠ ص ٣٤ ـ ٣٥.

المؤلف لا يزال بحوله تعالى متمتعاً بصحة تامة وقوة يعجب منها جميع معارفه مع أنه صرف ماضي حياته بالكد والجد وهو لم يدرك بعد سن الستين. رابعاً: إن رغبته في أن يتم هذا التأليف الكثير الأهمية المتسع الدائرة جعلته يتخذ احتياطات في نفس عائلته تتكفل بإكمال هذا المشروع إذا لم يشأ الله سبحانه وتعالى أن يفسح بالأجل إلى أن يتم خروجه من القوة إلى الفعل. فإن منها من يكون بعد أن وضع له الاساسات الموضوعة والوقوف على كيفية العمل بالاشتراك أحياناً فيه قادراً على مداومته. وعلى ذلك ما من داع يدعو إلى الاختصار الذي ينقص فائدة الكتاب ولا خوف المشتركين من عدم انجازه»[1]. ولكن وفاة المعلم بطرس البستاني المفاجأة سنة ١٨٨٣، بعد الانتهاء من طبع الجزء السادس من الدائرة، دعت ولده البكر سليم يكرر القول على لسان أديب إسحق بأن الكتاب «تام الترتيب كامل التبويب» وأنه لن يطرأ عليه أي تغيير ولن يقع امهال في اصداره[2]. وعُلقت الآمال على سليم البستاني للقيام بانجاز العمل في تأليف الكتاب. وانبرى الدكتور كرنيليوس فان ديك يحثه في رسالة بعثها إليه، للسعي لاتمام مشاريع والده ومنها دائرة المعارف قائلاً: «فلست أرضى ولا يرضى أحد من أصحابه (أصحاب المعلم بطرس البستاني) الكثيرين أن يسقط شيء من مشروعاته دون البلوغ التام والكمال كما لو بقي حياً وجنابكم كنتم مشتركين معه فيها ولكم الاطلاع التام على مقاصده وأغراضه وكيفية تصرفه في كل ما شرع فيه، والحالة هذه أناشدكم أن تنهضوا الهمة وتصمموا النية على اتمام الأشغال العلمية التي شرع فيها أخي وحبيبي في حياته ولا سيما دائرة المعارف. فلا تدعوا هذا المشروع المفيد يقف في سيره نحو الكمال والتمام، وبما أنكم اشتغلتم مع والدكم زمناً طويلاً في هذا العمل ولكم الخبرة التامة بكيفية تصرفه فيه فعليكم أن تسعوا بتتميمه إجابة لطلب المشتركين واقتداء بقدوة والدكم الذي بذل عمره في ما يؤول إلى إفادة أبناء الوطن، ولا ريب أن حضرة المشتركين على العموم يشاركونني في هذا الطلب»[3]. وأصيبت دائرة المعارف بنكسة ثانية ولم يكن قد مضى على نكستها الأولى بوفاة مؤسسها الأول سبعة عشر شهراً حيث فجعت بوفاة سليم البستاني بالسكتة القلبية بعد أن كان قد طبع الجزء السابع وقام

---

(١) «دائرة المعارف الجزء الرابع». الجنان ج١١ (١٨٨٠) ص ٧٤٨.

(٢) «الدكتور فانديك وأديب بك ودائرة المعارف». الجنان ج١٤ (١٨٨٣) ص ٢٩٤.

(٣) المصدر ذاته، ص ٢٩٣. «دائرة المعارف» دائرة المعارف، ج٧ (١٨٨٣) ص ٦٠٣ ـ ٦٠٤.

باعداد الجزء الثامن للطبع[1]. وهكذا اتجهت أنظار جميع محبي هذا المشروع إلى نجيب البستاني، ثالث أنجال المعلم بطرس البستاني لانجاز أعمال سلفيه. وأنيط به الأمل للقيام بتنفيذ هذا المشروع لأنه كان، على حد قول خليل سركيس صاحب جريدة لسان الحال، «محلاً للثقة وموضعاً للاعتماد»[2]. وقد حثه خليل سركيس أن يجرد عزيمته لخدمة الأدب للمضي قدماً بتأليف ما تبقى من دائرة المعارف «خصوصاً وأن المعدات أعدت، ولديك مواد التأليف مهيأة وهيكل الدائرة إلى أخر باب «الياء» قائم. فإن والدك، رحمه الله، لم يباشر طبع المجلد الأول قبل أن أتمه وأتم كل ما هو ضروري لقيام الدائرة وحفظها وإبرازها برمتها إلى مظهر الوجود من بعده. وأني لمحدثك بأمر يزيدك فوق ما أنت عليه مضاء وإقداماً وهو ما بلغني أن والدك المرحوم قال لجناب الكاتب الالمعي سعيد أفندي الخوري الشرتوني خلال مباحثة عرضت له معه: «إني ابتدأت الدائرة وأعددت لوازمها، فولدي نجيب يتمها»، فتأمل تجد بذلك سراً خفياً انطق والدك به من قبل دعوتك إلى إتمام التأليف بضعة أعوام»[3]. وأبدى الدكتور كرنيليوس فان ديك في رسالة بعثها إلى نجيب البستاني، سروره لعزم هذا الأخير على اتمام تأليف دائرة المعارف قائلاً: «ومما زادني سروراً عزمكم على اتمام الدائرة أيضاً، وسامحوني إذا قصدت انهاض همتكم حتى لا تدعوا ذلك المشروع يسقط ولا تتوهموا من عظم العمل لأنكم بعون الله قادرون عليه، وعندكم من المعاونين كفاءة وحضرة المشتركين أجمعين ناظرون إليكم على أمل اتمام ما شرع به والدكم وأخوكم. وإذا كان لداعيكم باب استطيع به أن أعينكم في هذا العمل المهم فإني مستعد لذلك كما كنت في ما سلف، وقد هيأت عدة قطع للجزء التاسع»[4]. وقد قام نجيب البستاني في طبع الجزء الثامن من الدائرة الذي كان أخوه سليم قد أعده، كما طبع الجزء التاسع سنة ١٨٨٧ في المطبعة الأدبية في بيروت بمؤازرة إبن عمه سليمان البستاني. ثم انتقل مع المواد المخطوطة من الدائرة إلى مصر وطبع، بالتعاون مع إبن عمه سليمان البستاني وأخيه نسيب، الجزءين العاشر والحادي عشر في مطبعة

---

(١) خليل سركيس، «فاجعة سليم». لسان الحال العدد ٧١٢ (٢٥ أيلول ١٨٨٤) ص ١.

(٢) المصدر ذاته، ص ٢.

(٣) المصدر ذاته، ص ٢.

(٤) «لمحة الفضل». الجنة. العدد ١٤٢١ (٢٦ تشرين الثاني ١٨٨٤) ص ١.

الهلال. وتوقف العمل بالمشروع عند لفظة عثمانية (الدولة العثمانية).

بالرغم من تعدد الأيدي التي توالت على تأليف **دائرة المعارف** نجد أن الخطة المتبعة، من حيث اسهاب واستيفاء الأبواب، والإيجاز تارة والاطناب طوراً حسب مقتضى الأحوال ومناسبة المقام، والاشتمال على مقالات علمية وطبية وتاريخية وأدبية وصناعية وزراعية، لم تتغير في جميع الأجزاء المطبوعة. يدل ذلك دلالة واضحة، على حد قول رئيس تحرير مجلة **المقتطف**، على «وحدة المنهج في التأليف وحسن مراعاة المقامات في وضع المقالات حتى كأنه لم يتول نسجها إلاّ يد واحدة ولم يوش بردها إلا قلم واحد»[١].

دائرة المعارف من خلال اراء محبي نشر المعارف وأصحاب الأقلام المعاصرة.

لم يكد يصدر «اعلان الكوثر» مبشراً بتأليف كتاب **دائرة المعارف** حتى أخذت التقاريظ المؤيدة لقيام هذا المشروع ترد على إدارة الدائرة. وكانت أول شهادة وردتها من صاحب الدولة محمد حالت باشا، والي سوريا[٢]، الذي اعتبر الكتاب بأنه «جزيل النفع كثير الفوائد يصبو إلى نواله الطلبة من أهل العلم وأرباب الفنون والصناعة وأصحاب التجارة»[٣]. وقدم للمؤلف شكره وثناءه على تأليف هذا الكتاب وحث «آل الآداب» على مساعدة هذا المشروع بالاكتتاب بالاشتراك بهذا التأليف وتخصيص نسخة له شخصياً. وتلتها شهادات كل من الحاج حسين بيهم[٤] الذي ذكر بأنه طالما صاب إلى وجود تأليف مثل دائرة المعارف «في لغتنا الشريفة النفوس. فبدا كالهلال وحين يكمل بدره نقول لا عطر بعد عروس. ونتنشق من روائح أزهاره نفحات فوائد علمية وعملية. ونحتسي من حميا كاساته معارفه نكات أدبية وتاريخية، ونطلع منه على تعريفات شافية لمريد كل علم خصوصاً الجغرافيا، وتوضيحات تحل كل اشكال،

---

(١) «الجزء الثامن من دائرة المعارف». **المقتطف** ج١٠ (١٨٨٥) ص ١٢٧.

(٢) وصفته الجنان بانه «من فحول أهل العلم والمعارف، وهو من الطبقة الأولى بين الكتّاب العثمانيين». «الكوثر» **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ٣٦٥.

(٣) **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ٣٦٥.

(٤) كان الحاج حسين بيهم (١٨٣٣ ـ ١٨٨١) كلفا بتحصيل المعارف، وتولى سنة ١٨٦٩ رئاسة «الجمعية العلمية السورية»، ومثل ولاية سورية في مجلس المبعوثان سنة ١٨٧٨. انظر: طرازي، **تاريخ الصحافة العربية** ج١ ص ١١٧ ـ ١١٩.

وتحقيقات تفصل كل إجمال، وهو قاموس كل علم وعمل، وبستان الرعايا والدول، ومفتاح الصناعة، وسوق التجارة، وكنز الزراعة، ونزهة الحاسب، وبهجة الكاتب، وخزينة الأفكار والأموال، وفذلكة الأقوال والأفعال، ودليل الرياسة واللطائف، وقانون السياسة والمعارف، وهو للجليس نعم النديم والأنيس، فاقتناه لكل قادر عليه لازم يستوي في فهم أكثره الأمي والعالم. فالبدار للاكتتاب به يا بني لغتنا قبل غيرنا البدار»[1]. وشهادة الأمير عبد القادر الجزائري[2] الذي أظهر سروره لإصدار «هذا التأليف المستطاب» الذي سيزين بأعلام كل عصر «وسيجري ماؤه العذب في كل مصر... وأملي أن أبناء لغتنا العربية الشريفة الذين لم تزالوا في كل آن تنفحونهم بتحفة لطيفة يساعدونكم في هذا العمل المفيد والتأليف الجامع الفريد. أسأل الله أن يعينكم في الأعمال وأن يوفقكم في الأقوال والأفعال»[3]. وشهادة البطريرك غريغوريوس بطريرك الروم الكاثوليك الذي أثنى على هذا المشروع وعبر عن شعوره بالسرور لتأليف هذا الكتاب الذي تصبو إليه نفوس أبناء الوطن «كيف لا وهو القاموس العام لكل موجود وقيام. بل عالم الرشاد لكل ناطق بالضاد. وعلى وحدته تأليفاً يغني عن كتب ألوفا. فنتهنى معكم بهذا العمل الكبير الخطير ونود أن يساعدكم أبناء لغتنا الكبير والصغير. حال كوننا لا نرتاب بأن ثباتكم في الأعمال واستقامتكم في تقرير الأمور يوليان مشروعكم بحوله تعالى حسن البداية والنهاية ويحققان له عند القوم على اختلافاتهم ثقة العمل المشكور. وإننا مع إيضاح سرورنا وشكرنا لمساعيكم العائدة بالخير على الوطن، نسأل من هو فوق كل ذي علم مصدر الخيرات والمنن أن يوفقكم في مشروعكم إلى التمام. هذا واقبلوا مع الثناء تحياتنا واحترامنا والسلام»[4]. وشهادة الشيخ محمد صالح المنير، خادم العلم الشريف بدمشق، الذي تلقى نبأ صدور الكتاب بالابتهاج والسرور وأثنى على هذا العمل المبرور لأن مثل هذا الكتاب «جدير بأن يتسابق إليه أولو الألباب. وأن يستلمه بيمناه الآخذ ويعض عليه بالنواجذ. فقد تكفل باغناء الأريب عن عدة كتب من سائر الفنون. فهو الذي يشتاقه الأديب اللبيب. وبه تقر

---

(١) «الكوثر» الجنان ج٥ (١٨٧٤) ص ٣٦٦.

(٢) ذكرت الجنان بانها تفتخر «بتزين أعمدتها بعبارات سيادته الجامعة بين البلاغة والسداد وكرم الأخلاق». «الكوثر» الجنان ج٥ (١٨٧٤) ص ٤٠٠.

(٣) المصدر ذاته، ص ٤٠٠ ـ ٤٠١.

(٤) المصدر ذاته، ص ٤٨٠.

العيون. وحسب مؤلفه العالم الفاضل المهذب الكامل من الثناء ما أثنى به عليه بتحريره حضرة مولانا والي الولاية الافخم المعظم (محمد حالت باشا) وحضرة مولانا الأمير عبد القادر الجزائري المحترم المكرم»[1]. وحظيت أيضاً بشهادة أديب إسحق[2] الذي أعتبر الدائرة «خزانة معارف تغني عن كثرة الأسفار وهي حلية جمال وكمال لخزائن الكتب المعروضة للأنظار ولسوف تصير بمرور الزمان من لوازم المكتبة في منزل كل نبيه ومنتدى كل وجيه فيلم الأسف بمن لم يلتمسها وهي قريبة المال»[3].

وأثر صدور الجزء الرابع من **دائرة المعارف** رأى السيد جمال الدين الأفغاني[4] من الواجب عليه إداء الشكر، إصالة عن نفسه ونيابة عن كل عارف باللغة العربية، أن ينشر «عطر الثناء على حضرة العالم المتبحر بطرس أفندي البستاني بما أودعه في مؤلفه **دائرة المعارف** من الفوائد الجليلة والمنافع العميمة التي قلد بمنتها أعناقنا»، قائلاً «إن هذا المؤلف الفاضل فضلاً عن سائر مؤلفاته **كمحيط المحيط وقطر المحيط** وغيرهما قد أتى لنا بكتاب **دائرة المعارف** محيطاً بجميع ما يحتاج إليه الإنسان في معاشه ومعاده إذ قد حوى جميع التواريخ من سير الأمم والسلاطين وأخبار الأنبياء والحكماء والمقدسيين وجغرافية البلاد وعلوم الطبيعة والكيمياء والنباتات والحيوانات والحساب والجبر والهندسة والفلك وغير ذلك من الفنون الجليلة. فمن وهبه الله أدنى عقل غريزي وكان له أقل إلمام بمبادىء العلوم فله أن يستغني بهذا المؤلف عن تجشم الجلوس بين الأساتذة لأن صعوبة العلوم بصعوبة الوقوف على اصطلاحاتها. وهذا الكتاب قد كشف حجاب الخفاء عن جميع الاصطلاحات بأوضح بيان وألطف عبارة

---

(١) المصدر ذاته، ص ٤٣٦.

(٢) صحفي وكاتب وخطيب وشاعر ١٨٥٦ ـ ١٨٨٥. طرازي، **تاريخ الصحافة العربية**، ج٢ ص ١٠٥ ـ ١٠٩.

(٣) «المعلم بطرس البستاني» **الجنان** ج١٤ (١٨٨٣) ص ٢٩٥. «دائرة المعارف» **دائرة المعارف**، ج٧ / ١٨٨٣) ص ٦٠٥.

(٤) وصفه المعلم بطرس البستاني بأنه «قطب العلماء وسيد الفصحاء، الحكيم الذي ذاع صيته في كل مكان، وحدث بفضله الركبان، القابض على عنان روح العصر، المفيض من صيب فضله في كل مصر، زبدة العلم والأدب، إمام كل من كتب وخطب». «كتاب دائرة المعارف». **الجنان** ج١٠ (١٨٧٩) ص ٣٠٦. نشرت شهادة السيد جمال الدين الأفغاني هذه في كل من جريدة **الأهرام** ومصر ومرآة **الشرق**. المصدر ذاته.

وأرق اشارة»[١]. ولكنه أبدى أسفه لقصور رغبة الشرقيين في اقتناء هذا الكتاب ولذلك توجه إليهم بالنداء التالي: «يا أبناء الشرق أفلا تعلمون أن سلطة الغربيين وسيادتهم عليكم إنما كانت بأرتفاع درجتهم في العلوم والمعارف وانحطاطكم فيها. فلم لا تتقد أحشاؤكم بنيران الشوق لهذا المؤلف البديع وأمثاله حتى يبرز بمعدات رغبتكم وكمال شوقكم من عالم القوة إلى الفعل؟ هل رضيتم بعد ما كان لكم ذروة الشرف بواسطة العلوم والمعارف أن تدوم لكم تلك الحالة الوخيمة التي أوصلتكم إليها الجهالات والضلالات حتى عادت ترق لكم قلوب الأعداء فضلاً عن الأصدقاء؟ فهلموا لاقتناء المؤلفات واقتناص صيد المعارف واعتصموا بعرى الاجتهاد في نيل العلوم واستضيئوا بسنا الحق لتسترجعوا مجدكم وتنالوا حقيقة استقلالكم فتفوزوا مع الفائزين»[٢].

وفازت دائرة المعارف بشهادة علم أخر من أعلام القرن التاسع عشر المشهورين إلا وهو الدكتور ميخائيل مشاقة[٣]. أرسل الدكتور مشاقة رسالة إلى المعلم بطرس البستاني ذكر فيها بأنه طالع بعض كتاب دائرة المعارف وأمعن النظر بأجل مباحثه حتى نهاية الجزء الرابع فوجده «درة يتيمة بلغتنا العربية. يجمع فيعي فوائدها العلمية وسائر المعلومات البشرية بطرز سهل المباني يتوصل به إلى كنه المسائل ودقائق المعاني. جامع كل تليد وطارف ولا غرو فإنه دائرة المعارف. كتاب لا يستغنى عن وجوده بمكتبة كل عالم مدقق ويفتقر إليه كل طالب ومحقق. وقد ذانه حسن الترتيب وكمال التهذيب. مع ما في ذلك من صعوبة الأعمال بمحاذرة وقوع خلل أو إهمال. كيف لا وفي تتبع مراتب الحروف فقط متاعب دونها وقوع غلط. ومع ذلك فقد جاء كبستان به الحور والولدان وبه من كل فاكهة زوجان. تقر به النواظر وتسر به الخواطر. فلله در بستانيه الفاضل العالم العامل حيث أبان بذلك ما به من الحمية العربية والهمة السورية والمحبة الوطنية باقدامه على مصاعب الأمور بما يخلد ذكره لمنتهى الدهور. فمن واجبات أفراد أبناء الوطن أن يقدموا له الشكر والدعاء بمزيد المنن على ممر

---

(١) الجنان ج١٠ (١٨٧٩) ص ٣٠٨.

(٢) المصدر ذاته.

(٣) وصفه المعلم بطرس البستاني بالعلامة الذي «عبقت في الرياضيات رياض براعته وطلعت الفلكيات كواكب براعته وترفع في المعقولات مقام مكانته وظهرت في كل محمد آيات كرامته». «دائرة المعارف». الجنة العدد ١٠٩٦ (٢٢ آذار ١٨٨١) ص ٣.

الزمن»[1]. وقرظ دائرة المعارف أيضاً الشيخ محمود الحمزاوي، مفتي دمشق، حيث ذكر أنه سرّح طَرَفَ الطَرْف في بحبوحة هذا الكتاب «البديع الاختراع» ،فرآه «فرداً جامعاً على بابه من البلاغة مصباح، معلقاً بسلاسل جواهر البراعة الصحاح، شاهداً لمؤلفه بطول الباع وسعة الاطلاع، ولفكره بأنه عذب بحر العرفان يخرج منه اللؤلؤ والمرجان. ولا غرو أن جنى من روح المعارف كل روح ريحاني فهو البستاني وبيده المفتاح. فالحق والحق يقال إنه لمؤلف أيِّد في جوفه كل الصيد. وإنه ليتيمة بجيد هذا العصر بها للأوطان فخر، قد استضاء به كشف الظنون واستتر في جنبه ابن الأثير وابن خلدون، لو رآه المجد لقدمه أو السعد لالتزمه:

قد جاد بستاني المعارف للورى   بمـؤلـف يـروي بهـا تبيـانهـا
مذ خاف تشتيت العلوم وفقدها   حرصاً بدائرة المعارف صانها»[2]

ولم تكتف جريدة الإهرام لصاحبها سليم تقلا بالقيام، إثر وفاة المعلم بطرس البستاني، بحملة دعائية لنفي خبر توقف العمل بدائرة المعارف وللتأكيد لمشتركي الدائرة بأن سليم البستاني، بما عُرف عنه من غيرة واهتمام، سيبذل قصارى جهده لاتمام هذا المشروع «لكي لا تحرم مكاتبهم بل لغتنا من هذه الدرة النفيسة»[3]، بل إن سليم تقلا اشترك في إعطاء شهادة قيمة لكتاب دائرة المعارف قائلاً بأن الكتاب نال «من الشهرة الأدبية الصادقة ما أغنى عن الأسباب في شرح فوائده الجليلة. ولا خفاء أن لغتنا العربية شديدة الاحتياج إليه لفقد نظائره فيها. ومن مزاياه الحسنة أنه يلزم لكل قارىء لكونه مشتملاً على كل فن ومطلب دون استثناء. وبمطالعته يقف القارىء على فوائد عديدة جميلة يتعذر عليه الوصول إليها بدونها فهو القاموس العام المقصود فيه جمع ما تفرق وتنظيم ما انتثر وحفظ ما فقد وتذكير ما نسي بل هو الأستاذ الذي لا يغني عنه بديل ولا يسد مسده سواه»[4].

ولم يقتصر التنويه والاشادة بفضل مزايا دائرة المعارف على الكتّاب والمفكرين والمصلحين من أبناء الضاد بل تعداه إلى شهادات أعلام أفذاذ من المستشرقين.

---

(١) المصدر ذاته، ص ٣.

(٢) المصدر ذاته.

(٣) «دائرة المعارف» دائرة المعارف، ج٧ (١٨٨٣) ص ٦٠١.

(٤) «دائرة المعارف» لسان الحال، العدد ٥٧٦ (٢٣ أيار ١٨٨٣) ص ١.

فالدكتور كرنيليوس فان ديك بالإضافة إلى مناشدته كل من نجلي المعلم بطرس البستاني، سليم ونجيب،[1] لاتمام مشروع دائرة المعارف، اعتبر أنه «مشروع عظيم خطير لا مثيل له في اللغة العربية، وهو بالحقيقة كنز لأهل الشرق»[2]، وفي اتمامه «خدمة وطنية ما أعظم شأن الذين يقومون بمثلها في أوروبا وأميركا»[3]. وعند مراجعته للجزء السابع من دائرة المعارف رأى فيه «من الفوائد الجمة والمنافع العميمة والضبط والجمل العلمية الكثيرة، ولا سيما جملة «داء الزهري» «والدم» و«الدماغ» وهي مما لا يقدر أن ينسج مثله غير أطباء علماء من الحاذقين بالتأليف»[4]. ونشرت مجلة **الطبيب** لرئيس تحريرها الدكتور جورج بوست[5] (George Post) تقريظاً للجزء الرابع من **دائرة المعارف** اعتبره تحفة نفيسة مشحونة بالفوائد الجمة، ولذلك «يجب على أهالي البلاد العربية أن يشكروه كل الشكر على ما بذله من الجهد في هذا المشروع العظيم الذي لا سابق له في اللغة العربية. وليس هذا المؤلف اقتطافاً من الفهارس العامة في اللغات الأوربية فقط بل خزنة فيها فوائد كثيرة من اللغة العربية والكتب النادرة التي لا يمكن أكثر الناس مطالعتها. وفضلاً عن ذلك فقد أضاف المؤلف أموراً كثيرة مما وقع تحت معرفته الخاصة واستفاده من رجال العصر»[6]. واستلم المعلم بطرس البستاني رسالة من الدكتور مارتن هرتمن (Martin Hartmann) المستشرق الألماني[7]، يذكر فيها أنه اطلع على مقالة لزميله المستشرق الألماني البروفسور هنريخ فليشر[8] (Heinrich Fleischer) استاذ اللغة العربية بجامعة برلين، يقرظ فيها كتاب **دائرة المعارف**. ويذكر أيضاً أن هذه المقالة تتفق مع رأيه في تقييم الكتاب ولذلك أحب أن يترجم ملخصها

---

(١) «الجزء السابع من دائرة المعارف». **المقتطف** ج٨ (١٨٨٣) ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦. «رسالة الدكتور فان ديك». **الجنة**، العدد ١٤٢١ (٢٦ تشرين الثاني ١٨٨٤) ص ١.

(٢) المصدر ذاته، ص ٢٥٥.

(٣) المصدر ذاته، ص ٢٥٦.

(٤) المصدر ذاته، ص ٢٥٥.

(٥) وصفه المعلم بطرس البستاني بالعالم العامل «أستاذ الجراحة والنبات في المدرسة الكلية والطبيب العالم الماهر». «دائرة المعارف» **الجنان** ج١١ (١٨٨٠) ص ٧٤٧.

(٦) «دائرة المعارف الجزء الرابع». **الجنان** ج١١ (١٨٨٠) ص ٧٤٨.

(٧) كان الدكتور مارتن هرتمن تلميذاً للشيخ يوسف الأسير. طرازي، **تاريخ الصحافة العربية**، ج١ ص ١٣٨.

(٨) «Encyclopedie Arab Bd I - III, Z D M G. Vol. XXXIV (1880) pp. 579 - 582.

إلى العربية «لكي تنشر في الجرائد الوطنية اعتباراً للعموم»[١]. قال البروفسور فليشر في تقريظه لو أن المعلم بطرس البستاني سأل أصحابه العديدين في أوروبا عن المعنى الذي كان يجب عليه أن يضع فيه البيتين من الشعر المصدر بهما كتاب **دائرة المعارف** لقال له يجب أن يكون المعنى «الشرق والغرب قد التأما فلا يمكن أن يفترقا. فإن الشرق لا بد له أن يتعلم مع اللغات الانكليزية والفرنسوية والإيطالية لغة غوتي وبسمارك أيضاً (أي الألمانية)»[٢]. وذكر أن الأهمية الكبرى لكتاب دائرة المعارف هي في «المواد المأخوذة من مصادر عربية فإنها كثيراً ما تصحح بها التحريفات والتصحيفات ولا سيما في الكتب المطبوعة عندنا»[٣] (أي المطبوعة في أوروبا). وانتهز الدكتور مارتن هرتمن فرصة ترجمة هذه المقالة إلى العربية ليقدم للمعلم بطرس البستاني تهنئة خاصة لقيامه بتنفيذ مشروع **دائرة المعارف** مؤكداً له أنه يعتبر «هذا المشروع من أهم المشروعات العصرية»[٤].

عاداته

كان المعلم بطرس البستاني لا يكتب إلاّ واقفاً إلى جانب طاولة عالية. وكان يدخن النارجيلة، ولا يساوره الملل من العمل، ولا يفتر عن التفكير في عمله وقد يكون نائماً فتخطر له فكرة تتعلق بعمل يعمله فينهض من فراشه ويذهب إلى مكتبه يدون ما خطر له ليعود إليه في الغد. وكثيراً ما كان أهل بيته يفتقدونه ليلاً وهم يحسبونه في فراشه فإذا هو في مكتبه بين كتبه وأوراقه.[٥] وكان من محبذي اختصار الزيارة لأصحاب الأعمال بالرغم من اعتقاده بأن الزيارة هي من أكبر الوسائل لوجود الإلفة بين الناس[٦]. وهو كاتب المقالة الموسومة «زيارة أفرنجية»[٧] التي تمنى فيها على جميع أبناء الوطن الاقتداء بالافرنج في أمر الزيارة «من جهة قصرها وموضوعاتها،

---

(١) «دائرة المعارف الجزء الرابع» **الجنان** ج١١ (١٨٨٠) ص ٧٤٧.

(٢) المصدر ذاته.

(٣) المصدر ذاته.

(٤) المصدر ذاته.

(٥) «عادات الكتاب في الشرق». **الهلال** ج١٣ (١٩٠٥) ص ٣٠٢.

(٦) بطرس البستاني. «زيارة افرنجية». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ١٣٩.

(٧) المصدر ذاته، ص ١٣٩ ـ ١٤٠.

وانتخاب الوقت المناسب لها وعلى الخصوص زيارة أصحاب المصالح والاشغال المهمة من سياسية وتجارية وأدبية»[١]. وعندما اطلع راشد باشا، والي سورية حينئذ، على هذه المقالة أعجب بها وكان ممن يشكون طول الزيارات فقال لسليم البستاني: «إني شاكر والدكم، مثن عليه، عازم أن أزوره «زيارة غير افرنجية» لعلكم تعاودون الكتابة في هذا الصدد فتنفعوا أصحاب الأشغال»[٢].

وفاته

توفي المعلم بطرس البستاني عشية الأول من شهر أيار سنة ١٨٨٣ بالسكتة القلبية وله من العمر أربع وستون سنة. صرف جل وقته في التأليف والترجمة والتعليم، «فمات شهيد العلم»[٣] بين المحابر والأقلام والمطابع والكتب، «فبكت عليه المعارف والمدارس والمنابر والكنائس»[٤]، ورثته الجرائد[٥]، وأبّنه الخطباء وناح عليه الشعراء[٦] بأقوال مؤثرة صادقة تدل دلالة واضحة على سمو منزلته العلمية[٧]. وجرت له جنازة عظيمة مشى فيها «وجهاء القوم مع اختلاف الملل وأعيان الأجانب وتقدم الجنازة فريق من البوليس والجندرمة وقواصة القناصل»[٨]. وبعد أن صلي على جثمانه في الكنيسة الإنجيلية وقف الدكتور كرنيليوس فان ديك وأبّنه «بلسان الصديق وبكاه بدموع الأخ الشقيق»[٩] فأبكى جميع الحاضرين[١٠]، وتلاه أديب إسحق معدداً في

---

(١) المصدر ذاته، ص ١٣٩.

(٢) «المرحوم المعلم بطرس البستاني». المقتطف ج٨ (١٨٨٣)ص ٥: «دائرة المعارف». دائرة المعارف ج٧ ص ٥٩٢.

(٣) المصدر ذاته، صموئيل صميلز. سر النجاح. ترجمة يعقوب صروف. القاهرة، ١٨٨٦ ص ٢١٥.

(٤) النشرة الأسبوعية ج١٣ (١٨٨٣) ص ١٤٩: الجنان ج١٤ (١٨٨٣) ص ٢٩١.

(٥) الجرائد التالية: حديقة الأخبار والنشرة الأسبوعية والاهرام والتقدم والجوائب ولسان الحال والفرات وثمرات الفنون والمقتطف.

(٦) لسان الحال، الاعداد ٥٧٥ ـ ٥٩٠، دائرة المعارف ج٧ ص ٦٠٦ ـ ٦٠٨: الجنان ج١٤ (١٨٨٣) ص ٢٩١ ـ ٢٩٦.

(٧) فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، ج١ ص ٩١.

(٨) «المعلم بطرس البستاني». الجنان ج١٤ (١٨٨٣) ص ٢٩٣ نقلاً عن جريدة ثمرات الفنون.

(٩) جرجي زيدان. تراجم مشاهير الشرق، ج٢ ص ٣١. ذكر بأنه كان حاضراً أثناء الدفن.

(١٠) «خطاب الدكتور كرنيليوس فان ديك في تأبين فقيد الوطن». دائرة المعارف ج٧ =

خطبته مناقب الفقيد ومآثره الحميدة[1]، ثم دفن مكرماً مبجلاً في مقبرة الكنيسة الإنجيلية في بيروت. وتواردت على إبنه البكر سليم العديد من كتب التعازي من ذوي المقامات العالية الروحية[2] والزمنية، وورد إليه كثير من مراثي العلماء والأدباء والشعراء نشرت مقتطفات منها في **الجنان** و**لسان الحال** و**الجنة** و**دائرة المعارف** [3].

وإثر وفاة المعلم بطرس البستاني بخمسة وعشرين يوماً القى الدكتور كرنيليوس فان ديك، «صاحب الفضل في النشأة العلمية في الديار الشامية في القرن التاسع عشر»[4]، وأول رئيس للمجمع العلمي الشرقي[5]، خطاباً في الاحتفال السنوي الأول للمجمع، جاء فيه ما يلي:

«إن هذه الجلسة السنوية قد خالطها الحزن والأسف على فقد واحد من أعضاء مجمعنا، أعني الشهير المجتهد المؤلف البارع الجهبذ النحرير عزتلو بطرس افندي البستاني، الذي خطفته المنون من بين أيدينا خطفاً، فترك جمهوراً كبيراً من محبي الوطن يتأسفون على خسارة لا يدركها إلاّ من عرف قيمة رجال العلم وصعوبة مسالكه بيننا في هذه الأيام. ولكنه أبقى لكل شبان سوريا قدوة ومثالاً من جهة تضحيته كل قواه لصالح الوطن، ومن جهة قلة إلتفاته إلى المنافع الخاصة ونظره إلى المنافع العامة وأيضاً من جهة اجتهاده الدائم رغماً عن كل الظروف المضادة باذلاً صحته وجسمه لكي يكمل المشروعات المفيدة التي شرع بها حتى صار مستحقاً أن يذكر بين المشاهير المدونة اسماؤهم في كتاب سر النجاح[6] فلنذكره متأسفين عليه كل الأسف ومن وقت

= ص ٥٩٣ ـ ٥٩٤.

(١) «خطاب أديب إسحق في تأبين الفقيد البستاني». **لسان الحال**، العدد ٥٦٨ تاريخ ٧/ ٥/ ١٨٨٣ ص ١ ـ ٢. **دائرة المعارف** ج٧ ص ٥٩٤.

(٢) «مرثية البطريرك غريغوريوس بطريرك الروم الكاثوليك». **لسان الحال**، العدد ٥٧١ تاريخ ١٧/ ٥/ ١٨٨٣ ص ١.

(٣) ذكرت جريدة **لسان الحال**، العدد ٧١٨ تاريخ ١٦/ ١٠/ ١٨٨٤ ان نجيب البستاني سيطبع جميع المراثي التي وردت يوم وفاة أبيه وأخيه سليم ولكنه لم يطبعها.

(٤) جرجي زيدان. **تراجم مشاهر الشرق** ج٢ ص ٢٩ ويوسف خوري. «الدكتور كرنيليوس فان ديك ونهضة الديار الشامية في القرن التاسع عشر». المقدمة.

(٥) أسس يعقوب صروف، صاحب مجلة المقتطف، والدكتوروليم فان ديك هذا المجمع سنة ١٨٨٢.

(٦) طبع أولاً في بيروت سنة ١٨٨٠. ولقد أخذ يعقوب صروف، مترجم الكتاب إلى العربية، =

إلى وقت لنقص سيرته على أقراننا لكي يقتدوا به»[1].

وهذه شهادة ليس بعدها من شهادة لإحد جبابرة أعلام القرن التاسع عشر الافذاذ الذي رافق المعلم بطرس البستاني مدة ثلاثة وأربعين سنة وراقب أعماله عن كثب.

ضريح البستاني

لقد ظهرت عدة مقالات متتابعة في جريدة الاهرام بقلم سليم تقلا، رئيس تحريرها، وغيره من الكتّاب[2]، في أواخر سنة ١٨٨٤، دار فيها الكلام على اقتراح اقترح على فضلاء مصر ومحبي العلماء فيها لإقامة ضريح للمعلم بطرس البستاني، «ولكن ما لبثت تلك المقالات أن شاعت حتى تنوسي خبرها، وما لبثت الأفكار أن تحركت حتى عادت فسكنت»[3]. وهكذا لم تخرج هذه الفكرة إلى حيّز الوجود.

الجائزة البستانية

أعلن المجمع العلمي الشرقي في بيروت بتاريخ ٢٧ نيسان سنة ١٨٨٥ أنه قد عين جائزة سنوية تذكاراً «للعلامة الشهير فقيد الوطن أحد أعضاء الشرف في المجمع المذكور المرحوم المغفور له المعلم بطرس البستاني»[4] وذلك جزاء لخدماته العلمية. وقد سماها «الجائزة البستانية» وجعل قيمتها ثلاث ليرات افرنسية تعطى كل سنة لمن يكتب أفضل مقالة في موضوع يقترحه المجمع. وعين موضوعاً لتلك السنة عنوانه «الوسائل لترقية المعارف في سورية»[5]. ولم تنفذ هذه الفكرة بسبب انفراط عقد أعضاء المجمع العلمي الشرقي[6].

= بنصيحة أستاذه وأضاف إلى الكتاب بطبعته الثانية (القاهرة، مطبعة المقتطف ١٨٨٦)، سيرة المعلم بطرس البستاني ص ٢١٣ ـ ٢١٥. وذكر في مقدمة الطبعة الثانية أن فوائد الكتاب لا تعم بين المتكلمين بالعربية إلا إذا ما أضيفت إليه سير الذين اشتهروا بالمشرق للدلالة على أنه «يمكن للشرقي أن ينجح كما نجح الغربي إذا طلب النجاح».

(١) «الخطبة السنوية لجناب الدكتور فان ديك». **المقتطف** ج٧ (١٨٨٣) ص ٦٤١.

(٢) راجع الاهرام اعتباراً من العدد ٢٠٣٠ تاريخ ٢/ ١٠/ ١٨٨٤ ص ٤ وما بعده.

(٣) «ضريح البستانين». **المقتطف** ج٩ (١٨٨٥) ص ٣٧٨.

(٤) «الجائزة البستانية». **المقتطف** ج٩ (١٨٨٥) ص ٥٦١ ـ ٥٦٢؛ **الجنان** ج١٦ (١٨٨٥) ص ١٦٣.

(٥) المصدر ذاته.

(٦) «كتاب تاريخ الصحافة العربية». **المقتطف** ج٤٣ (١٩١٣) ص ٢٩٩ ـ ٣٠٠.

الفصل الثاني

مجلة الجنان: أبوابها ومواضيعها

تأسيس مجلة الجنان

أنشأ المعلم بطرس البستاني، لبكر أولاده سليم[١] في أول عام ١٨٧٠ في مدينة بيروت، مجلة[٢] نصف شهرية دعاها **الجنان**، مقيماً لها دستورين أولين: خدمة الحقيقة وخدمة صالح البلاد،[٣] مبينا غرضها بأنه إظهار حقائق الأمور «وحقيقة حالتنا نحن»،[٤] مظهراً الواقع لقرائها،[٥] جاعلاً شعارها «حب الوطن من الإيمان»،[٦] موضحاً لماذا دعاها بالجنان بالبيتين التالين من الشعر اللذين نشرهما على الصفحة الأولى من العدد الأولى من سنتها الأولى:

إليك صحيفة نشرت حديثاً فأغنت بالسماع عن العيان

كفردوس حوى ثمراً شهياً لذاك دعوتها باسم الجنان

حصل المعلم بطرس البستاني على الإجازة باصدار مجلة **الجنان** من راشد باشا،

---

(١) «المرحوم المعلم بطرس البستاني»، **المقتطف** ج٨ (١٨٨٣) ص ٣.

(٢) ان الشيخ إبراهيم اليازجي هو أول من أشار باستعمال لفظة «مجلة» بمعنى «صحيفة علمية أو دينية أو أدبية أو انتقادية أو تاريخية أو ما شاكل تصدر تباعاً في أوقات معينة». فيليب دي طرازي، **تاريخ الصحافة العربية**، ج١ ص ٧ ـ ٨.

(٣) «الجنان»، **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٥١٥.

(٤) سليم البستاني. الآن «الجنان» ج١ (١٨٧٠) ص٦١٤.

(٥) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٣ (١٨٧٣) ص ٧٢٢.

(٦) «ومن ذاك العهد درجت العادة عند أكثر أرباب الصحف العربية أن يتخذوا لجرائدهم ومجلاتهم شعاراً خاصاً ويصدروها به». **تاريخ الصحافة العربية**، ج٢ ص ٤٥.

والي ولاية سورية حينئذ[1]، وبعد وفاة صاحبها ومنشئها في الأول من شهر أيار عام ١٨٨٣ تحول امتيازها لنجله البكر سليم البستاني الذي كان منذ بدء انشائها يكتب أكثر موادها ويلاحظ سياستها ومنشوراتها[2]. وكانت الرسائل الرسمية من الحكومة المحلية ترد إلى «سليم أفندي البستاني» قبل وفاة والده معنونة تارة كرئيس تحرير **الجنان** وتارة كمدير **الجنان**. وبعد وفاة سليم في ١٩ أيلول عام ١٨٨٤ انتقل امتياز مجلة الجنان إلى أخيه نجيب النجل الثالث للمعلم بطرس البستاني، الذي استمر في اصدارها حتى توقفت عن الصدور في الشهر السادس من عام ١٨٨٦[3].

إن تحديد مفهوم عمل المجلة أو الجريدة وغاياتها كما كان يفهمها كل من المعلم بطرس البستاني، صاحب الجنان، وسليم البستاني، رئيس تحريرها، ضروري إذا ما أردنا أن نتعرف على الغاية التي كانا يرجوانها من انشاء **الجنان**. لقد عرّف المعلم بطرس البستاني لفظة «الجريدة» في باب «الجيم» في **دائرة المعارف** بقوله:

«ولا يخفى ما للجرائد المقصود بها نفع العموم من الفائدة والقوة، وقد نسب تقدم كثير من البلدان واصلاحها وانتشار التمدن والمعارف والصنائع فيها وغير ذلك إلى هذه القوة. ويشترط في الجرائد لكي تكون مفيدة أن لا ينشر فيها شيء يخل بالآداب أو المبادىء الصحيحة أو يهيج إلى القاء الفتن والثورات لمقاصد شخصية وأغراض خصوصية. وقد رأينا أن الجرائد لكي تكون مفيدة وذات قوة مؤثرة في حالة أمة يجب أن يكون لها ما تقتضيه أحوال تلك الأمة من الحرية. وقد رأينا أن نمو الجرائد وانحطاطها في كل البلدان كان دائماً بحسب ما لها من الحرية وما عليها من القيود»[4].

إن صفحات مجلة **الجنان** في مجلداتها الست عشرة، البالغة ما يقارب من ١٢،٨٠٠ صفحة، تدل دلالة واضحة على أن المعلم بطرس البستاني، ونجليه سليم ونجيب طبقوا هذه القاعدة الجوهرية بدقة فائقة وذلك باحجامهم عن نشر أي شيء

---

(١) «فاجعة سليم»، لسان الحال عدد ٧١٢ (٢٥ أيلول ١٨٨٤) ص ١. **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٣٦٣ ذكر بان يد راشد باشا «البيضاء هي التي سهلت سبل الجنان».

(٢) «اتحاد الجنان والجنة ولسان الحال»، **الجنان** ج١٢ (١٨٨١) ص ٧٠٨.

(٣) العدد ٤ من جنان ١٨٨٦ الذي صدر بتاريخ أول حزيران سنة ١٨٨٦.

(٤) بطرس البستاني، **دائرة المعارف**. ج٦ ص ٤٤٦.

يؤول إلى الاخلال بالآداب أو المبادىء الصحيحة أو «يهيج إلى القاء الفتن والثورات لمقاصد شخصية وأغراض خصوصية»، لا بل أنه بالاستطاعة القول إن مجلة الجنان في دعوتها المتكررة إلى حب الوطن والاتحاد والإلفة بين مختلف الفئات والطوائف كانت تحاول التوسع في شرح الفوائد الجمة التي يجنيها أبناء البلاد من المبادىء التي كان المعلم بطرس البستاني في سنة ١٨٦٠ قد دعا المواطنين إلى تبنيها في كل من الأعداد الثلاث عشرة من «نفير سورية»[١] وذلك اثر الحوادث بين الموارنة والدروز. كان المعلم بطرس البستاني يعتبر أن انشاء الجرائد هو من أنفع الأمور لكل البلدان لأن الجريدة هي مصدر صحيح يبين للقارىء أهم الحوادث الجارية في العالم، كما انها ينبوع للافادات[٢] ومرآة ينظر فيها الإنسان وهو مقيم في حجرته إلى أحوال العالم وتقلباته السياسية والتجارية والعلمية والصناعية والزراعية وغيرها. وحدد لنا الأسباب التي دعته إلى إنشاء **الجنان** بقوله:

«ولما كانت البلاد السورية وما يجاورها في افتقار إلى ذلك (افتقار إلى انشاء الجرائد) لأنه يكاد لا يوجد منها ما هو كاف لسد احتياجاتها قد شرعنا في نشر **الجنان**. . . لأن المقصود منه إنما هو انفجار ينبوع الافادة الحقيقية وترقية أسباب تقدم الوطن»[٣].

إن «ترقية أسباب تقدم الوطن» كانت دائماً نصب عينيه في كل عمل من الأعمال الجبارة التي قام بها كما يحدثنا بذلك المرسل الأميركي الدكتور كرنيليوس فان ديك[٤] (Cornelius Van Dyck) زميله في التأليف والتدريس، عن حادثة جرت بينهما عندما دارت دواليب المطبعة الأميركانية في بيروت لأول مرة على الآلة البخارية حيث تفرس

---

(١) كانت على «شكل رسائل وطنية تتضمن نصائح مفيدة لشد عرى الالفة بين السكان على اختلاف مذاهبهم». **تاريخ الصحافة العربية**. ج١ ص ٦٤. (ذكر طرازي على انها ١٣ نفيراً ولم أجد في مكتبة يافث إلا ١١ نفيراً) لقد نشر العددان ١٢ و١٣ في جريدة الجنة.

(٢) «الجنان»، **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٥١٥.

(٣) المصدر ذاته.

(٤) يوسف خوري، «الدكتور كرنيليوس فان ديك ونهضة الديار الشامية في القرن التاسع عشر» (اطروحة ماجستير مقدمة لدائرة التاريخ في الجامعة الأميركية في بيروت). مكتبة يافث التذكارية. تحت رقم T 100A.

فيها المعلم بطرس البستاني هنيهة ثم قال: «هل فهمت ما تقوله هذه المطبعة». قلت: «لا». قال: «كأني كلما دارت دورة سامعها تقول إني لإفادة سورية. إني لإفادة سورية».[١] وأضاف الدكتور فان ديك معلقاً على ذلك بقوله: «ومنذ عرفته (سنة ١٨٤٠) إلى آخر حياته (سنة ١٨٨٣) كلما شرع في عمل لم أسمعه قط يسأل: كم استفيد من هذا العمل، بل، كم يؤول هذا العمل إلى إفادة سورية. فضعوا يا شبان سورية هذه القدوة أمامكم واقتدوا بجبار الأعمال وكلما شرعتم بعمل ليكن سؤالكم مثل سؤاله كم يفيد هذا العمل سورية واقتدوا بجهده الذي لم يعرف التعب ولا الكلال»[٢].

أما فيما يتعلق بسليم البستاني، رئيس تحرير **الجنان**، فإنه كان يعتبر أنه من «الواجب جمع أفكار أهل الأدب والمعرفة والذوق ونشرها في **الجنان**... لأن أهم أعمال الجرائد الأدبية الانهماك في الاصلاحات الداخلية قبل الخوض في محيط فوائد وأخبار العالم قاطبة»[٣]. ولطالما وجه النداء إلى العلماء في كل من بيروت والشام وحلب والعراق ومصر وسائر البلاد العربية ليطرفوه «بنفائس أقلامهم وبدائع كلامهم على اختلاف الموضوع من منظوم أدبي ومنثور، لأن **الجنان** على أكمل استعداد وأتم مراد لتلقي مكاتباتهم العالية القدر والبالغة من النفاسة در البحر ومن الرونق والطلاوة وجه البدر بواجب الثناء والشكر، لا برحوا للفضل سواد عينه وللعلم مبعث نوره ومجلي ظهوره»[٤]. إن إنشاء الجرائد في عرف سليم البستاني هو من أكبر أسباب النجاح والإصلاح، لأنها تنبه أولياء الأمور وأهل السياسة إلى ما ربما كانوا غير منتبهين إليه وتردع الظالم خوفاً من اشهار ظلمه وعدوانه وثلم صيته ولذلك:

«إن العادل المنصف والعاقل العفيف ينشط الجرائد ويسعفها والظالم الطامع الفاسد يضادها ويقاومها. والذي يحملنا على أن نعتقد أن الدولة راغبة حق الرغبة في الإصلاح ما نراه من تنشيطها للجرائد وغضها عن بعض هفواتها والانتباه إلى ما تقوله، إذ إنها تعرف أنها عبارة عن جرائد تقرر آراء الأمة وتحامي عن حقوقها. ولما كانت

---

(١) «دائرة المعارف». **دائرة المعارف** ج٧ ص ٥٩٤.
(٢) المصدر ذاته.
(٣) سليم البستاني، «الإصلاح». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ١٨٠.
(٤) سليم البستاني، «تنبيه». **الجنان** ج١٢ (١٨٨١) ص ٧٠٥.

هذه هي واجبات الجرائد في هذا الزمان كانت الجرائد التي تتجنب تقرير الحقائق والآراء الصحيحة خوفاً من سوء العواقب وإغاظة أولياء الأمور هي من الجرائد التي تخسر اعتبار الأمة وتجلب على نفسها احتقار الحكومة وبئس الحال»[١].

كما انه من واجبات محرري الجرائد محاربة ما لا يناسب العصر من العادات القبيحة، ولكن الضعف يجعلهم يترددون في محاربتها خوفاً من ألا يسر الجمهور من هذا التصدي المباشر للعادات غير المناسبة لروح العصر كما أن المحررين الضعفاء يخافون من سطوة الأغنياء ونفوذهم في مجتمعهم لذلك يصمتون صمت أهل الكهف تجاه عاداتهم الضارة الواجب اقتلاعها من الجذور إذا ما أردنا لمجتمعنا حياة أفضل، ولكن الجرائد «التي لها محررون من أهل الجسارة لا يبالون بذلك وعلى الخصوص إذا كانت جرائدهم في غنى عن مائة مشترك أو مائتين»[٢] والقيام بهذه الواجبات له أهمية بالغة لما له من نفع وضرر لأن نفع الجرائد وضررها متعلق بتصرف المحررين[٣]. وهذا الاعتقاد بأهمية الدور الذي يجب أن تلعبه الجرائد ذات الصبغة العامة إلى تغيير الهيئة الاجتماعية نحو ما هو أحسن وأفضل جعله يشدد على القول بأن الجرائد هي «وسائط التمدن والاصلاح»[٤] لأن زمام «الهيئة الاجتماعية في العالم المتمدن هو في القرن التاسع عشر في يد جرائدها»[٥] وبصورة خاصة تحت سطوة قلم المخلصين من كتاب الجرائد الرئيسية ولذلك نرى «مشاهير العالم يتركون أعلى الوظائف السياسية ليتمكنوا من أن يكونوا محرري جريدة أولية حتى أن الملوك أنفسهم والوزراء يكتبون جملاً كثيرة في الجرائد»[٦]. ولذلك كان يعتبر كل تقصير من قبل كتّاب الجرائد في مقاومة الفساد وتقويم الاعوجاج أينما وجدا هو خطأ مبين لأنه ليس باستطاعتهم السكوت عن أي تهاون في تطبيق الشرائع والقوانين، فعلى الجرائد في هذه الحالة إذن

---

(١) سليم البستاني، «التوفير والسياسة». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٧٨٩.

(٢) سليم البستاني، «اسما». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٢٤٩.

(٣) سليم البستاني، «الكتّاب». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٨٢٦. ومن واجبات الجرائد أيضاً أن تبين الواقع لقرائها وأن تقرر لهم الوقائع.
سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٧٢٢، وج٥ (١٨٧٤) ص ٨٢٩.

(٤) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٥٤٢.

(٥) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ١٤٦.

(٦) سليم البستاني، «اسما». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٢٨٤.

«أن تلاحظ على الذي لا يراعي حقوق العباد بالمحافظة على النظامات والقوانين وباجراء العدالة بدون غرض مالي أو نفساني[1]. وعدم السكوت عن مثل تلك المخالفات سيجعل القوم يرون من عجائب أفعال الجرائد «ما يدهشهم ويسرهم على أنه لا بد من الصبر لأن هذه الأمور لا تتم إلاّ شيئاً فشيئاً»[2]. وعند شرحه للقانون الأساسي العثماني (دستور سنة ١٨٧٦)، وبصورة خاصة المادة الثانية عشرة منه التي تنص أن «تكون المطبوعات مطلقة في دائرة القانون»[3]، حدد مهمة الجرائد بنشر المعارف وتنبيه عامة الشعب إلى حقوقهم والتزاماتهم[4] وأوضح أنه تقرر في عقول الناس نتيجة لتجاربهم وخبراتهم:

«أن المطبوعات عموماً، ولا سيما الجرائد العلمية والسياسية والإصلاحية والصناعية والطبية، هي علة نشر المعارف بين الأمم. والمعارف هي أساس التقدم والنمو. وإنها من أعظم أسباب تنبيه الأمم إلى حقوقها وأغلاطها، واظهار احتياجاتها وصيانة حقوقها من تعدي المأمورين، ومغايرات أهل القضاء وغير ذلك»[5]. وعندما اصدر أسعد باشا، الصدر الأعظم، سنة ١٨٧٥ أمراً يقضي بمطالعة الجرائد قبل طبعها «فانقطعت عن الصدور أو صدرت فيها قصص مضحكة أو غير ذلك فاضطرب الناس وأي اضطراب»[6] مما اضطر الصدر والأعظم الغاء أمره الجائر بحق الصحافة. علق سليم البستاني على هذا الحدث محدداً أهمية الدور الذي تلعبه الجرائد بقوله: «لأن دولاب العالم في هذا الزمان يدور على الأخبار ودليله الأفكار وينبوعها الجرائد. ولا

---

(١) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٥٤٢.

(٢) سليم البستاني، «التوفير والسياسة». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٧٩١.

(٣) سليم أحمد فارس الشدياق. كنز الرغائب في منتخبات **الجوائب**. ج٦ ص ٧ «القانون الأساسي». **الهلال** ج١٧ (١٩٠٨) ص ٨٩ ـ ١٠٢.

(٤) حدد أحمد فارس الشدياق مهمة مجلة **الجوائب** (١٨٦٠ ـ ١٨٨٧) والغاية من إنشائها بأنها: «حث الناس على التمدن والصنائع والمعارف وإسداء المعروف وعلى الالفة والاتحاد وإزالة الخلاف والنزاع من بينهم. **الجوائب**، العدد ٦٩٢ تاريخ ٢٢ نيسان ١٨٧٤ ص ١. وذكر خليل سركيس صاحب جريدة **لسان الحال** أن الجرائد هي: «خزينة معارف ومعلومات يفتحها من احتاج إلى شيء من كنوزها، ومنارة تنير بواخر الافهام في بحار الأوهام». خليل سركيس «افتتاحية السنة الثانية». **لسان الحال**. العدد ٩٩ تاريخ ٢١ تشرين الأول ١٨٧٨ ص ١.

(٥) سليم البستاني، «توضيح النظامات الأساسية». **الجنان** ج٨ (١٨٧٧) ص ٢٧٥.

(٦) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٧ (١٨٧٦) ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧.

تعرف أهميتها عند العارفين بالأحوال وغيرهم بعض المعرفة إلا عندما يحرمونها»[1].

رئاسة تحرير الجنان

إن معظم كتابات المجلات العربية في الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين، تأليفاً وتصنيفاً وترجمة، كانت من أقلام رؤساء تحريرها. فغالبية كتابات **الجوائب** هي من قلم الشيخ أحمد فارس الشدياق،[2] **والجنان** من قلم سليم البستاني[3] **والمقتطف** من قلم الدكتور يعقوب صروف،[4] **والعروة الوثقى** من قلم الشيخ محمد عبده،[5] **والهلال** من قلم جرجي زيدان،[6] **والمنار** من قلم الشيخ محمد رشيد رضا،[7] **والمشرق** من قلم الأب لويس شيخو.[8] لذلك لا بد هنا من ذكر نبذة عن حياة سليم البستاني، الذي ترأس تحرير مجلة **الجنان** منذ صدورها في الأول من كانون الثاني سنة ١٨٧٠ إلى الأول من أيلول سنة ١٨٨٤، ثم عن حياة أخيه نجيب الذي خلفه في رئاسة تحريرها حتى الأول من حزيران سنة ١٨٨٦ حين توقفت عن الصدور.

أولاً: سليم البستاني

إن سليم البستاني هو بكر انجال المعلم بطرس البستاني. ولد في قرية عبيه،

---

(١) المصدر ذاته.

(٢) **الجوائب**، العدد ٦٩٢ تاريخ ٢٢ نيسان ١٨٧٤ ص ١. انشئت الجوائب سنة ١٨٦٠.

(٣) «اتحاد الجنان والجنة ولسان الحال». **الجنان** ج١٢ (١٨٨١) ص ٧٠٧. «قام بكتابة أكثر مقالاتها».

(٤) يعقوب صروف. «المقتطف والعلم في عشرين عام». **المقتطف** ج٢٠ (١٨٩٦) ص ٣٢٥. قال «كل ما لم ينسب إلى غيرنا هو من قلمنا».

(٥) محمد رشيد رضا. **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**. القاهرة، مطبعة المنار، ١٩٣١ ج١ ص ٢٨٩. «العبارات كلها للشيخ محمد عبده».

(٦) **الهلال** ج١٠ (١٩٠١) ص ٩٢. «كل ما ينشر في الهلال يكتبه منشىء الهلال إلا المقالات أو الفقرات التي يذكر اسم كاتبها».

(٧) ذكر محمد رشيد رضا أنه «هو المحرر والمصحح وليس لغيره في المنار عمل إلا ما كان من قول نسب إلى قائله». **المنار** ج٧ (١٩٠٤) ص ٢٦٦.

(٨) راجع **فهارس المشرق العام ١٨٩٨ ـ ١٩٥٠** ص ٣١ ـ ٥٠.

قاعدة مقاطعة الشحار، سنة ١٨٤٦[1] عندما كان والده يساعد الدكتور كرنيليوس فان ديك بمهام التدريس في مدرسة عبيه التابعة للمرسلين الأميركان. وكانت مدرسته الأولى بيت أبيه[2] حيث «غذي لبن الفضيلة والآداب وربي في بيت العلم والمعارف»[3]، والثانية مدرسة مسس وطسن الانكليزية في بيروت حيث أخذ عنها اللغة الانكليزية فبرع فيها وفاق سائر أترابه، ثم أحكم اللغة الفرنسية بعناية الشيخ خطار الدحداح وقرأ اللغة العربية على العلامة الشيخ ناصيف اليازجي، وأتقن معرفة اللغة التركية لغة الدولة الحاكمة وقتئذ[4].

وفي سنة ١٨٦٢ أدخله والده قنصلية الولايات المتحدة الأميركية في بيروت ليقوم مقامه بأعمال الترجمة للقنصلية لانصراف اهتمام المعلم بطرس البستاني يومئذ إلى انشاء المدرسة الوطنية. فنبغ سليم أثناء ذلك «في الفن السياسي والاقتصادي والاداري، وقد دار على يديه جل أعمال القنصلية، فأعجب به رئيسه غاية الأعجاب، وحارت بألمعيته الألباب فكان غلاماً في العمر والجسم ولكنه كهل في الرأس والقلب»[5]. وكتب خلال تلك الفترة رسائل ضافية وأقدم على ترجمات عديدة إلى

---

(١) «المرحوم سليم البستاني». **النشرة الأسبوعية** ج١٤ العدد ٤٠ تاريخ ٢٩ أيلول ١٨٨٤ ص ٣١٧. **ثمرات الفنون**، العدد ٤٩٦ تاريخ ٢٢ أيلول ١٨٨٤ ص ١. بينما ذكرت **لسان الحال** انه من مواليد سنة ١٨٤٧. «فاجعة سليم»، **لسان الحال**، العدد ٧١٢ تاريخ ٢٥ أيلول ١٨٨٤ ص ١. ونقلت المقتطف ذلك. **المقتطف** ج٩ (١٨٨٤) ص ٤٩. ذكر طرازي ج٢ ص ٦٨ بانه من مواليد سنة ١٨٤٨ ونقل ذلك سركيس، عمود ٥٥٩، والزركلي ج٣. ص ١٧٧ وكحالة ج٤ ص ٢٤٤ وداغر ج٢ ص ١٨٦ ونجم ص ٤١ وغيرهم.

(٢) ان سليم البستاني هو القائل بأن «حصن العائلة مدرسة الأب وينبوع التقوى وروضة الالفة والاتفاق وجنة الراحة والرفاهية والسعادة. سليم البستاني. «ان التي تهز السرير بيسارها تهز الأرض بيمينها». **المقتطف** ج٧ (١٨٨٣) ص ٧١٠. «الا يعلمون أن مدرسة الولد في أول الأمر إنما هي مدرسة والديه المبنية على أساسات القدوة والحكمة». سليم البستاني. «أم الدنيا». **الجنان** ج١ ص ٣٢٢.

(٣) «فاجعة سليم». **لسان الحال**، العدد ٧٢١ تاريخ ٢٥ أيلول سنة ١٨٨٤ ص ١. **والجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٦٣٥، وج٤ (١٨٧٣) ص ١٧٦.

(٤) المصدر ذاته. **والنشرة الأسبوعية** ج١٤ العدد ٤٠ تاريخ ٢٩ أيلول ١٨٨٤ ص ٣١٧ وطرازي، **تاريخ الصحافة العربية** ج٢ ص ٦٨. وداغر، **مصادر الدراسة الأدبية** ج٢ ص ١٨٦.

(٥) «فاجعة سليم». المصدر ذاته.

اللغة العربية، «كل ذلك ولم يكن عذار خده قد بقل بعد»[1]. واستمر في شغل هذا المنصب حتى سنة ١٨٧١ حين اعتزل عمله هذا ليتفرغ كلياً لمساعدة والده وأقبل يضافره في مهماته الأدبية والعلمية. وانتدبه والده، أثناء ذلك، لتولي نيابة رئاسة المدرسة الوطنية فبذل جهداً مشكوراً في إحكام قوانين التدريس فيها وتدبير شؤونها كما تولى بنفسه تعليم الصفوف العليا اللغة الانكليزية وغيرها من مواد التدريس إلى أن أغلقت أبوابها سنة ١٨٧٧.

وفي سنة ١٨٧٠ أنشأ له والده مجلة **الجنان** وجريدة **الجنة** ثم جريدة **الجنينة** سنة ١٨٧١ وعهد إليه برئاسة تحرير هذه النشرات الدورية الثلاث فقام «بكتابة أكثر مقالاتها ولاحظ سياستها ومنشوراتها»[2] واشتغل مع والده خلال تسع سنوات ابتداء من سنة ١٨٧٤ حتى سنة ١٨٨٣، في تأليف ستة أجزاء من كتاب **دائرة المعارف**، ثم انفرد في تأليف وطبع الجزء السابع واعداد الجزء الثامن منها. وشرع سنة ١٨٨٤ في ترجمة كتاب **دائرة المعارف** إلى اللغة التركية وألف لذلك لجنة من خيرة كتاب التركية برئاسة خلقي أفندي، رئيس المكتب السلطاني في بيروت، فأنجزت منها نحو مجلدين فقط. وكان ينوي الذهاب إلى الآستانة العلية لعرض مشروعه هذا على السلطان عبد الحميد الثاني ولكن لم يتم له ذلك[3]. إن كتاباته جميعها، لو جمعت في سفر واحد لكان يشكل «أجل ما سطر القلم وما رقش من ضروب الأدب والحكم والسياسة والاقتصاد والإدارة والتاريخ والنصائح والفكاهات بنفس طاب وذهن وقّاد ذلت لديه الصعاب»[4].

لقد قصد سليم البستاني مصر مرتين[5] لترويج مصنفات والده، وبصورة خاصة مجلة **الجنان** وكتاب **دائرة المعارف**، وعاد منها، «والحقائب تحدث عن مكارم الحضرة الخديوية (إسماعيل باشا) وجريها على سنن الدولة العلية في تعضيد مشروعاته وترويج

---

(١) المصدر ذاته.

(٢) «اتحاد الجنان والجنة ولسان الحال». **الجنان** ج١٢ (١٨٨١) ص ٧٠٧.

(٣) يذكر سليمان البستاني انه قصد الاستانة سنة ١٨٨٦ لعرض مشروع إبن عمه على أولياء الأمور ولكن محاولته هذه باءت بالفشل بسبب شدة المراقبة. **عبرة وذكرى**، ص ٧٣ ـ ٧٤. **لسان الحال**، العدد ٧١٢ تاريخ ٢٥ أيلول ١٨٨٤ ص ٢. طرازي ج٢ ص ٧٠.

(٤) «فاجعة سليم». **لسان الحال**، المصدر ذاته.

(٥) سليم النقاش. «فوائد الروايات». **الجنان** ج٦ (١٨٧٥) ص ٥١٩.

مصنفاته، حتى أنها اكتتبت على يده بمئات من نسخ دائرة المعارف وأفاضت إليه بكنوز من خزانات الأدب في سائر الفنون وتواريخ العرب»[1] فكان بذلك الساعد الأيمن لوالده في معظم أعماله الأدبية والعلمية. وفي سنة ١٨٨٠[2] نشأت فيه الرغبة للانخراط في سلك رجال الأعمال ففتح محلاً تجارياً في بيروت «ولكنه لم يفلح فأعاد أموره إلى نصابها الأول كأنما قدر عليه أن يحيى ويموت مكابداً خدمة العلم والسياسة وهكذا اتفق»[3]. وعمل بنشاط في الجمعية العلمية السورية «التي كان نائباً لرئيسها ومن أهم أركانها، وانتخب عضواً لبلدية بيروت[4]، وخطب في حفلة تخرج مدرسة البنات السورية الإنجيلية في بيروت سنة ١٨٨٣[5]، كما كان عضواً بارزاً في «المجمع العلمي الشرقي» في بيروت.

أخلاقه وصفاته وعاداته

كان سليم البستاني قوي البنية، جميل المنظر، أسمر اللون، أسود الشعر، كبير العينين متوقدهما، سريع الخاطر، موصوفاً بدماثة الأخلاق وحدة الذكاء، جامعاً بين علو الهمة وشهامة النفس، «ومن أحسن الناس ارتياحاً إلى مواساة البائسين وتفريج المكروبين مقصوداً بالحاجات من كل صوب، لا يرد قاصداً، ولا يخيب آملاً، ولا ينقض وعداً، ولا يحل عهداً، كلفاً باصطناع المحامد، حريصاً على ولاء الأصدقاء، متجافياً عن محاقدة الأعداء، آية في الرقة واللطف، وديعاً، سليماً في السيرة والسريرة، ساحراً في المحاضرة كأنما جسم من اللطف، بصيراً في مرضاة الخلق، ماضياً في حسم المشاكل وحل العراقيل، رحب الصدر لا يغضبه أمر مهما كان عظيماً»[6]. وكان محباً للمطالعة والكتابة والترجمة «لا يصرفه عن الشغل إلاّ النوم

---

(١) «فاجعة سليم». لسان الحال، المصدر ذاته.

(٢) الأرجح أنه قام بذلك إثر نقل مدحت باشا، والي سورية، إلي ولاية ازمير.

(٣) «فاجعة سليم». لسان الحال، المصدر ذاته.

(٤) لسان الحال، العدد ٧٢ تاريخ ١٨ تموز ١٨٧٨ ص ١. نال سليم البستاني ٤٩٤ صوتا بينما نال بشارة الهاني أكبر عدد من الأصوات بلغ ٦٧٢ صوتاً.

(٥) سليم البستاني. «إن التي تهز السرير بيسارها تهز الأرض بيمينها»، المقتطف ج٧ (١٨٨٣) ص ٧٠٩ ـ ٧١٢، و/ ٨ (١٨٨٣) ص ٧ ـ ١٢.

(٦) «فاجعة سليم». لسان الحال، العدد ٧١٢ تاريخ ٢٥ أيلول ١٨٨٤ ص ٢. طرازي، تاريخ =

ومسامرة الأهل والزوار، ولم ينم إلاّ نحو ست ساعات في اليوم، ولم تشرق عليه الشمس نائماً»[١]، وكان قلمه في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر «أعظم ترجمان للتمدن الغربي في ديار الشرق»[٢].

ومن عاداته أنه كان لا يكتب إلاّ وطاولته نظيفة مرتبة جيداً ولم تكن مجالسته لزواره ومخاطبتهم ومسايرتهم لتمنعه من الاستمرار في الكتابة. وقد يكون مستغرقاً في كتابة موضوع سياسي مهم «والقلم في يده فيحادث زائره في شأن آخر، وقد يطول الحديث ساعة فإذا فرغ منه عاد إلى الكتابة كأنه لم يتركها لحظة ولا تنقطع سلسلة أفكاره»[٣].

وفاتـه

لم يدر في خلد أعضاء المجمع العلمي الشرقي في بيروت الذين كلفوا سليم البستاني سنة ١٨٨٤ القيام باعداد خطبة يتلوها في مجمعهم بعد انقضاء فترة الصيف في شهر تشرين الأول «أن يد البين تغتاله في نضرة العمر وزهرة الشباب»[٤] وتقضي عليه بنوبة قلبية بتاريخ التاسع عشر من شهر أيلول سنة ١٨٨٤ في قرية بوارج، احدى قرى محافظة البقاع، حيث كان في ضيافة حميّه أيوب ثابت «ترويحاً للنفس الأبية الزكية من جهد الاشتغال، وتنزيهاً للخاطر الوقّاد من معاناة مشاق التصنيف والتأليف، اتباعاً لرأي الأطباء وإجابة لرغائب الأحباء الذين كان يعز عليه مخالفتهم وأن عز عليه من الجانب الآخر التخلي عن العمل ولو إلى أجل مضروب»[٥].

قام، أثناء الاحتفال بجنازة سليم البستاني، بالخدمة الدينية في مسكنه وفي الكنيسة الإنجيلية القسوس اللاهوتيون الدكتور كرنيليوس فان ديك والدكتور جيمس أنس (James Dennis) وصموئيل جسب (Samuel Jessup) وشيعه إلى الرمس الأخير

= الصحافة العربية ج٢ ص ٦٩.

(١) «خطب عظيم ومصاب عميم» المقتطف ج٩ (١٨٨٤) ص ٥٠.

(٢) طرازي، ج٢ ص ٦٩.

(٣) «عادات الكتاب في الشرق». الهلال ج١٣ (١٩٠٥) ص ٣٠٢.

(٤) «خطب عظيم ومصاب عميم». المقتطف ج٩ (١٨٨٤) ص ٥٠.

(٥) «فاجعة سليم». لسان الحال، العدد ٧١٢ تاريخ ٢٥ أيلول ١٨٨٤ ص ٢.

عدد غفير من علية القوم وخيارهم ووكلاء الدول الأجنبية المعتمدة في بيروت وخفراء الحكومة «في خطوط من الخلق تبدأ عند باب البيعة وتنتهي عند رحبة البرج»[1]. وقبل مواراته جدث الرحمة أبّنه كل من إلياس طراد وسامي قصيري وفارس نمر، أحد صاحبي **المقتطف**، الذي جاد «بكلام جزل بالغ في البلاغة، فأعظم الرزيئة وأكبر المصاب وعدد محامد فقيدنا وأتى على ذكر آثاره الجليلة، ورق في التأبين حتى صدع الكبود»[2]، معرباً عما قام في نفوس معاصريه من الحزن الشديد على فقده. ومما قاله: «ليس الرزيئة فقد المال ولا معاكسة الأحوال:

ولكـــن الـــرزيئـــة فقـــد حـــر   يمـــوت لمـــوتـــه خلـــق كثيـــر

وأنهى تأبينه بقوله:

كنـــا كـــأنجـــم ليـــل بينهـــا قمـــر   يجلو الدجى فهوى من بينها القمر[3]

ووردت على أهله تآبين ومراثي عديدة اثبتت جريدة **لسان الحال** المنثور منها واقتطفت نماذج من الاشعار المنظومة[4]. منها قصيدة لشاعر القطرين خليل مطران الذي كان وقتئذ طالباً في المدرسة البطريركية في بيروت، جاء فيها:

«ذئـب المنيـة ضيـف كـل مكـان   يلـــوي عـــن الأيـــام بـــالإنســـان

ومنها:

لو تشترى الأرواح من سجن النوى   لفـــدت سليـــم الـــروح والعينـــان

ومنها:

ما كل من سكن القبور كمن ترى   سكـن المـديـح وأسـود الأجفـان

ومنها:

يمضي السليم ولا غصون بعده   إلاّ ذوت لمنيـــة البستـــانـــي»[5]

ورثاه الشيخ خليل اليازجي بقصيدة جاء فيها:

---

(١) المصدر ذاته.

(٢) المصدر ذاته.

(٣) «خطب عظيم ومصاب عميم». **المقتطف** ج٩ (١٨٨٤) ص ٥٠ أوضح ذلك بقوله: «وكم ليلة أحييناها في المذاكرات العلمية والمسامرات الأدبية».

(٤) راجع **لسان الحال** ما بين العدد ٧١٢ تاريخ ٢٥ أيلول ١٨٨٤ والعدد ٧٣٢ تاريخ ٤ كانون الأول ١٨٨٤.

(٥) **لسان الحال**، العدد ٧١٨ تاريخ ١٦ تشرين الأول ١٨٨٤ ص ٤.

«وهو الموت إلاّ إن خطبك أعظم ورزؤك في الأرزاء أشجى وأجسم

ومنها:

لك الله ميتاً كالقتيل ولم يسل له من دم لكن مدامعنا الدم

ومنها:

فقدنا بني الأوطان عضواً مكرماً كجسم مضت منه يد فهو أجذم

ومنها:

على مثله يبكى وهيهات مثله فتى طاب منه القلب واليد والفم

ومنها:

لئن غاب عنا النيران فقد بقي شهاب يعيد الصبح والليل مظلم»[1]

كما رثاه الأمير شكيب أرسلان بقصيدة جاء فيها:

«الدهر أفتك فارس بطراده أبداً وأكثر فتكه بجياده

ومنها:

فلبئس عيش بات مخترما به مثل السليم رزيئة لبلاده

ومنها:

فمضى بعيد أبيه في أجل أبى إلاّ اتصال حداده بحداده

ومنها:

أيام باهر مجده يذر السهى وكواكب الأفلاك من حساده»[2]

ولقد خلف سليم البستاني، بالإضافة إلى تراث أدبي وعلمي ضخم، ولداً وحيداً يدعى حبيباً درس فن الزراعة في أوروبا وسكن في مصر مع والدته السيدة حنة بنت أيوب ثابت[3].

ثانياً: نجيب البستاني.

إن نجيب البستاني هو ثالث أنجال المعلم بطرس البستاني[4]. ولد في بيروت

---

(١) **لسان الحال**، العدد ٧٢٥ تاريخ ١٠ تشرين الثاني ١٨٨٤ ص ١.

(٢) **لسان الحال**، العدد ٧٣٢ تاريخ ٤ كانون الأول ١٨٨٤ ص ١.

(٣) طرازي، **تاريخ الصحافة العربية**، ج٢ ص ٦٩ ـ ٧٠. وملحم البستاني، **كوثر النفوس**. جونية، ١٩٥٤ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥.

(٤) عرف من أولاد المعلم بطرس البستاني: سليم ونسيب ونجيب وأمين واديليد واليس وسارة. =

سنة ١٨٦٢ . كانت مدرسته الأولى بيت أبيه حيث تلقن أفضل المناقب وأجودها، ثم دخل المدرسة الوطنية التي أسسها والده والتي خولته شهادتها الالتحاق بالكلية السورية الإنجيلية في بيروت ولكنه لم يتخرج منها بسبب اضطراره ترك الدراسة للاهتمام بمشاريع والده وأخيه سليم. لقد درس اللغات العربية والفرنسية والإنكليزية واللاتينية والتركية واتقنها جميعاً اتقاناً جيداً. عينه والده سنة ١٨٨٢ مساعداً له في تأليف كتاب دائرة المعارف وكان العمل جارياً وقتئذ في تأليف المجلد السادس منها، فبذل جهداً مشكوراً في التأليف، «فكان من جملة ما أنشأه مقالة ضافية عن روسيا[١] أجازه عليها القيصر بعد ذلك بوسام «القديس استلانس من الطبقة الثالثة»[٢] وبعد وفاة أخيه سليم سنة ١٨٨٤ أصبح رئيساً لتحرير مجلة الجنان وجريدة الجنة حتى الأول من حزيران سنة ١٨٨٦ ، وطبع الجزء الثامن من دائرة المعارف الذي كان أخوه سليم قد أعده للطبع، ثم اتفق ورثة المعلم بطرس البستاني على أن ينيطوا بنجيب العمل لاتمام هذا المشروع العظيم «فكتبوا له العقود الرسمية وحولوا إلى اسمه حقوق اشتراك الحكومة المصرية»[٣] في دائرة المعارف. وذهب إلى مصر سنة ١٨٨٦ بناء على دعوة من الوزير المصري رياض باشا للنظر في بعض شؤون الدائرة «فحظي مراراً بمقابلة توفيق الأول خديوي مصر الذي شمله بالتفاته ووعده بالعطف على مشروع دائرة المعارف شداً لازره في تأليفه ونشره»[٤]. فاستعان بأخيه نسيب ومؤازرة ابن عمه سليمان البستاني، مترجم الإلياذة إلى اللغة العربية، في تأليف الجزء التاسع وطبعه في بيروت سنة ١٨٨٧[٥]. وفي تلك الأثناء اتفق نجيب وشقيقه نسيب مع إبن عمهما سليمان على تأليف ونشر كتاب الدائرة في مصر نظراً لشدة المراقبة على المطبوعات في الديار الشامية وقتئذ[٦]. فسافر نسيب إلى القاهرة مصحوباً بمواد الكتاب حيث تم فيها تأليف وطبع الجزءين العاشر والحادي عشر وانتهى العمل كلياً بالدائرة عند كلمة «عثمانية» بالرغم من الحاح

= كوثر النفوس، ص ٣٥٣ ـ ٣٥٥.

(١) «روسيا». دائرة المعارف. ج٩ ص ٣ ـ ٣٧.

(٢) «نجيب البستاني». طرازي، تاريخ الصحافة العربية، ج٢ ص ١٧٠ .

(٣) المصدر ذاته.

(٤) المصدر ذاته.

(٥) دائرة المعارف، بيروت، مطبعة المعارف، ١٨٨٧، المقدمة.

(٦) طرازي، تاريخ الصحافة العربية ج٢ ص ١٧٠ .

محبي نشر المعارف وتعليقهم الآمال على نجيب وابن عمه في إكمال تأليفها وطبعها[١].

وفي سنة ١٨٩٣ عين عضواً فخرياً في دائرتي الحقوق والجزاء في بيروت وعضواً عاملاً في مجلس المعارف فيها فشغل هذا المنصب الأخير سنة كاملة[٢]. وانتدبه نعوم باشا، متصرف جبل لبنان، سنة ١٨٩٥ لرئاسة محكمة المتن «فخدمها ست سنين بالنزاهة المشهورة عن ال البستاني»[٣]. كما تولى وظيفة المدعي العام الاستئنافي في مركز متصرفية جبل لبنان سنة ١٩٠٠ فقضى فيها خمس سنوات حيث استقال منها ليسافر إلى مصر بغية مزاولة مهنة المحاماة هناك. وبالإضافة إلى وسام «القديس استلانس من الطبقة الثالثة» من قيصر روسيا، فقد أحرز نجيب وسام «القديس غريغوريوس الكبير» من البابا لاون الثالث عشر، وحاز على «الرتبة المتمايزة» من السلطان عبد الحميد، والوسامين «العثماني الثالث» و«المجيدي الرابع» من السلطان محمد الخامس. وعين عضوا في «الجمعية الأسيوية الإيطالية»[٤].

ولنجيب البستاني خطبتان، القى أولاهما في الاحتفال السنوي لجمعية شمس البر في بيروت عن فينيقيا والفينيقيين، وتلا الثانية في احتفال مدرسة شمس البر في بيروت عن غرائب العلم، طبعتا في مجلة المقتطف[٥]. وله أيضاً كتاب «ذكرى ومشاهدات في الاستانة»[٦] الذي وصف فيه مشاهداته في القسطنطينية عاصمة السلطنة العثمانية، عندما ذهب إليها سنة ١٩٠٩ مع وفد من أعيان الجالية المسيحية في مصر لتهنئة السلطان محمد الخامس لدى ارتقائه سدة الخلافة[٧]. قام بعدة رحلات أخرى منها

---

(١) المصدر ذاته، ص ١٧٠.

(٢) طرازي، **تاريخ الصحافة العربية** ج٢ ص ١٧٠.

(٣) المصدر ذاته. داغر. **مصادر الدراسة الأدبية**، ج٣ ص ١٤٤٣.

(٤) المصدر ذاته.

(٥) نجيب البستاني. «فينيقية والفينيقيون». **المقتطف** ج١٤ (١٨٩٠) ص ٧٢٩ ـ ٧٣٥: «غرائب العلم». **المقتطف** ج٢٦ (١٩٠١) ص ٢٩٧ ـ ٣٠٥. تأسست جمعية شمس البر في بيروت سنة ١٨٧٠. **النشرة الأسبوعية** ج٦ (١٨٧٦) ص ١٠٨ ـ ١٠٩.

(٦) نجيب البستاني. **ذكرى ومشاهدات في الاستانة**. مصر، ١٩١٤. **معجم المطبوعات العربية والمعربة**، عمود ٥٦١.

(٧) طرازي، **تاريخ الصحافة العربية**. ج٢ ص ١٧٠.

رحلة إلى الولايات المتحدة الأميركية حين ألف مع عدد من أبناء الديار الشامية شركة لتمثيل العادات الشرقية في «معرض شيكاغو» سنة ١٩٠٩، كما سافر سنة ١٩١٢ إلى إيطاليا وسويسرا وفرنسا[١]. وقد دعي مرتين إلى مؤتمر المستشرقين في استوكهلم (١٨٨٨) وروما (١٨٩٩). وكلف باعداد بحث عن تاريخ النَوَر وأحوالهم وأخلاقهم ولكن كثرة أشغاله منعته من حضور مؤتمر روما فتلي البحث عنه[٢]. توفي في بيروت سنة ١٩١٩.

وعرف نجيب البستاني بأنه كان «أبي النفس، لطيف المحاضر، حسن المبادىء، ورث عن أبيه محبة نشر العلوم»[٣]. ولقد خلف أربعة أولاد، هم: بيار ورينيه وهنري وشارل[٤].

خطة الجنان

اتبع سليم البستاني، خلال مدة رئاسة تحريره لمجلة **الجنان**، خطة حيادية تقضي بألا يتحزب لجهة دون جهة من الجهات المختلفة، وأبتعد كل البعد عن الهوى والغرض المضرين في نشر الحقائق، واتخذ لنفسه قاعدة تقرير حقائق الأمور بدون محاباة لأي من الأطراف المعنية. وذلك لأنه، على حد قوله، كان لا يخاف عداوة المعتدين ولا سطوة الظالمين ما دام الصدق مسنده والاستقامة أساس أعماله ولأنه قد صمم على خدمة وطنه ودولته بالحق مع قطع النظر عما قد يصادفه من حسن المجازاة وسوء العواقب[٥]. وبالرغم من عدم انتصاره لقوم دون قوم لقد كان يسوّغ لنفسه الانتصار لوطنه وقومه عندما يرى باباً يسوّغ له ذلك[٦].

كان دأب مجلة **الجنان** إبراز حقائق الأمور من جميع زواياها وذلك ليقف القراء على الحقيقة الجلية بدون إخفاء لأي من أطرافها تعميماً للفائدة واستيفاء لمعالجة الموضوع «لأنه من المعلوم أن لكل شيء علمي وجهين: وجهاً مليحاً ووجهاً قبيحاً.

---

(١) المصدر ذاته.
(٢) المصدر ذاته. داغر. **مصادر الدراسة الأدبية**، ج٣ ص ١٤٤٤.
(٣) المصدر ذاته.
(٤) ملحم البستاني. **كوثر النفوس**، ص ٣٥٦.
(٥) سليم البستاني. «الدفاع». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٥٣٨.
(٦) «الجنان». **الجنان**. ج١ (١٨٧٠) ص ٥١٥.

لأن ذكر جهة واحدة وضرب الصفح عن الجهة الأخرى هو مما يخل بأصول الاستقامة والأمانة»[١]. وكان سليم البستاني يدرك تمام الإدراك أن محرر الجريدة مهما بلغ من حسن الانصاف والتجرد لا يستطيع أن يرضي جميع الناس ذوي الآراء والنزعات المختلفة، كما أن تجنب الجريدة الخوض في معالجة بعض الأمور غير المتفق عليها يقلل من قيمتها الأدبية والفكرية لأن الغاية المتوخاة من المحاورات والمناظرات في الجرائد هو الإطلاع على مختلف وجهات النظر المتباينة، ولذلك إن إرضاء جميع قراء **الجنان** هو ضرب من المحال لكونهم من مشارب متنوعة وذوي أغراض وميول كثيرة، فكان إذن:

«من الموافق لصالح **الجنان** أن يضرب صفحاً عن جميع المسائل الاختلافية وعن الأمور التي لا ترضي جميع مطالعيه، غير أن ذلك يجرد منه الفائدة المقصودة ويجعله مداد على قرطاس لا ينفع ولا يضر. فبناء على ذلك لا يسوّغ لمن يرى شيئاً مخالفاً لمشربه في **الجنان** أن يظن أنه سار على قدم الغرض. حاشا. فإن غرض الجنان إنما هو عدم الغرض. ولكن ما الحيلة إذا كان اعتقاده غير اعتقاد بعض قرائه في بعض الأمور أو إذا زلت به القدم. ويا حبذا لو بادر الذين يعثرون على ما هو مخالف لآرائهم إلى إيضاح ذلك كتابة وإرساله إلى **الجنان** لينشر تحت اسمهم. لأنه معلوم أن القصد إنما هو الحصول على الفائدة بمبادلة الأفكار»[٢].

سياسة الجنان

اتخذت **الجنان** لنفسها سياسة «مراعاة الصالح العام»[٣] دون الاهتمام بالأمور الشخصية، لأن الأمور الشخصية لا تستحق اهتمام الجمهور. وسياسة عدم اهتمامها هذه بالأشخاص لم تجعلها تهمل نشر مآثر ذوي المآثر المحمودة ولا أن تضيع فضل أهل الفضل منهم[٤]، لأن، على حد قول رئيس تحرير **الجنان** سليم البستاني، ما من شيء أحب إلى الجرائد المنصفة والمنزهة عن التحزبات والأغراض «من تزيين

---

(١) المصدر ذاته.

(٢) «الجنان». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٥١٥.

(٣) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٩ (١٨٧٨) ص ٣٥١، وج١٣ (١٨٨٢) ص ٣٢٤.

(٤) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج١٣ (١٨٨٢) ص ٩٧.

صفحاتها بنشر فضل الذين ينقلون الأمم من حال إلى حال بحكمتهم وحذقهم وهمتهم وإقدامهم»[1]. ونتيجة لرسوخ إيمان **الجنان** بصحة هذه السياسة اتبعت قاعدة تجاه المأمورين والحكام وأولياء الأمور وأهل السياسة بعدم مدحهم قبل ظهور منجزاتهم، لأن «مدح أهل المراتب العالية قبل أن نرى نتائج أعمالهم خطأ مبين وخداع يخدع الذين يدفعون أموالهم للجرائد ليقفوا على حقائق الوقائع والأمور»[2] وبما ان لا فائدة ترجى في مدح جريدة شأنها المدح في جميع الأحوال لانكشاف أمرها بعد مدة قصيرة فيصبح مدحها للحكام سبباً لتكدير القراء «وعلى الخصوص عندما يرون أنهم يصرفون ما يجنون بعرق جبينهم ليشتروا كذباً يضر بصاحبه ويضرهم ويضر دولتهم وبئس ما اشتروا»[3]. لأن في اعتقاد سليم البستاني أن الجريدة التي «لا تمدح إلاّ عندما يحدث ما يستحق المدح هو خير من مدح جريدة كاذبة، ولو مدحت مرتين ولامت مرة وصمتت أخرى، لأن مدحها يكون مدحاً صحيحاً»[4] مع الأخذ بعين الاعتبار بأن الحكيم من محرري الجرائد هو «من يراعي ظروف المكان والزمان وينتظر الفرج وهو معتصم بالصبر»[5] وبأن المهرب الوحيد للكاتب «الذي يكتب في بلاد كبلادنا أو كروسيا وغيرهما من بلدان العالم التي لا تسمح قوانينها بحرية الكتابة»[6]، أن يسكت إذا ما حالت القوانين المرعية دون تقرير اعتقاده في أمر من الأمور أو تقرير ما يخالفه لأنه، في هذه الحالة، إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب. وعلى الكتّاب حينئذ أن يقرروا نسج كتاباتهم بأساليب تستدعي تدقيق نظر القارىء، فإذا ما أراد أحد هؤلاء الكتاب «أن يذم عدم الحرية في بلاد غير حرة يقدر أن يسكت عن ذم عدم الحرية ويشرع في مدح الحرية»[7]. وخشية أن يساء فهمه يستدرك قائلاً:

«والمأمول أن مطالعي هذه الجملة لا يظنون أن القصد الآن هو استخدام الأسلوب المذكور، لأن اعتقادنا هو أن انتقال الإنسان من الظلمة إلى النور دفعة واحدة

---

(١) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ٦١٤.
(٢) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٥٤٢.
(٣) سليم البستاني. «الكتّاب». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٨٢٦.
(٤) المصدر ذاته.
(٥) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٥٤٢.
(٦) سليم البستاني. «أعجب العجب». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٦١٠.
(٧) المصدر ذاته.

يضر به، كذلك نحن إذا انتقلنا من العبودية الماضية إلى حرية الأمم المتمدنة من أبناء هذا العصر نصادف ضرراً لا مزيد عليه. ونظن أن السبيل الذي أخذت دولتنا في سلوكه من اطلاق العنان شيئاً فشيئاً هو الصواب»[١].

وبالإضافة إلى دعوته باتباع مبدأ التدرج في تغيير الأمور كان يلقي اللوم على العادة المتأصلة عند الإنسان في الشرق في عدم اطلاق العنان لقلمه في معالجة مواضيع ذات أهمية، فكان يقول:

«لو كتبنا في بلدان أوربا المتمدنة حق التمدن لأطلقنا العنان للقلم في ما يأتي بفوائد كثيرة، ويبين للقوم عادات قبيحة لا بد من تغييرها، وأعمالاً كثيرة الفوز في الأقلاع عنها. على أننا لا نقدر أن نسلك هذا المسلك في الشرق لأن عادة الإنسان عنده مكرسة ويعتقد بوجوب المحافظة عليها»[٢]. وكان سليم البستاني يعتقد أنه إذا حال الزمان دونه ودون بلوغه المرام الذي ينشده من الكتابة الصريحة في مجلته فإنه يستخدم أسلوب عدم الإيضاح وتكثير الاستعارات وغير ذلك «مما يسدل ستاراً فوق المقصود، تزيحه يد التدقيق والحذق»[٣]. وأما إذا ما حالت الأمور دون مقدرته من نشر أفكاره فيصمت «صمتاً لسان حاله يتكلم عنا»[٤]. ويظهر أن استمراره في الكتابة والتعبير عن آرائه يدل دلالة واضحة على أنه لم يصل إلى الحالة التي تحتم عليه الصمت المطبق.

إن قاعدة **الجنان** التي استمرت في اتباعها طيلة مدة صدورها كانت عدم التغيّر والتلون بحسب تغيّر الزمان وتقلباته[٥]، وذلك لأن درع محرره كانت «متينة ومجننا يدفع صدمات السيوف. والحيوة غير عزيزة لدينا وعلى الخصوص إذا اضحت فدية للصدق والوطن والناموس فهذا هو عزمنا وبه نسير في غور ونجد وخفض ورفع وسهل ووعر وبر وبحر. لأن عصرنا عصر ثبات واقدام»[٦]. كانت **الجنان** تدعو أيضاً إلى

---

(١) المصدر ذاته، ص ٦١٠ ـ ٦١١.

(٢) سليم البستاني. «اسما». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٣١.

(٣) سليم البستاني. «أعجب العجب». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٦١١.

(٤) سليم البستاني. «وزارتنا الجديدة». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٦٨٣.

(٥) سليم البستاني. «الختام». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٧٣٨.

(٦) سليم البستاني. «الدولة العلية». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٣٥٣. المجن: الترس. ابن منظور،=

الإقلاع عن القيام بالأعمال التي لا تأتي بفائدة عمومية[1] وإنه على الحاذق المدرك أن لا يكشف للدنيا عما ربما يأتيه بخيبة الأمل[2]. وبأن من يفعل «أفعالاً لا تأتيه أو تأتي غيره بالنفع هو جاهل، ومن يعرض نفسه لما لا يأمل منه فائدة هو أحمق، ومن يكشف عما في فؤاده من الميل وعما في فكره من الأفكار بدون أن يجني ثمار المنافع من ذلك هو مجنون»[3]. لأن الحكيم في زمن اصدارها كان الذي «يكتم أمره ويستر أعماله ويسير إلى الشرق على مرأى من الناس حال كون قصده هو الغرب»[4]. ورغم هذه الدعوة المستمرة إلى التكتم لم يصدر أي أخطار من قبل السلطات العثمانية الحاكمة بتوقيف **الجنان** طيلة ست عشرة سنة من اصدارها وذلك لأن شأن **الجنان** في كل الأمور «أن تكون آخر الذين يعصون وأول الذين يطيعون»[5]. لأنها نشأت على ولاء الدولة العلية وخدمة الوطن[6] وتأسست «على رعاية الصالح العام وإصلاح الأفكار والأخبار مراعية جانب الصدق ومصلحة الديار»[7]. ونتيجة لاتباع هذه السياسة لم تعطل مجلة **الجنان** طيلة مدة صدورها كما يستنتج من تسلسل أعداد مجلداتها ـ ٢٤ عدداً في السنة ـ وتتابع تواريخ هذه الأعداد.

ولكن الفيكونت فيليب دي طرازي، صاحب كتاب **تاريخ الصحافة العربية**، يذكر بأن نجيب البستاني، ثالث انجال المعلم بطرس البستاني، اضطر إلى إيقاف صدور مجلة **الجنان** إثر اشتداد المراقبة على الجرائد في ولاية سورية واغتياظ الحكومة العثمانية منه «لنشره ترجمة مدحت باشا زعيم الأحرار العثمانيين. فاصدرت الأوامر بتعطيل جريدة **الجنة** ومجلة **الجنان** مما الحق بصاحبهما خسارة

= **لسان العرب** ج١٣ ص ٩٤.

(١) «الجنان». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٨٢٩.

(٢) سليم البستاني. «الغرض». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٥٤٦.

(٣) سليم البستاني. «الغرض». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٥٤٥.

(٤) سليم البستاني. «اسما». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٣٠. طبق السيد عبد الرحمن الكواكبي (١٨٥٥ ـ ١٩٠٢) هذه القاعدة إذ كتم سر سفره إلى مصر حتى عن أعز أصدقائه وقال بأنه يريد الذهاب إلى الاستانة بينما كان متوجهاً إلى القاهرة. سامي الكيالي. **محاضرات عن الحركة الأدبية في حلب**. القاهرة، جامعة الدول العربية، ١٩٥٧ ص ٩٨.

(٥) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٧٥٨.

(٦) نجيب البستاني. «مقالة افتتاحية». **الجنان** ج١٥ (١٨٨٤) ص ٥٧٧.

(٧) **الجنة**، العدد ١٣٥٩ تاريخ ١٤/١/١٨٨٤ ص ١.

كبيرة»[1]. قد يكون لاشتداد المراقبة على الجرائد بعد سنة ١٨٨٥ الأثر الفعال، لا بل ومن أهم العوامل التي أدت إلى توقف **الجنان** عن الصدور، ولكني أرجح بأن لا علاقة لنشر ترجمة مدحت باشا في ذلك، كما أنه نشر أربعة وأربعين عدداً من **الجنان** بعد تلك الحادثة. وحقيقة الأمر أن جريدة **الجنة**، التي كان يرأس تحريرها سليم البستاني منذ سنة ١٨٧٠، نشرت في العدد ١٣٩٩ تاريخ ٢١ أيار ١٨٨٤/ ٢٦ رجب ١٣٠١ هجرية، ترجمة لمدحت باشا إثر اغتياله، في مدينة الطائف حيث كان منفياً، في منتصف أيار سنة ١٨٨٤ وذلك قبل أربعة اشهر تقريباً من وفاة سليم البستاني باحتقان القلب في ١٩ أيلول ١٨٨٤. ذكرت **الجنة** في ترجمة مدحت باشا أن السلطان عبد العزيز رغب إلى مدحت باشا «في تغيير صلة الخلافة إلى بكر عائلة آل عثمان عدولاً إلى الخطة الأجنبية من اتصالها من الأب بولده البكر فأظهر له مدحت باشا صعوبة ذلك»[2]. فورد اخطار من خليل الخوري، مدير الأمور الأجنبية والمطبوعات في ولاية سورية، موجه إلى «جناب الأكرم عزتلو سليم أفندي البستاني مدير غزتة **الجنة** المحترم «يبلغه فيه عن صدور تلغراف من وزارة الداخلية العثمانية إلى ولاية سورية بوجوب تعطيل جريدة **الجنة** لمدة شهرين اعتباراً من ١٦ حزيران سنة ١٨٨٤ وذلك لأنها «تجاوزت بنوع خارج عن وظيفتها إلى نشر أقاويل الأخبار تتعلق بترجمة حال مدحت باشا المندرجة في نسختها المؤرخة في ٢٦ رجب متضمنة أن حضرة ساكن الجنان السلطان عبد العزيز خان طاب ثراه رغب إليه في تغيير أصول وراثة الخلافة العظمى فلم يخدم ترويج أفكاره»[3]. يتبين من الاخطار المذكور أعلاه ومن تسلسل أعداد مجلة **الجنان** أنه أكتفي بتعطيل **الجنة** فقط. ولم تكن حادثة التعطيل هذه المرة الأولى التي تعطل فيها **الجنة** من قبل السلطات العثمانية بل كان قد سبق أن عطلت ثلاث مرات قبل ذلك بلغ مجموع أيام توقيفها مائة وأربعين يوماً. أولاً: عطلت لمدة عشرين يوماً بسبب اعلانها «إلى الناس لكي لا يدفعوا ديونهم إلى الدولة بدون أن ينظروا إلى الأوامر الرسمية» المتعلقة بتلك الديون[4]. ثانياً: عطلت لمدة شهرين

---

(١) فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية. ج٢ ص ١٠.

(٢) «مدحت باشا». الجنة، العدد ١٣٩٩ تاريخ ٢١ أيار ١٨٨٤ ص ٢.

(٣) «اخطار». الجنة، العدد ١٤٠٦ تاريخ ١٦ حزيران ١٨٨٤ ص ١.

(٤) «اخطار». ثمرات الفنون، العدد ٢٢١ تاريخ ٢٤ آذار ١٨٧٩ ص ٣.

لنشرها «المواد غير الصحيحة فيما يتعلق بادارة لبنان»[1]. ثالثاً: عطلت لمدة شهرين لنشرها أخباراً تدعو إلى «تهييج الأفكار عن الحوادث والأخبار المتعلقة بمصر»[2]. كما أخطرت[3] عدة مرات من قبل مدير الأمور الأجنبية والمطبوعات في ولاية سورية[4]، لنشرها «بعض مقالات ومواد عديمة المناسبة»[5] أو لنشرها «بعض عبارات تعود للشخصيات»[6]، أو لنشرها حوادث من شأنها تخديش أذهان الأهالي[7]. أو لنشرها «ما يغاير مصلحة الدولة العلية ويوجب تخديش أفكار الأهالي»[8]. أو لنشرها أخباراً «سخيفة تتعلق بجبل لبنان»[9]، أو «للتعريض والإيماء ضد متصرفية لبنان الجليلة»[10]. ويعترف سليم البستاني أنه ربما زلت القدم بجريدة **الجنة** أحياناً فنشرت أخباراً لم تحظ برضى السلطات العثمانية الحاكمة فعطلتها أو أخطرتها بتجنب نشر الأخبار «التي تستلزم النقد والمسؤولية»[11]. ولكن هذا لا يعني أن سياسة جريدته كانت مناوئة للسلطة بل إن دعائمها مؤسسة «على خلو الغرض وترويج الاتفاق والاتحاد ومقاومة العناصر المضرة ونشر أخطر الأخبار وترجمة جمل محتوية على أثقب الأفكار وأصوب الآراء»[12] وأن «ولاءها وصدقها واخلاصها للدولة والوطن في تأدية رسالتها الصحفية لا يرقى إليها أدنى شك»[13]. ويدلنا على صحة هذا القول مدى الالتفات والعطف

---

(١) «اخطار». **الجنة**، العدد ١١٤٠ تاريخ ٣٣ آب ١٨٨١ ص ١: و**ثمرات الفنون**، (١٩ أيلول ١٨٨١ ص ٤).

(٢) «اخطار». **البشير**، العدد ٦١٩ تاريخ ٢٠ تموز ١٨٨٢ ص ١: و **الجنة** العدد ١٢١٨ تاريخ ٢١ تموز ١٨٨٢ ص ١ و**لسان الحال**، العدد ٤٨٧ تاريخ ١٢ تموز ١٨٨٢ ص ١.

(٣) تعطل الجريدة إذا ما استلمت ثلاثة إخطارات. سليم سركيس، **غرائب المكتوبجي** (مصر ١٨٩٥) ص ١٢.

(٤) خليل الخوري، صاحب **حديقة الأخبار**، أول جريدة صدرت في لبنان سنة ١٨٥٨.

(٥) «اخطار». **الجنة**، العدد ١١٥٦ تاريخ ٢٦ كانون الأول ١٨٨١ ص ١.

(٦) **لسان الحال**، العدد ٤٢٥ تاريخ ١٥ كانون الأول ١٨٨١ ص ٣.

(٧) «اخطار». **الجنة**، العدد ١٢١٦ تاريخ ١٤ تموز ١٨٨٢ ص ١.

(٨) «اخطار». **الجنة**، العدد ١٢٢٨ تاريخ ٢٦ أيلول ١٨٨٢ ص ١.

(٩) «اخطار». **الجنة**، العدد ١٣٥٩ كانون الثاني ١٨٨٤ ص ٢.

(١٠) «اخطار». **لسان الحال**، العدد ٧٩٢ تاريخ ١٢ أيلول ١٨٨٥ ص ٣.

(١١) «اخطار». **الجنة**، العدد ١٣٥٩ تاريخ ٤ كانون الثاني ١٨٨٤ ص ٢.

(١٢) سليم البستاني. «الجنة». **الجنة**، العدد ١٣٥٩ تاريخ ٤ كانون الثاني ١٨٨٤ ص ١.

(١٣) نجيب البستاني. «مقالة افتتاحية». **الجنان** ج١٥ (١٨٨٤) ص ٥٧٧.

اللذين كان ينالهما سليم البستاني من ولاة سوريا وبصورة خاصة من راشد باشا»[١]، ومدحت باشا[٢]، وحمدي باشا.[٣] حتى أن التفات حمدي باشا المشجع لسليم البستاني بلغ درجة من التقدير أن أهداه رسمه الشخصي بواسطة أحمد الأيوبي، كاتب حمدي باشا المخصوص[٤]، الذي بلّغه عندما سلمه رسم الوالي قائلاً: «إن ابهته اتخذ إهداء هذا الرسم إليكم دليلاً على رضاه عنكم بما تنفقون من الجد في خدمة الأدب والدولة والوطن وما حصل لكم من آثار الاجتهاد العظيم في انماء وسائل المعارف»[٥]. إني أميل إلى الاعتقاد أن السلطات العثمانية الحاكمة اتخذت موقفاً مؤيداً ومشجعاً من مجلة **الجنان** لأن اتجاهها كان اتجاهاً علمياً وصناعياً وتجارياً وزراعياً وكانت تتجنب الخوض بالأمور الدينية والشؤون السياسية الداخلية، بينما كان موقف هذه السلطات ذاتها حذراً ومترصداً لكل ما يصدر عن جريدة **الجنة** التي طالما كانت تنتقد رجال الدولة نقداً لاذعاً لا هوادة فيه[٦]. لا شك أن سياسة **الجنة** تجاه موظفي الدولة كانت نابعة من إيمان رئيس تحريرها، سليم البستاني، بأن الطعن بالمأمور الذي «ساءت أعماله وحاد عن الحق ومنفعة الخلق»[٧] لاظهار عيوبه للناس ولايقاظ أعين عامة الشعب وخاصتهم على أفعاله السيئة كي «يتجازى بما يستحقه ويصلح نفسه وزيادة على ذلك يغدو عبرة للسائرين (لسائر الناس)»[٨] هو من أهم واجبات الجرائد. وإن للسلطات العثمانية أيضاً موقفاً مشابهاً تجاه مجلة وجريدة معاصرتين لزميلين صديقين لسليم البستاني هما يعقوب صروف وفارس نمر صاحبي مجلة **المقتطف** وجريدة **المقطم**[٩]. لقد سمحت هذه السلطات لمجلة **المقتطف** اثر

---

(١) كان والياً على ولاية سورية من ١٨٦٦ ـ ١٨٧١. **سالنامه ولاية سورية ١٣١٢** ص ٧٩.

(٢) كان والياً على ولاية سورية ١٨٧٨ ـ ١٨٨٠. وكان يزور إدارة **الجنان** «في مجيئه لبيروت ويبث أفكاره الإصلاحية بواسطتها». طرازي، **تاريخ الصحافة العربية**، ج٢ ص ٤٥.

(٣) كان والياً على ولاية سورية ١٨٨٠ ـ ١٨٨٤.

(٤) عرف بأنه كان «من أخصّاء مدحت باشا». سليم سركيس. **سر مملكة**، (مصر ١٨٩٥) ص ٦٣ و٧٩.

(٥) **لسان الحال**، العدد ٦٤٣ تاريخ ٢٤ كانون الثاني ١٨٨٤ ص ١.

(٦) بصورة خاصة متصرف جبل لبنان رستم باشا ورجال إدارة جبل لبنان.

(٧) «حرية المطبوعات». **الجنان** ج١٠ (١٨٧٩) ص ٣٦١ ـ ٣٦٢.

(٨) المصدر ذاته.

(٩) يعقوب صروف ١٨٥٢ ـ ١٩٢٧: فارس نمر ١٨٥٦ ـ ١٩٥١.

انتقالها سنة ١٨٨٥ إلى القاهرة بدخول الأراضي العثمانية لأنها كانت مجلة علمية صناعية زراعية تتحاشى الخوض في الشؤون السياسية بينما منعت توأمتها جريدة المقطم لأنها كانت تندد «بالحكومة العثمانية أو الحكومة الحميدة التي كانت سائدة في ذلك العهد»[١]. وهذا ما حدا بالدكتور يعقوب صروف أن يعتبر نفسه كبائع متجول يبيع الصابون والبارود. حيث كان يعتبر المقتطف صابوناً نافعاً والمقطم باروداً خطراً، فكان إذن على السلطات العثمانية أن تسمح بيع الصابون وتمنع بيع البارود[٢]. ولا بد هنا، وحالة المطبوعات كما رأينا، من التطرق إلى موضوع المراقبة في العهد الحميدي لاتاحة الفرصة لفهم الصورة الحقيقية لوضع الصحافة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر.

حرية الصحافة والمراقبة

إن المصادر التاريخية المختلفة التي بين أيدينا التي تتناول حرية الصحافة والمراقبة في الربع الأخير من القرن التاسع عشر في الديار الشامية، الكتب منها والمقالات الصحفية، تشير إشارة واضحة أن الرقابة على الصحف كانت تطبق بشدة أثناء حكم السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩) «أكبر عدو للصحافة والصحافيين»[٣] الذي قيد حرية الصحافة وضيق عليها وخنقها خوفاً على سلطته الاستبدادية وكتم أنفاسها «حتى صارت جسماً بلا روح»[٤]. فكان الصحفي لا يستطيع نشر العبارات التي يشتم منها رائحة السياسة[٥] بما في ذلك جميع الآيات والأحاديث المذكور فيها الظلم والدعاء على الظالمين[٦]، وألفاظ «اتحاد»، و «استبداد»، و «استقلال»، و «اصلاح»، و «اعدام»، و «اغتيال»، و «انتخاب»، و «انتقاد»،

---

(١) يعقوب صروف. «الثورة العثمانية. المقتطف ج٣٣ (١٩٠٨) ص ٨١٣.

(٢) يعقوب صروف. «كتاب عبرة وذكرى». المقتطف ج٣٣ (١٩٠٨) ص ١٠٦٠ (مراجعة كتاب سليمان البستاني».

(٣) فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، ج٢ ص ٢.

(٤) المصدر ذاته، ص ٧.

(٥) «من مذكرات أسعد خير الله. ضمن كتاب العيد المئوي لنقل المطبعة الأميركانية ١٨٣٤ ـ ١٩٣٤ : بيروت، المطبعة الأميركانية، ١٩٣٤ ص ١٧.

(٦) «الألفاظ والأشياء التي كانت ممنوعة في العصر الحميدي». المنار ج١٥ (١٩١٢) ص ٧٩٦ ـ ٧٩٧.

و «انقـلاب»، و «تمـدن»، و «ثـورة»، و «جمعيـة»، و «جمهـوريـة»، و «حـريـة»، و «حقوق»، و «خلع»، و «حكومة مقيدة»، و «خليفة»، و «دستور»، و «ديمقراطية»، و «رشـاد»، و «سلطـان»، و «الظلـم»، و «عصـابـة»، و «فتـاة»، و «قتـل»، و «مختـل العقل»، و «مراد»، و «ملك»، وما شابه.[1] وظلت حالة الصحافيين هكذا حتى «انمرطت» قلوبهم على حد قول خليل سركيس، صاحب جريدة لسان **الحال** البيروتية ورئيس تحريرها من سنة ١٨٧٧ ـ ١٩١٥ الذي وصف الحالة المزرية[2] التي وصلت إليها الصحافة قائلاً: «والمصيبة الأعظم بلاء ما كتبناه مرة عندما قتل المسيو كارنو رئيس جمهورية فرنسا[3] فشطب عليها المراقب، وكان وقتئذ سعادتلو عبد الله نجيب بك[4]، ووضع مكان «اغتالت رئيس جمهورية فرنسا يد أثيمة فقتلته» «توفي بمرض مزمن»[5]. فأطعنا وحسبنا هذا القلب والابدال مصيبة أكبر من مصيبة مدام كارنو لزوجها المقتول»[6]. لا شك أنه كان قد سبق هذه الفترة، التي بلغت الرقابة فيها ذروتها، حقبة من الزمن كانت الصحافة فيها «مطلقة الحرية تنشر الانباء على علاتها

---

(١) **لسان الحال** تاريخ ١٩٠٨/٨/٨ ص ١. **المنار** ج١٥ (١٩١٢) ص ٧٩٦ ـ ٧٩٧ تشتمل أيضاً على أسماء الكتب الممنوعة. **العيد المئوي لنقل المطبعة الأميركانية ١٨٣٤ ـ ١٩٣٤** ص ١٧ ـ ١٨: سليمان البستاني. **عبرة وذكرى**، ص ٢٧ ـ ٣٠: سليم سركيس، **غرائب المكتوبجي**، ص ٢٤ ـ ٦٠ أورد ٥٤ حادثة من **غرائب المكتوبجي**. روحي الخالدي، «المراقبة على المطبوعات». **الهلال** ج١٧ (١٩٠٨) ص ٣١ ـ ٣٤ يذكر الشروط التي يقتضي اتباعها في الصحافة.

(٢) يذكر فيليب دي طرازي أنه ما عاب لسان **الحال** في أكثر أدوار حياتها قبل إعلان الدستور سنة ١٩٠٨ «سوى مبالغتها في محاسنة الحكومة ومدح المأمورين الخائنين مدفوعة إلى ذلك بحكم الضرورة ومراعاة أحوال الزمان». طرازي، **تاريخ الصحافة العربية**، ج٢ ص ٣٠.

(٣) اغتيل سادي كارنو Sadi Carnot بتاريخ ٢٤ حزيران ١٨٩٤.
H. R. Keller. *Dictionary of Dates*. New York, MacMillan, 1934 v. 1 p. 116.

(٤) سليم سركيس، غرائب المكتوبجي، ص ١٠.

(٥) وردت «انتقل إلى رحمة ربه» في غرائب المكتوبجي، ص ٣١ بينما وردت «بأسف نخبركم بوفاة ـ» في لسان **الحال** العدد ١٦٣٠ تاريخ ٢٦ حزيران ١٨٩٤ ص ١. وردت «موت طبيعي نتيجة مرض» لملك الصرب وليس لرئيس جمهورية فرنسا في كتاب ساطع الحصري. **البلاد العربية والدولة العثمانية**. القاهرة، ١٩٥٧ ص ٨٦.

(٦) **لسان الحال**، تاريخ ١٩٠٨/٨/٨ ص ١. (الافتتاحية). سليم سركيس، **غرائب المكتوبجي**، ص ٣٠ ـ ٣١.

زيناً وشيناً. وتنتقد أعمال الحكومة ومأموريها حتى أنها لم تشفق على السلطان نفسه»[1]. وإذا ما نظرنا نظرة خاطفة على أعداد جريدة ثمرات الفنون البيروتية لصاحبها عبد القادر القباني[2] خلال هذه الحقبة نجد أن أخبارها تثبت هذا الرأي حيث نرى أنها تعتبر السلطان عبد العزيز «من طينة الرعايا مخلوق»[3] وأنه «مستبد برأيه»، وأما فيما يتعلق بخلع السلطان مراد الخامس في أيلول سنة ١٨٧٦ فذكرت «أن أصول الشريعة المحمدية وفروع الطريقة المصطفوية»[4] سوغت هذا الخلع. بالإضافة إلى تنديدها بالظلم واعتبار «عدم الانصاف قطب رحى الفساد ومحور الطغيان الذي يدور عليه خراب البلاد»[5] وحثها الأهالي للمطالبة بحقوقهم التي ضن بها عليهم «بعض المستبدين»[6]. لذلك سأكتفي هنا بالاستشهاد بأقوال شهود عيان مارسوا الصحافة أو الطباعة وراقبوا أعمال الرقابة عن كثب.

يذكر الدكتور يعقوب صروف، رئيس تحرير مجلة «المقتطف» التي انشئت في بيروت سنة ١٨٧٦ وانتقلت إلى القاهرة سنة ١٨٨٥، أن البلاد العثمانية بما في ذلك الديار الشامية بلغت أقصى درجات الضعف في أواسط القرن التاسع عشر ثم نهضت وبقيت ناهضة عشرين سنة «حتى بلغت سنة ١٨٦٠ ـ ١٨٨٠ مبلغاً كنا نحسد عليه»[7] مما دعا إسماعيل باشا، خديوي مصر، أن يخبره عندما قابله سنة ١٨٨٠ في القاهرة أنه يتمنى «أن تصير مصر مثل سورية في مدارسها وجرائدها وحرية القلم واللسان فيها ونهوض أهلها في سبيل الارتقاء»[8]. ويستشهد على تسامح السلطات العثمانية في تلك

---

(١) طرازي، **تاريخ الصحافة العربية**، ج٢ ص ١٧.

(٢) **ثمرات الفنون**، العدد ٦٠ تاريخ ٨ حزيران ١٨٧٦ ص ١.

(٣) **ثمرات الفنون**، العدد ٦٢ تاريخ ٢٢ حزيران ١٨٧٦ ص ١.

(٤) **ثمرات الفنون**، العدد ٧٣ تاريخ ٧ أيلول ١٨٧٦ ص ١.

(٥) «ضرب مثال بسلطة». **ثمرات الفنون**، العدد ٦٢ تاريخ ٢٢ حزيران ١٨٧٦ ص ١.

(٦) «الحرية»، **ثمرات الفنون**، العدد ٢٨٤ تاريخ ٧ حزيران ١٨٨٠ ص ١.

(٧) يعقوب صروف. «البلاد العثمانية». **المقتطف** ج٣٣ (١٩٠٨) ص ٧١٥. يؤيد سليم البستاني في **الجنان** هذا الرأي حيث يقول: «ان تاريخ ابتداء دخولنا في عائلة العالم المتمدن هو يوم معاهدة باريس بعد حرب القرم ١٨٥٦». سليم البستاني، جملة سياسية. **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٤٧١.

(٨) يعقوب صروف. البلاد العثمانية. **المقتطف** ج٣٣ (١٩٠٨) ص ٧١٥.

الحقبة ورحابة صدر الولاة تجاه حرية القول وتقبل الانتقاد بحادثة وقوفه خطيباً سنة ١٨٧٠ في أول حفلة تخرج جرت بالكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية في بيروت حالياً) وموضوع خطبته «وسائل الارتقاء» فذكر ما يجب على الحكومة من مسؤوليات جسام وأنحى باللائمة على المسؤولين وكان راشد باشا، والي سورية، حاضراً وخليل الخوري، مدير الأمور الأجنبية والمطبوعات في ولاية سورية، يترجم له ما يتعذر عليه فهمه. فما كان من الوالي إلاّ أن هنأ يعقوب صروف «وصوب قوله وطلب صورة الخطبة منه»[1]. ويروي الدكتور فارس نمر، زميل الدكتور يعقوب صروف في رئاسة تحرير **المقتطف**، حادثة مماثلة جرت له في تلك الحقبة أيضاً عندما وقف مدحت باشا، والي سورية (١٨٧٨ ـ ١٨٨٠)، خطيباً بين شباب بيروت الذين «ثقف العلم أذهانهم وأدركوا ما لهم من حقوق وما عليهم من واجبات لدولتهم وأمتهم»[2]. وقال وهو منشرح الصدر قرير العين: «عشتم ونعشتم يا أبناء بيروت، فإن كان كل أبناء سورية مثلكم فقد عاشت آمالنا وأمّنا على استقبالنا»[3].

وردا على دفاع أنصار الاستبداد القائل بأن البلاد العثمانية لم تألف الحرية لأن اطلاق أقلام الصحافيين فيها، إثمه أكبر من نفعه، أجاب سليمان البستاني، مترجم **الإلياذة** والمحرر بجريدتي **الجنة والجنينة**، بأن الحرية نعمة عم انتشارها فتمتع بها أبناء قلب أفريقيا وأقاصي آسيا:

«فما بالكم حرمتموها علينا ومع هذا فلسنا على بساطها بالمحدثين ألفناها منذ ستة وثلاثين سنة (أي سنة ١٨٧٢) ورتعنا في أكناف رياضها وما من رزية أشد على المرء من سلبه نعمة نال منها ولو طرفاً يسيراً. أليس منكم من قرأ جرائد الآستانة وسوريا كـ«**الوقت**» و «**عبرت**» و «**الجوائب**» و «**الجنة**» و «**الجنان**» فرأى فيها ما أنفذته من سهام النقد على أولياء الأمر أيام صدارة محمود نديم. ومَن مِن السوريين أبناء ذلك الزمان لا يذكر ما صوبته «**الجنة**» من نبال التقريع وما ألمت به أفئدة الوزراء من كشف النقاب عن بعض أعمالهم مما لو كتب منها سطراً واحداً في أيامكم لكان أقل جزاء لكاتبه السجن المؤبد. فعلام سلفاؤكم يرحبون بتلك الكتابة بل علام كان بعضهم

---

(١) المصدر ذاته.

(٢) «خطبة الدكتور فارس نمر». **المقطم**، تاريخ ٢٩ تموز ١٩٠٨ ص ٧.

(٣) المصدر ذاته.

يحرض الجرائد على الانتباه إلى نقد أعمال العمال»[1].

ودعما لأقواله حول تأثير الصحافة، «تلك الآلة الحية الناطقة بلسان الأمة المنبهة الأفكار، المرشدة إلى الإصلاح، المشيرة إلى مواطن الخلل، المنادية بحيّ على الفلاح»[2]، وما كانت تتمتع به من حرية فائقة استشهد بحادثة المتصرف الذي عزله مدحت باشا أيام توليه ولاية سورية ١٨٧٨ ـ ١٨٨٠ لتهمة وجهتها إليه جريدة **الجنة** حيث كتب إليه مدحت باشا يقول: «إما العزل وإما قيامك للوقوف أمام المحكمة مع صاحب الجريدة»[3]، ولما لم يقو المتصرف على تبرئة نفسه اضطر إلى الاستقالة. ولم تدم هذه الحرية طويلاً إذ حولت الرقابة الشديدة التي فرضت على أصحاب الجرائد بعد سنة ١٨٨٥ الصحافة «إلى أبواق تمجيد وأغوال تهديد يضطرب أصحابها خوفاً لكلمة تبدو منهم أو من محرريهم يتأولها أولو الأمر على غير ما أرادته الجريدة[4]. ولو أراد الكاتب أو الصحفي مسايرة مصلحة المراقبة لتسهيل دخول مطبوعاته أو أعداد جريدته إلى الأراضي العثمانية لما استطاع إلى ذلك سبيلا «لأنه لا يعرف لهم قاعدة في المراقبة فلا يعلم ما يرضي المراقب أو لا يرضيه إذ قد يمنع اليوم ما أذن به في الأمس»[5]. وذكر أن شروطاً ستة يقتضي اتباعها في الصحافة وضعت للتضييق على الصحافة ومراقبتها وتقييد ألفاظها وكان مضمونها جارياً فعلا، وهي:[6]

أولاً: يفضل نشر الأخبار السارة عن صحة جلالة السلطان وحال المحصولات وتقدم التجارة والصناعة في تركيا.

ثانياً: لا ينشر شيء يتعلق بالآداب العمومية ما لم يصادق على نشره ناظر المعارف أو وكلاؤه.

ثالثاً: لا يجوز الاسهاب في كتابة المقالات الأدبية أو العلمية التي لا يتم نشرها كلها في عدد واحد تجنباً لتذييلها بلفظ «البقية تأتي».

---

(١) سليمان البستاني، عبرة وذكرى، ص ٣٢.
(٢) المصدر ذاته، ص ٢٧.
(٣) المصدر ذاته، ص ٣٢.
(٤) المصدر ذاته، ص ٢٧.
(٥) روحي الخالدي. «مراقبة المطبوعات». **الهلال** ج١٧ (١٩٠٨) ص ٣٤.
(٦) المصدر ذاته، ص ٣٣.

رابعاً: يجب تجنب الفراغ بين الكلام والخطوط في أثناء المقالة لأن ذلك يبعث على ظنون تكدر الخواطر[1].

خامساً: لا يجوز نشر الأعلام التاريخية أو الجغرافية التي تحتوي لفظ أرمينيا.

سادساً: ممنوع نشر أخبار قتل الملوك الأجانب مهما يكن شكلها.

يؤيد سليم سركيس، أحد المحررين في جريدة **لسان الحال** وصاحب جريدة **المشير** و **مجلة سركيس**، الذي عانى الأمرين من رقابة المكتوبجي، الاسم الذي عرف به مراقب الصحف، رأي سليمان البستاني بأن الحرية كانت مطلقة لجرائد بيروت من أول نشأتها سنة ١٨٥٨ إلى سنة ١٨٨٦ حيث «لا مراقبة عليها ولا سيطرة، يلجأ إليها المظلوم، ويخافها الظالم حتى لقد بلغ من «**الجنة**» و «**الجنان**» للمرحوم المعلم بطرس البستاني ومن **لسان الحال** في أوائل نشأته أنها كانت تكتب بحرية لا تقل عن الحرية التي نتمتع بها الآن (١٨٩٢) في مصر»[2] . ويستدرك على ذلك معقباً بأن الرقابة على الصحافة مرت بمراحل ثلاث حيث نمت بالتدرج إلى أن بلغت أشدها. كانت المرحلة الأولى سنة ١٨٧٧ إثر التوقف بالعمل بدستور سنة ١٨٧٦ عندما عين خليل الخوري، صاحب جريدة **حديقة الأخبار** (١٨٥٨ ـ ١٩٠٩) البيروتية، مديراً للأمور الأجنبية والمطبوعات لولاية سورية، إذ أخذ يرسل تذكرة تسمى إخطاراً إلى أصحاب الجرائد عندما كانت جرائدهم تنشر ما كانت «تظن الحكومة أنه غير مناسب»[3]. وكانت

---

(١) علق رشدي المعلوف، أحد المحررين في جريدة «النهار» البيروتية على قرار مراقبة الصحف سنة ١٩٧٢، بأن هذا القرار يضر القراء «ويحرمهم حقهم في المعرفة ويرغمهم على استعمال خيالهم المتشائم لملء الفراغ بما هو أسوأ من الذي يجب أن يترك فراغاً». النهار، العدد ١١٥٨ تاريخ ١٩٧٢/٩/٢٤ ص ١.

(٢) سليم سركيس. **غرائب المكتوبجي**، ص ١١. وذكرت جريدة **برجيس باريس** (١٨٥٨ ـ ١٨٦٣) لصاحبها رشيد الدحداح (١٨١٣ ـ ١٨٨٩) الصادرة بتاريخ ٢٤ نيسان ١٨٦٢ أن السلطان عبد العزيز (١٨٦٠ ـ ١٨٧٦) عندما علم أن جريدة **ترجمان أحوال التركية** تتحاشى التكلم عن السياسة خشية أن يلحقها اللوم أو للإحتراز من وقوعها في الحظر قال لمنشىء الجريدة تكلم على السياسة والأمور العامة بما ظهر لك من الواقع ولا تخش شيئاً». النهار: **جرائد الأمس واليوم**. بيروت مؤسسة النهار، ١٩٧١ (ص ٩).

(٣) سليم سركيس. **غرائب المكتوبجي**، ص ١١. وكانت الجريدة التي تخطر ثلاثاً على هذه الكيفية يصدر الأمر بتعطيلها.

المرحلة الثانية سنة ١٨٨٦ عندما استدعى ميشال إده، ترجمان ولاية سورية، جميع أصحاب الجرائد في بيروت، وأنبأهم بأن الحكومة العثمانية قررت أن لا تصدر نسخة من جرائد بيروت إلاّ بعد أن ترسل مسودتها قبل الطبع إليه ومراقبتها[1]. وكانت المرحلة الثالثة عندما «ضجر ميشال إده من مطالعة الجرائد وخشي المسؤولية»[2] فانتقلت السيطرة على المطبوعات إلى مكتوبجي الولاية[3]. هكذا بدأت الرقابة على الصحافة وكانت في بادىء أمرها، في مرحلتيها الأولى والثانية، مراقبة خفيفة ليس فيها شيء من العنف. وللدلالة على ذلك يروي أسعد خير الله، مصفف الحروف في المطبعة الأميركانية من سنة ١٨٧١ ـ ١٩٢٢، أن الدكتور كرنيليوس فان ديك كتب مقالة لتنشر في النشرة الأسبوعية، لسان حال الإرسالة السورية، تحت عنوان «الاتحاد» وفيها حض على وجوب وحدة الكنيسة المسيحية على اختلاف صبغتها، وحينما أرسلت المقالة إلى المراقب أعادها وقد حذفها برمتها فقال له فان ديك «ابق حروفها مجموعة كما هي وبعد أسبوعين انشرها تحت هذا الرأس «كان ما كان في قديم الزمان» ففعلت ومر عليها المراقب دون أن يمس حرفاً منها»[4]. أما فيما يتعلق بشدة عنف الرقابة في مرحلتها الثالثة فيتحدث سليم سركيس باسهاب عنها في كتابه غرائب المكتوبجي فلا يترك زيادة لمستزيد إذ يروي ٥٤ حادثة غريبة جرت مع المكتوبجي جميعها تدل على أنها فعلاً غرائب، لا بل ان وصفها بالغرائب هو أقل ما يقال فيها. ويعطينا الشيخ محمد رشيد رضا (١٨٦٥ ـ ١٩٣٥)، صاحب مجلة المنار (١٨٩٨ ـ ١٩٣٥)، صورة واضحة للقيود التي كانت توضع للحد من بث الأراء الإصلاحية، وذلك في حديث جرى له في بيروت سنة ١٨٩٨ مع عبد القادر القباني (١٨٤٨ ـ ١٩٣٥)، صاحب ثمرات الفنون (١٨٧٥ ـ ١٩٠٨) يذكر بأنه لم يكن ينوي الاشتغال بالسياسة ولا بالإصلاح عن طريقها «بل بالإصلاح الفكري والنفسي والاجتماعي، ولكن السياسة السؤى عدوة الإصلاح ترى بقاءها بفقده، وحياتها بموته، فهي لا تترك القائم

---

(١) المصدر ذاته، ص ١٢ ـ ١٣.
(٢) المصدر ذاته، ص ١٣.
(٣) أول مكتوبجي عين هو «جمال بك» وخلفه حسن فائز جابي ثم تلاه عبد الله نجيب. المصدر ذاته، ص ١٣. سالنامه ولاية سورية ١٣١٦هـ ص ١٠٠.
(٤) من مذكرات أسعد خير الله. العيد المئوي لنقل المطبعة الأميركانية ١٨٣٤ ـ ١٩٣٤ ص ١٨.

به إذا هو تركها»[1]. لذلك قرر السفر إلى مصر وانشاء مجلة إصلاحية فيها. وكاشف عبد القادر القباني بعزمه هذا فما كان من صاحب ثمرات الفنون إلا معارضته للفكرة ودعاه إلى تولي رئاسة تحرير جريدته[2]: «فقلت له: ليس في البلاد حرية تمكنني من ذلك، قال: اترك الطعن في السلطان واكتب في الأخلاق والآداب ما تشاء فلا تجد مانعاً ولا معارضاً. قلت: أرايت إذا بحثت في الكذب، الذي هو شر الشرور على الاطلاق، وبينت أن أكبر أسباب فشوه وانتشاره هو الاستبداد المانع من قول الصدق، والمعاقب على التزام الحق، أيمكنني أن أنشر هذا في الجريدة وأكون آمناً من عقاب الحكومة؟ قال: كلا، إن أمثال هذه المباحث لا يمكن نشرها في غير مصر. فعجل بالسفر ولا تخبر بعزمك أحداً لئلا يصل الخبر إلى الوالي فيمنعك منه»[3]. ويشترك سليم البستاني، رئيس تحرير مجلة الجنان وجريدة الجنة بالتنديد بالاستبداد[4]، الذي كان يعتبره الحائل الوحيد دون اطلاق العنان لأقلام محرري الجرائد والكتّاب للتعبير عن بنات أفكارهم بحرية[5]، وذلك لأن الدول المستبدة الظالمة تقيد حرية الصحافة «خوفاً من اظهار نقائص الحكومة وظلم عمالها ونقائص القضاء فيها وسلب حقوق اغتصبتها من الشعب إلى غير ذلك من الأسباب»[6]. ووصف حالة الجرائد العثمانية بأنها كانت «بئس الحال»[7] وأن معاملتها ومعاملة سائر المطبوعات كانت متوقفة «على مركز أصحابها ونفوذهم واقتدارهم الأدبي والمالي. فكان الحق للقوي كما في سائر الأمور بل سنّ لها قانون[8] وسنّ ضده في الآستانة فصار أمر الوزير الحكم، حال كونه

---

(١) محمد رشيد رضا. «الرحلة السورية الثانية». المنار ج٢١ (١٩٢٠) ص ٣٧٧.

(٢) كان إبراهيم الأحدب (١٨٢٦ ـ ١٨٩١) رئيساً لتحرير ثمرات الفنون حتى سنة ١٨٩١. طرازي، تاريخ الصحافة العربية ج٢ ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٣) محمد رشيد رضا، «الرحلة السورية الثانية». المنار ج٢١ (١٩٢٠) ص ٣٧٧ ـ ٣٧٨.

(٤) عرف سليم البستاني الاستبداد بأنه «الحالة المجردة عن القانون». «توضيح النظامات الأساسية». الجنان ج٨ (١٨٧٧) ص ٢٧٥.

(٥) كان سليم البستاني يعتبر حرية المطبوعات بأنها «من أدلة تقدم الأمم». المصدر ذاته.

(٦) المصدر ذاته.

(٧) المصدر ذاته.

(٨) صدرت «لائحة المطبوعات» بتاريخ ٢٠ جمادي الأول سنة ١٢٧٣/١٦ كانون الثاني سنة ١٨٥٧. انظر: شمس الدين الرفاعي. تاريخ الصحافة السورية. القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٧ ج١ ص ٥٨. وصدر «قانون المطبوعات» بتاريخ ٥ شعبان ١٢٨١/٣ كانون الثاني ١٨٦٥. =

هو الذي ينبغي أن تنتقد أعماله وينكت على تقصيراته ويلام على مغايراته»[1]. ولم يكتف بوصف الداء بل تقدم باقتراح عملي كدواء شافي للوضع السيء الذي كانت تتألم منه الصحافة. يقضي اقتراحه بوضع تشريع خاص للمطبوعات تحدد فيه حرية الصحافة وحدودها بالإضافة إلى انشاء مجالس خاصة لمحاكمة كل مخالفة، وبذلك فقط تصبح الصحافة حرة ضمن حدود القانون فلا تكون «خاضعة في شيء لإرادة الحكومة»[2]، أو بالأحرى، على حد رأي معاصر له[3]، كي لا تكون «عرضة لأهواء أولي الأمر وأصحاب النفوذ، كي تأتي بالفائدة المطلوبة للشعوب فلا تحرم أنوار المعارف بل تخرج من ديجور ظلام الجهل»[4]. وكان اقتراحه هذا صرخة في واد إلى أن خلع السلطان عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠٩ فوضع حزب تركيا الفتاة الحاكم حينئذ قانوناً جديداً للمطبوعات بتاريخ ١١ رجب سنة ١٣٢٧ هـ/ ٢٩ تموز سنة ١٩٠٩. نصت المادة الحادية والثلاثين منه ما يلي: «إن المخالفات الصحافية هي من خصائص المحاكم العادية»[5].

هذا ما كان من أمر غرائب الرقابة على المطبوعات في العهد الحميدي التي بالرغم من شدة حدتها تكاد لا تعد إذا ما قيست بعنفوان عجائب أعمال جواسيس هذا العهد المكممة للأفواه، حيث إنه، على حد تعبير الاستاذ جبر ضومط:[6]

«كان كثيرون من أعيان العثمانيين وأشدهم محبة واخلاصاً في رفع شأن العثمانية يخاف أن يفلت من صدره زفرة أو يباغته تنهد فينقل عنه خبر تلك الزفرة أو ذلك التنهد جاسوس عليه من المتظاهرين بصداقته أو ممن هم في خدمته، بل ربما نقل عنه الخبر أحد بنيه أو امرأته وهناك الطامة الكبرى والبلية العظمى»[7].

= سليم أحمد فارس الشدياق، **كنز الرغائب في منتخبات الجوائب**، ج٥ ص ٥٦ ـ ٩٩. و**النشرة الأسبوعية**، ج١٢ (١٨٨٢) ص ١٩٠ : ١٩٧. ورد على أنه صدر بتاريخ ٢ شعبان سنة ١٢٨١.

(١) سليم البستاني، «توضيح النظامات الأساسية». **الجنان** ج٨ (١٨٧٧) ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٢) المصدر ذاته.

(٣) هو خليل سركيس، صاحب جريدة لسان الحال.

(٤) خليل سركيس «حرية المطبوعات». **لسان الحال**، العدد ٢٢٨ تاريخ ٣/ ١/ ١٨٨٠ ص ١.

(٥) «قانون الصحافة». **البشير**، العدد ١٩٢٥ تاريخ ٢٣/ ٨/ ١٩٠٩ ص ٣ ـ ٤.

(٦) كان استاذاً للغة العربية في الجامعة الأميركية في بيروت من سنة ١٨٨٩ حتى سنة ١٩٢٢. **الكلية** ج١٦ (١٩٣٠) ص ٢٥٤.

(٧) جبر ضومط. «نحن والدستور». **المقتطف** ج٣٣ (١٩٠٨) ص ٩٠٥. وسليمان البستاني. =

ولم تكن عين الرقيب الساهرة على لجم الحرية، بجميع مظاهرها أينما وجدت، لتدع الخطب والروايات وشأنها، وبصورة خاصة تلك التي كانت تلقى أو تمثل في احتفالات توزيع الشهادات المدرسية، ولذلك عمدت إلى تقييدها والإطلاع عليها قبل تلاوتها أو تشخيصها. لقد اصدر «مكتوبي قلمي» ولاية بيروت مذكرة إلى رؤساء المدارس تحمل «عدد ٨١ تاريخ ١٢ شوال ١٣٠٨ هـ / ٢١ أيار ١٨٩١، وجاء في المذكرة الموجهة إلى الدكتور دانيال بلس، رئيس الكلية السورية الإنجيلية: ما يلي:

«إلى جانب مدير مدرسة الأميركانية في بيروت

جانب المحب الصديق

بناء على مذكرة مديرية معارف الولاية المبنية على اشعار نظارة المعارف الجليلة يقتضي بعد الآن أن يعرض إلى دائرة المعارف كافة الخطب التي يصير إيرادها في الاحتفال عند توزيع الجوائز والروايات التي يراد تشخيصها فيه من قبل تلاوتها وتشخيصها وطلب التصديق عليها، سواء كانت مرتبة من طرف مديرية المدرسة أو الغير، وذلك بمقتضى الإرادة السنية ولقد تحرر هذا الخطاب لجنابكم كما تحرر لسائر مديري المدارس. فنؤمل أن يصير إيفاء مقتضى ذلك»[1].

وبهذا الاجراء الأخير يكون قد تم للحكومة الحميدية الإحكام كلياً على خنق الحرية.

ومع العلم أن الرقابة على الصحابة الغيت بموجب القرار رقم ٦٣٢ تاريخ ١٧ أيلول سنة ١٩١٩[2] بعد انتهاء نير الحكم العثماني على الديار الشامية سنة ١٩١٨ نرى أنها أعيدت بموجب القرار رقم ١٤١٧ تاريخ ١٢ تموز ١٩٢٢[3]. ولم تكن حال الصحافة في بيروت، أثناء الانتداب الفرنسي خلال فترة اندلاع الثورة في جبل الدروز (١٩٢٥ ـ ١٩٢٧)، حيث كانت المراقبة تشوه مقالات محرري الجرائد حتى لو كان ما

= عبرة وذكرى، ص ٢٣.
استشهد يعقوب صروف بهذه الجملة. «كتاب عبرة وذكرى» المقتطف ج٣٣ (١٩٠٨) ص ١٠٦٠. (مراجعة كتاب سليمان البستاني).

(١) أرشيف مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت.

(٢) مجموعة مقررات المنطقة الغربية. بيروت، ١٩٢٦. ص ١٧٦.

(٣) المصدر ذاته، ص ٧٧١.

يكتب في جرائدهم منقولاً عن الكتب المقدسة، بأفضل منها خلال الحكم الحميدي. نذكر هنا، على سبيل المثال، أن جبران التويني، رئيس تحرير جريدة الأحرار البيروتية نشر بتاريخ ١٥/٥/١٩٢٦ الاصحاح الأول من سفر أشعيا وصدره بقوله: «ننشر للقراء اليوم بدلاً من المقال الافتتاحي هذا الاصحاح حتى لا يجد القارىء «نوافذ» المراقبة تطل عليه ببياض عينيها غير الساحرتين ولا شك في أن القارىء والمراقب أيضاً يشعران بما يختلج في النفس عند اثباتنا هذه القطعة من ألم وأسف»[1]. ولكن الرقابة وجدت في هذا الاصحاح أيضاً ما لا يجوز نشره فحذفت من العدد الخامس إلى العدد الثامن. وهذا نص ما حذفت:

«كل الرأس مريض وكل القلب سقيم. من أسفل القدم إلى الرأس ليس فيها صحة بل جرح واحباط وضربة طرية لم تعصر ولم تعصب ولم تليّن بالزيت. بلادكم خربة. مدنكم محرقة بالنار. أرضكم تأكلها غرباء قدامكم وهي خربة كانقلاب الغرباء. فبقيت ابنة صهيون كمظلة»

ثم حذفت أيضاً من العدد الحادي والعشرين إلى العدد الرابع والعشرين وهذا نص ما حذفت:

«كيف صارت القرية الأمينة زانية. ملآنة حقاً. كان العدل يبيت فيها. وأما الآن فالقاتلون. صارت فضتك زغلاً وخمرك مغشوشة بماء. رؤساؤك متمردون ولعفاء اللصوص. كل واحد منهم يحب الرشوة ويتبع العطايا. لا يقضون لليتيم ودعوى الأرملة لا تصل إليهم»

فالرقابة إذن هي هي، أينما وجدت وحيثما حلت، سيف مسلط فوق رؤوس محرري الجرائد وبعبع مخيف يقضّ مضاجعهم وكابوس مزعج يرجون زواله.

أبواب الجنان

صدر العدد الأول من مجلة الجنان في غرة شهر كانون الثاني سنة ١٨٧٠ بعد أن حصل المعلم بطرس البستاني على إجازة باصدارها من راشد باشا، والي سوريا حينئذ

---

(١) الأحرار، تاريخ ١٥ أيار ١٩٢٦ ص ١. والمقطم، العدد ١١٣١١ تاريخ ١٩ أيار ١٩٢٦ ص ٨.

(١٨٦٦ ـ ١٨٧١)[١]. ولا شك أن فكرة انشاء هذه المجلة الأولى من نوعها باللغة العربية كانت نتيجة دراسة وافية بحيث وضع لها هيكل عام لما يجب أن تشتمل عليه وذلك ككل عمل من الأعمال الجبارة التي قام بتنفيذها المعلم بطرس البستاني. ولذلك نرى أنها كانت، في كل عدد من أعدادها نصف الشهرية، تحتوي على أبواب معينة متنوعة، منها العلمية والصناعية والزراعية والأدبية والتاريخية والفكاهات. ولطالما اشتهرت، على حد تعبير رئيس تحريرها، «بالمحاماة عن الحقوق الوطنية والاتحاد العثماني وبترويج أسباب انهاض الأمة مادياً وأدبياً بنشر الفوائد المثقفة العقول، والدافعة الأوهام، والموطدة أركان الالفة والاتحاد بين الشعوب لتقوية العناصر الوطنية بحيث تصبح قادرة على احتمال المؤثرات الخارجية دون تغير أحوالها ولا أن تمس استقلالها»[٢]. واستمرت في ادراج هذه الأبواب في أعدادها المتتالية ولكنها كانت، في بعض الأحيان، تعتذر إلى القراء لاضطرارها للاستغناء عن مواد بعض أحد أبوابها بسبب اهتمامها بمواضيع ذات خطورة بالغة»[٣]، أو أنها ستعتني في تلك السنة بالإكثار من الإفادات السياسية والتاريخية وأن تجعل الروايات قصيرة[٤]، أو أنها لم تقتصر على نشر المواد العلمية والتاريخية متجاهلة طبع الأخبار السياسية والمسائل الرياضية لأنها مصممة على عدم ادخال هذه المواضيع في **الجنان** «ولكن لأنه ضاق بنا المقام والسياسة في هذه الأيام هي بدون أهمية والتقريرات التاريخية والعلمية هي أنفع وأكثر فائدة، وعلى كل حال سنقرر في ما يأتي كل ما نرى أنه يجمع بين نفع المشتركين ولذتهم»[٥]، أو أنها لم تنشغل بالكلام عن انتخاب المجالس المحلية عن أمور أوربا «بسبب قلة حوادثها السياسية أو التجارية أو المالية في زمان باتت فيه أكثر الأهمية، بل كلها، ولكن إيفاء لبعض المفروض على الجرائد لتنبيه أفكار الأهالي إلى بعض حقوقهم وواجباتهم»[٦]، أو أنه من عادتها أن تنشر في كل جزء «جملة أو أكثر علمية تبحث عن أمور طبيعية أو تاريخية أو فلكية أو عن طبقات الأرض وغير

---

(١) «فاجعة سليم». **لسان الحال**، العدد ٧١٢ تاريخ ٢٥ أيلول ١٨٨٤ ص ١.

(٢) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج١٢ (١٨٨١) ص ٧٠٥.

(٣) [«الجنان»] **الجنان** ج٩ (١٨٧٨) ص ٧٣.

(٤) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٦ (١٨٧٥) ص ١.

(٥) «تنبيه». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٧٣.

(٦) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٧ (١٨٧٦) ص ١١٠.

ذلك»[1]. واستمرت في نشر هذه الجمل غير أن أهمية الأخبار السياسية المتعلقة بالحرب الروسية التركية قبل عقد معاهدة برلين (١٨٧٨) جعلتها توسع دائرة السياسة وأنها استغنت هذه المرة «عن جملة مطولة بتاريخ سنة ١٨٧٧ المترجم عن التيمس، وهو مفيد جداً. وإن شاء الله بعد عقد الصلح يخصص أكثر الجنان لأمور علمية وزراعية وصناعية مع نشر أهم المطولات السياسية المروضة للأفكار والمثقفة للعقول»[2]. ومع ذلك واظبت على نشر كل ما فيه فائدة للقراء حسب مقتضى الأحوال والأهمية ولو دعا ذلك إلى التزام بتقليل إحدى المواد إذا ما كانت أخبارها قليلة[3].

لقد كانت مجلة الجنان، على حد تعبير رئيس تحريرها، «المجموعة الأولى الجامعة بين السياسة والتاريخ والمعارف والفنون والزراعة والصناعة والفكاهة وغير ذلك»[4]. لا بل إنه كان ينظر إليها نظرة خاصة بأنها كانت «كتاريخ»[5] تدون فيها الأعمال الجبارة التي يقوم بها أصحاب الفضل أمثال ولاة سوريا والسلطان عبد العزيز والخديوي إسماعيل باشا ورياض باشا ناظر الوزارة المصرية وغيرهم. وتتجلى نظرته إليها «كتاريخ» في نشره القوانين العثمانية مترجمة إلى اللغة العربية، وفي نشره بعض الوثائق المتعلقة بالمنطقة كأثر تاريخي كما ذكر عند نشره اقتراح بوضع «القانون الأساسي»[6] المصري سنة ١٨٨١. لقد وضع مقدمة لذلك الاقتراح جاء فيها: «قدم حضرة الوجيه الصادق الوطنية النائب أحمد أفندي عبد الغفار تقريراً يطلب فيه وضع قانون أساسي للبلاد الخديوية يشتمل على بيان الحدود والحقوق العمومية. فاذكرنا هذا التقرير بالقانون الذي عرضه النائب الفرنسوي «لافييت» لجمعية اشتراعهم في اليوم الحادي عشر من شهر تموز (جوليه) عام ١٧٨٩ فقبلته الجمعية والأمة وعده العالم المتمدن من بعد ذلك أساساً للقوانين العادلة على الاطلاق، فرأينا أن نثبته ها هنا أثراً

---

(١) [«الجنان»] الجنان ج٩ (١٨٧٨) ص ٧٣.
(٢) المصدر ذاته.
(٣) كما فعل عند نشره مقالة «المورمون» الجنان ج٦ (١٨٧٥) ص ٤٣ ـ ٥٥. حيث ذكر انها «مهمة وغريبة جداً وتاريخية ولذلك التزمنا أن نقلل السياسة، وما من ضرر، فإن أخبارها قليلة». سليم البستاني «جملة سياسية». الجنان ج٦ (١٨٧٥) ص ٣٧.
(٤) [«الجنان»] الجنان ج٩ (١٨٧٨) ص ١٨١.
(٥) سليم البستاني، «جملة سياسية». الجنان ج١٢ (١٨٨١) ص ٥٧٨.
(٦) «القانون الأساسي المصري». الجنان ج١٣ (١٨٨٢) ص ١٩٧.

تاريخياً وتذكرة ومراعاة للنظير»[1]. وكان يعتبرها أيضاً بمثابة «كتاب منقسم إلى أجزاء»[2] لأن أكثرية قراء **الجنان** يجمعون أعدادها ويجلدونها في نهاية كل سنة ولذلك فإن فقدان أي عدد من أعداد تلك السنة يجعل المجموعة ناقصة ويقلل من فائدتها[3].

ومهما يكن من أمر فإن المواضيع المتنوعة التي عالجتها مختلف أبواب أعداد هذا «الكتاب المنقسم إلى أجزاء» كانت جلها تدور حول تحبيذ المبادىء الصحيحة[4] والدعوة إلى تبنيها وتطبيقها مقابل استهجان المبادىء الفاسدة والتحريض على نبذها وتجنبها وذلك لأن النور والظلمة لا يجتمعان أو لاستحالة الجمع بين كل من النقيضين التالين: [5] الاتحاد والانشقاق، والارتقاء والانحطاط، والاصلاح والفساد، والأمل واليأس، والتسامح والتعصب، والتقدم والتأخر، والتمدن والتوحش، والحرية والعبودية، والخير والشر، والسعادة والتعاسة، والسلم والحرب، والشرف وثلم الصيت، والصدق والكذب، والعدالة والاستبداد، والعدل والظلم، والفضيلة والرذيلة، والقوة والضعف، والمساواة والتحيّز، والمعرفة والجهل، والنظام والفوضى، ومحبة الوطن وخيانته.

إن مقالات رئيس تحرير **الجنان**، سليم البستاني، السياسية والعلمية والأدبية والتاريخية منها والروايات التي كان ينشرها تباعاً في **الجنان** تدل دلالة واضحة على أن صاحبها كان مصلحاً اجتماعياً بكل ما في الكلمة من معنى، جل اهتمامه أن يرى الهيئة الاجتماعية التي يكتب إليها صالحة تجاري روح العصر في جميع نواحي تقدمه وتمدنه لا مكان فيها لظالم أو مرتش أو كذاب أو جاهل أو فوضوي أو منافق أو مفسد أو أبليس في هيئة ملاك. لقد كان يسعى جاهداً محاولاً ادراك حقيقة فطرة الإنسان التي هي وحدها كانت موضوع تأملاته وعين تصوراته[6]. وذلك، على حد قوله: «لما كان

---

(١) المصدر ذاته.

(٢) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٦ (١٨٧٥) ص ٥٠٥.

(٣) المصدر ذاته.

(٤) سليم البستاني. «الإصلاح». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ١٧٩. سليم البستاني «قوتنا». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٤٦٧.

(٥) ان هذه النقائض متنافرة دائماً «لأن العلاج والفساد لا يجتمعان». سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٨٣٠.

(٦) سليم البستاني. «الغرض». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٤٥.

الإنسان يحسب نفسه أهم مخلوق من مخلوقات هذا الكون المعروف بالأرض كان لا بد له في كل حال من التعمق في معرفة مصادر قوته وأسباب حفظه ميزانيتها»[١].

إن كل عدد من أعداد مجلة **الجنان**، التي تتراوح صفحاته بين ٣٢ صفحة و٣٦ صفحة، كان يشتمل على الأبواب التالية:

١ ـ الجملة الأولية أو الجملة السياسية أي الافتتاحية.

٢ ـ الأخبار المختلفة بما فيها الخطب وتراجم الأشخاص.

٣ ـ المقالة العلمية بما فيها الزراعية والصناعية والتجارية.

٤ ـ المقالة الأدبية بما فيها الألغاز وحلها.

٥ ـ المادة التاريخية بما فيها القوانين العثمانية المترجمة إلى اللغة العربية.

٦ ـ الفكاهات بما فيها الروايات المتسلسلة والملح.

أولاً: الجملة الأولية.

إن كل عدد من أعداد مجلة **الجنان** الثلاثمائة والثمانية والثمانين[٢] كان يبدأ بجملة أولية،[٣] كما كان يحلو إلى رئيس تحريرها أن يشير إليها[٤]، أو الافتتاحية، كما هو متعارف عليها في عصرنا الحاضر. كان سليم البستاني، رئيس تحرير **الجنان**، الذي استمر في كتابة الجملة الأولية للجنان منذ انشائها ابتداء من أول كانون الثاني ١٨٧٠ حتى الأول من أيلول سنة ١٨٨٤، يعالج في جملته الأولية الأحوال الداخلية والخارجية للسلطنة العثمانية[٥] وذلك بغية الحصول على التقدم المادي والأدبي للرعايا

(١) سليم البستاني. «قوتنا». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٤٦٦.

(٢) صدر من مجلة الجنان ١٦ مجلداً، يحتوي كل منهما ٢٤ عدداً، وأربعة أعداد من السنة السابعة عشرة.

(٣) باستثناء العدد الأول من السنة الثانية تاريخ ١/١/١٨٧١، والعدد الثالث من السنة الثالثة تاريخ ١/١٨٧٢، كما التزم في العدد الثاني من السنة الثامنة تاريخ ١٥/١/١٨٧٧ إلى أن يترك الجملة الأولية لنشر دستور ١٨٧٦. **الجنان** ج٨ (١٨٧٧) ص ٣٨.

(٤) سليم البستاني. «تذييل: أعجب العجب». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٦١١.

(٥) سليم البستاني. «الإصلاح». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٢١٤. «جملة سياسية» ج١٠ (١٨٧٩) =

العثمانيين[١] وترويج القواعد الوطنية بين قرائه من أبناء الوطن[٢]، ووقوفهم على آراء الغرب[٣] في كل ما يعود عليهم بالخير وافادتهم فيما يتعلق بانتظام هيئتهم الاجتماعية واصلاحها[٤]، وغرس بذور التمدن وروح العصر في تربتهم[٥] واكتسابهم المعارف التي هي واسطة الاصلاح وأساس التقدم والقوة والنجاح[٦]، بالإضافة إلى معالجة شؤون البلدان الأوربية[٧]، ومصالح الأجانب في ديارنا الشرقية ومداخلاتهم فيها[٨]، واقتباس الحسن وما يوافق ظروفنا وحالتنا من الأمور العصرية عنهم[٩] والانتفاع بخبراتهم والاستعانة بهم[١٠]، وإدخال أموالهم إلى بلادنا[١١]، والتقيد بعدم المساس بحقوق هذه الدول الأوربية ومصالحها في الشرق لأن نجاة الوطن «إنما تكون بالجمع بين صالحه وصالح أوربا»[١٢]. لا بل أن الوطني الغيور على مستقبل وطنه والذي له اطلاع واسع على سياسة أوربا[١٣] يجمع «بين صالح الوطن وارضاء الأجانب الذين عندما لا

= ص ٦٤٢.

(١) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٦ (١٨٧٥) ص ١١١.

(٢) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج١٢ (١٨٨١) ص ٦٧٣.

(٣) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٩ (١٨٧٨) ص ٥١١. علماً بأن سليم البستاني كان «يكتب أكثر الجنان ويلاحظ سياستها ومنشوراتها». «اتحاد الجنان والجنة ولسان الحال». **الجنة**، العدد ١٧٤٦ تاريخ ١١/١١/١٨٨١ ص ١. **الجنان** ج١٢ (١٨٨١) ص ٧٠٣ ـ ٧٠٩.

(٤) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٣٥٨: ٨٢٦.

(٥) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ٢٩٠، وج٦ (١٨٧٥) ص ٤٦٩، وج٩ (١٨٧٨) ص ٣٢١.

(٦) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ١٤٢، ٤٦٧، وج٥ (١٨٧٤) ص ٧٣٦، وج٦ (١٨٧٥) ص ٢٩٠.

(٧) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٥٧٧، وج٦ (١٨٧٥) ص ٣٩٧.

(٨) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٣: ١٨٢، وج١١ (١٨٨٠) ص ٩٨، وج١٢ (١٨٨١) ص ٦٠٩، وج١٣ (١٨٨٢) ص ٥١٥.

(٩) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٩ (١٨٧٨) ص ٧٠٤، وج١٠ (١٨٧٩) ص ٥، وج١١ (١٨٨٠) ص ٦٤٢، وج١٢ (١٨٨١) ص ٢٥٨: ٦٤٣.

(١٠) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٤٣٥ وج١٣ (١٨٨٢) ص ١٣٠.

(١١) سليم البستاني. «ينبوع الثروة». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ١٨٢، وج٤ (١٨٧٣) ص ٥٤٣.

(١٢) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج١٢ (١٨٨١) ص ٥٧٧.

(١٣) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج١٢ (١٨٨١) ص ٦٤٣.

يرتضون يأتون بالمدفع والسيف[١]. وبالرغم من اتساع نطاق اهتماماته وتنوعها كان أحب الكلام إليه، على حد تعبيره: «هوالكلام عن أحوالنا الداخلية لنبين ما نشعر إليه من اصلاح بين مجالسنا وحكوماتنا الإجرائية وترويج أشغالنا واخراج معادننا وتمهيد طرقنا وغير ذلك[٢] بما في ذلك «الانهماك في الاصلاحات الداخلية قبل الغوص في محيط فوائد وأخبار العالم قاطبة»[٣]. ولا يلام كتاب الجرائد الأمينة[٤] إذا ما اهتموا بشؤون محيطهم، لأن للمصالح الداخلية المكان الأول عندهم، وهي أعظم ما يحتاج إليه أبناء الوطن[٥]، «فكيف نلام إذا جعلنا جملنا السياسية[٦] في الأجزاء السابقة مقاماً للكلام عما يهمنا نحن أكثر من الآخرين من جهة تبين ما هو محتاج إلى الإصلاح عندنا في أدبياتنا ومدنياتنا ومادياتنا ونسبة بعضنا إلى البعض الآخر»[٧]. وحدد هذه الاحتياجات بسبعة أمور كبرى هي:

«أولاً ـ أن يكون للأهالي أجمعين، مع اختلاف مذاهبهم، اشتراك في الإدارة محلياً وغير محلي انفاذا لقاعدة وحدة الأمة العثمانية وتمكيناً لروابط الأخوة الوطنية في السلطنة قاطبة وصرف النظر في الأمور الإدارية والقضائية وغيرهما عن الدين. وجعل المعول عندنا عصبة جنسية وما هي إلا العصبة العثمانية.

«ثانياً ـ إجراء القوانين التي قد صار وضعها وجعلت الأمور الدينية منفصلة كل الأنفصال عن الإدارة والقضاء. وتعيين معاشات كافية لجميع المأمورين وأرباب القضاء والضبط ليتدرجوا في سلم العدل والانصاف ويصير الابتعاد عن الرشوة ومراعاة الخواطر.

«ثالثاً ـ وضع أساسات لفصل القضاء عن الحكومة الاجرائية بالتدريج لقطع أصول الاستبداد الرائي في مدة قصيرة.

---

(١) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج١٣ (١٨٨٢) ص ٥٤٧.

(٢) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٤٨٢.

(٣) سليم البستاني. «الإصلاح». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ١٨٠.

(٤) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ١٤٦ حيث ذكر: «ان زمام الهيئة الاجتماعية في هذا العصر هو في يد جرائدها».

(٥) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج١٠ (١٨٧٩) ص ٢٩٠.

(٦) اعتباراً من السنة الثالثة أخذ رئيس تحرير **الجنان** يدعو جمله الأولية «جملة سياسية».

(٧) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ٥٠٥.

«رابعاً ـ ربط الأمور الأميرية كلها بحيث تمتنع المداخلة في أمور أهل الفلاحة وتمكين كل إنسان من أن يعرف في بادىء سنته المال الذي يلزم بدفعه عن نفسه وملكه.

«خامساً ـ الانصباب على الإنشاءات النافعة كإنشاء الطرق الحديدية والترع والمرافىء.

«سادساً ـ اتخاذ الوسائل اللازمة لجعل التعليم عاماً اجبارياً في سنين قليلة.

«سابعاً ـ انفاذ القواعد الجديدة المتعلقة بصيانة الراحة وإجراء الأحكام»[1].

وذكر بأن لا مآرب له سوى المآرب المتعلقة بإصلاح الأحوال الداخلية ولذلك كان يهمه النظر «إلى بلادنا السورية» أكثر من غيرها من البلدان[2] الشيء الذي جعله يعالج الأعمال التي قام بها كل من ولاة سوريا ما بين ١٨٧٠ و ١٨٨٤.

كما أولى اهتماماً خاصاً بمعالجة شؤون مصر، وبصورة خاصة أعمال كل من الخديوي إسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) الذي شبه إصلاحاته في مصر بإصلاحات الإمبراطور بطرس الأكبر في روسيا[3]، والخديوي توفيق ١٨٧٩ ـ ١٨٩٢) وحكوماتهما. وذلك لأن أنظار الشرق وأهله أصبحت شاخصة إلى الديار المصرية وشعبها[4] لما يجري فيها من إصلاح أوعب «قلوب الشرقيين، خاصة العرب منهم، فرحا وحبوراً وافتخاراً وأصبحوا يعلقون الأمل بسريان الإصلاح الذي فاز به عضو مهم منهم إلى سائر الأعضاء»[5] لأن الشرق في عرفه «جسم واحد»[6]. كما اهتم بمعالجة أعمال كل من السلطان عبد العزيز (١٨٦١ ـ ١٨٧٦) الذي دعاه «أورليان بني عثمان»[7]، والسلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦ ـ ١٩٠٩)، وكل صدر أعظم تبوء الصدارة العظمى خلال الفترة الزمنية ١٨٧٠ ـ ١٨٨٤. أما فيما يتعلق بالشؤون الخارجية للسلطنة العثمانية فقد عالج في جملته الأولية الحرب الروسية العثمانية سنة ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ ومعاهدة برلين سنة ١٨٧٨، واحتلال فرنسا لتونس سنة ١٨٨٠،

---

(١) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج١٠ (١٨٧٩) ص ٤٨٢.

(٢) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٦ (١٨٧٥) ص ١٤٥.

(٣) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٦ (١٨٧٥) ص ٤٦٩ ـ ٤٧٠.

(٤) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج١٠ (١٨٧٩) ص ٢٥٧.

(٥) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج١١ (١٨٨٠) ص ٤٨١.

(٦) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج١٠ (١٨٧٩) ص ٦١٠.

(٧) سليم البستاني. «النطق الشاهاني». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٣٦٣.

والاحتلال الإنكليزي لمصر سنة ١٨٨١ وللسودان سنة ١٨٨٣.

وكانت أحوال البلدان الأوروبية تجذب أنظار رئيس تحرير **الجنان** إليها[١] لما لأوروبا من عظيم أهمية في العالم، «لأن الأحوال التي تجري في أوروبا تهمنا قدر ما تهم الأوربيين أنفسهم بل تتعلق بنا أكثر مما تتعلق بكثيرين منهم. فمن الواجب أن نعرف الحقائق التي تتيسر معرفتها بالتخمين بالاستناد إلى البراهين الجارية والاختبارات الماضية»[٢]. لهذه الأسباب لم يقطع النظر عن أحوال أوروبا فقام بترجمة العديد من الجمل الأولية عن أشهر جرائدها وبصورة خاصة تلك المواضيع المتعلقة بشؤون أوروبا السياسية والمالية والتجارية التي تتضمن «كلما يحتاج القوم إلى معرفته لملاحظة أحوالهم السياسية والمالية والتجارية»[٣]. وأهم تلك البلدان الأوروبية لديه كانت فرنسا[٤] «لأنها ما دامت مرتاحة، نحن في يسر مالي وتجارتنا في رواج»[٥]. بالإضافة إلى اعتقاده أن كل ما يؤثر في الغرب يؤثر فينا «إن مادياً وإن أدبياً فإننا قسم من أوروبا ولو كان مركزنا في قارة آسيا ولدولتنا يد في القارتين وفي أفريقية أيضاً»[٦]. واعتقاده هذا دعاه إلى القول بأنه ليس على الأمم الشرقية في هذا الزمان «أن تخترع أسباب التمدن وتكتشفها فإنها موجودة فما عليها إلاّ أن تنقلها عن أوروبا»[٧].

كانت هذه الجمل الأولية تحمل، خلال السنتين الأولى (١٨٧٠) والثانية (١٨٧١) وبعض السنة الثالثة (١٨٧٢) من صدور **الجنان**، عناوين مميزة ذات مواضيع متنوعة يحاول كاتبها، رئيس التحرير سليم البستاني، أن يعطي القارىء صورة واضحة لما يقصده بتلك التعابير والمفاهيم الحديثة التي توخى بواسطتها بث آراءه الإصلاحية. وتعريف الأشياء بالنسبة إلى سليم البستاني هو أمر ضروري جدا، لأنه «لا بد للإنسان من معرفة الشيء قبل اختياره أو رفضه»[٨] ليتمكن من تطبيق معرفته على خير ما يرام

---

(١) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٥٧٧.
(٢) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٦ (١٨٧٥) ص ٣٩٧.
(٣) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ٥٠٥.
(٤) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٥٧٧.
(٥) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٣٩٩.
(٦) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ٣٩٨.
(٧) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج١١ (١٨٨٠) ص ٦٤٢.
(٨) سليم البستاني. «روح العصر». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٣٨٦.

وذلك إيماناً منه بأن معرفة الشيء مجردة لا تكفي «لأن العمل هو الروح والمعرفة بدونه جثة بلا روح»[(١)].

لقد بلغت هذه الإفتتاحيات المعنونة ثمانية وأربعين افتتاحية، كانت تحمل عناوين مثل «الإصلاح»[(٢)] و«الممالك»[(٣)] و«روح العصر»[(٤)] و«من نحن»[(٥)] و«المساواة»[(٦)] و«صوت الأمة»[(٧)] و«قوتنا»[(٨)] و«الحقوق»[(٩)] و«مركزنا»[(١٠)] وغيرها. وفي بداية السنة الثانية (١٨٧١) استعمل لبعض هذه الافتتاحيات عنوان «خلاصة سياسية»[(١١)] وفي السنة الثالثة (١٨٧٢) أخذ يدعوها «جملة سياسية»[(١٢)]. ثم تبنى هذه التسمية الأخيرة لافتتاحياته اعتبارا من العدد الثاني عشر من السنة الثالثة تاريخ ١٠ حزيران سنة ١٨٧٢ واستمر على ذلك حتى العدد السابع عشر من السنة الخامسة عشرة تاريخ أول أيلول ١٨٨٤[(١٣)] قبيل وفاته[(١٤)]. وتابع شقيقه نجيب تسميتها «جملة سياسية» إلى أن توقفت

---

(١) سليم البستاني. «جملة سياسية». الجنان ج٤ (١٨٧٣) ص ٤٦٩.

(٢) ظهر منها خمس مقالات تحمل «الإصلاح» كعنوان. الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ١٢٩ ـ ١٣٠، وج٢ (١٨٧١) ص ١٧٧ ـ ١٨٠، ٢١٣ ـ ٢١٦، ٢٤٩ ـ ٢٥١، ٧٥٣ ـ ٧٥٥.

(٣) سليم البستاني. «الممالك». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٢٨٩ ـ ٢٩١.

(٤) سليم البستاني. «روح العصر». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٣٨٥ ـ ٣٨٨.

(٥) سليم البستاني. «من نحن». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ١٦١ ـ ١٦٢.

(٦) سليم البستاني. «المساواة». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٤١٧ ـ ٤٢٠.

(٧) سليم البستاني. «صوت الأمة». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٢٨٥ ـ ٢٨٧.

(٨) سليم البستاني. «قوتنا». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٤٦٥ ـ ٤٦٧.

(٩) سليم البستاني. «الحقوق». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٥٧٣ ـ ٥٧٥.

(١٠) سليم البستاني. «مركزنا». الجنان ج٣ (١٨٧٢) ص ١٤٥ ـ ١٤٧.

(١١) بلغ عددها ست افتتاحيات. «خلاصة سياسية». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٣٣ ـ ٣٦، ٦٩ ـ ٧٢، ١٠٥ ـ ١٠٨، ٣٢١ ـ ٣٢٤، ٣٥٧ ـ ٣٥٩، وج٣ (١٨٧٢) ص ٣٧ ـ ٣٩. كما ظهرت مقالتان إيضاً في مكان آخر غير الافتتاحية. الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ١٤٤ ـ ١٤٧، ٢٥١ ـ ٢٥٣.

(١٢) سليم البستاني. «جملة سياسية». الجنان ج٣ (١٨٧٢) ص ١٠٩ ـ ١١١.

(١٣) سليم البستاني. «جملة سياسية». الجنان ج٣ (١٨٧٢) ص ٣٩٦ ـ ٣٩٧ حتى ج١٥ (١٨٨٤) ص ٥١٣ ـ ٥١٤.

(١٤) بلغت هذه الجمل السياسية ٢٨٧ جملة سياسية بالإضافة إلى «جملة في الهيئة الاجتماعية». ج٣ (١٨٧٢) ص ٨٢٩ ـ ٨٣١، و«جملة أدبية» ج٥ (١٨٧٤) ص ٣٧ ـ ٣٩، و«جملة افتتاحية»=

نهائياً عن الصدور[١].

إن الجمل الأولية، في السنوات الخمس الأولى، كانت أقرب إلى تقرير الحقائق الأولية والمفاهيم منها إلى التحليل الموضوعي للأمور التي تعالجها حيث كان رئيس التحرير يكتبها بأسلوب انشائي خطابي للتأثير على قرائه باعتماد البلاغة والبيان وكتابة الجمل المليئة بالمعاني المسلّم بها بديهياً لأنها أمور لا خلاف عليها يقبلها الجميع دون جدال. ومثال على ذلك جاء في افتتاحية «الإصلاح» حيث يقول:

«هل يصطلح العرب؟ هل يرد الزمان إليهم الإتحاد؟ هل يقيم لهم الدهر عزاً؟ هل يكلل تاج النجاح جبالهم؟ هل يطلع في مشرقهم بدر العلم؟ هل تنير شمس التمدن سهولهم. هل يغرد بلبل السعادة في جنانهم؟ هل يرتفع عمود الثبات في حصونهم؟ هل يحرك البخار آلات صناعتهم ومحارث زراعتهم؟ هل تدير تجارتهم دولاب البخار؟ هل تتحلى ألسنتهم بصحة لفظ درر لغتهم؟ هل يخط المداد صحيح عبارتها، هل يطلع طالع السعد في برج الصعود؟ أو لا»[٢].

جميع هذه الأمور هي مطالب يجب أن تتحقق. أو كقوله في مقالة أخرى مسلّم بجميع أمورها:

«فيا أيها الشرقيون إن ينبوع إصلاحنا هو همتنا وحدنا وكدنا فهل يسوّغ أن نسير سيراً زميلاً والدهر يركض في المركبات النارية والأسلاك البرقية؟ إليكم عن الفساد والكذب والرشوة والخداع، ودونكم الصلاح والصدق والعدل والاتحاد والتعاون والالفة والمحبة فيجتمع العاشقان وهما خير الأمة وخير الدولة»[٣].

أو كقوله حول الوحدة الوطنية:

«لذلك لا بد من أن نكون في معابدنا إسلاماً وأرمن ودروزاً وموارنة وروماً وكاثوليكاً ونصيرية وسرياناً وغير ذلك وفي ميادين الأعمال عثمانيين لنا راية واحدة»[٤].

= ج١٥ (١٨٨٤) ص ٤٨١ ـ ٤٨٣. و«مقالة افتتاحية» ج١٥ (١٨٨٤) ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

(١) بلغت الجمل السياسية التي كتبها نجيب البستاني ٣٥ جملة سياسية بالإضافة إلى «مقالة افتتاحية». ج١٥ (١٨٨٤) ص ٥٧٧ ـ ٥٧٩.

(٢) سليم البستاني. «الاصلاح». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ١٢٩.

(٣) سليم البستاني. «الاصلاح». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٢١٦.

(٤) سليم البستاني. «جملة سياسية». الجنان ج٥ (١٨٧٤) ص ١٨١.

أو كقوله حول تنفيذ القوانين[١]:

«لا نحتاج إلى شرائع ونظامات وقوانين كما أننا لا نحتاج إلى هواء طيب وأرض مخصبة ولكن افتقارنا في بعض الأماكن إنما هو إلى الإجراءات المطابقة لذلك فإنها روح الشرائع والنظامات والقوانين، وبها تستبد حال الأمم فتستأمن على ناموسها وأنفسها وأملاكها فيعرف السائس حدوده والمسوس واجباته. والقيام بالإجراء أصعب من سن النظامات والقوانين»[٢].

ويظهر أنه أخذ يتخلص من هذا الأسلوب الخطابي تدريجياً نتيجة لكثرة إطلاعه على آراء الجرائد الأوروبية وبصورة خاصة الفرنسية والإنكليزية منها، ولاكتسابه خبرة واسعة في هذا المجال وذلك على حد قوله:

«كلما اتسعت دائرة اختبار الكاتب[٣] كلما تحسنت كتاباته وكثرت فوائدها إذا كانت مفيدة واشتد تأثيرها»[٤] ويلمس هذا التحول الجذري في معالجته للأمور المطروحة عندما أخذ يعتمد بكتاباته أسلوباً واقعياً حيث لم يعد يكتفي بتصوير مواضيع أبحاثه تصويراً لفظياً فقط، بل أخذ يحللها بطريقة وافية مفصلة ويضع لها الحلول والمقترحات العملية التي تساعد على تبنيها وتطبيقها لإخراجها إلى حيز الوجود. وخير مثال على ذلك ما ورد في قوله حول الشروط الستة الواجب توفرها لصيانة استقلال الأمم وحماية عز الممالك وحفظ أراضي السلطنات:

«ولصيانة استقلال الأمم وحماية عز الممالك وحفظ أراضي السلطنات شروط في هذا العصر لا تستتب أمورها دون مراعاتها وهي ستة أمور أولية. الأمر الأول الإتحاد الوطني خاصة في الممالك الكثيرة الأجناس واللغات بحيث تكون صوالح جميع أهاليها مع اختلاف أجناسهم ولغاتهم متساوية سياسياً ومدنياً وتجارياً وعلمياً فإن ذلك يجعل

---

(١) يوافقه محمد رشيد رضا على هذا الرأي حيث كان يعتقد أن الدولة العثمانية بحاجة إلى تطبيق قوانينها فقط. المنار ج١٢ (١٩٠٩) ص ١٤ حيث يقول: «اننا لا نشكو من القانون ولكن من عدم تنفيذه.. (لأن) قوانين السلطة حبر على ورق».

(٢) سليم البستاني. «جملة سياسية». الجنان ج٥ (١٨٧٤) ص ٧٣.

(٣) وعلى حد قوله: «ومرآة القوم في هذا العصر كتابهم». سليم البستاني. «جملة سياسية». ج٣ (١٨٧٢) ص ٨٢٩.

(٤) سليم البستاني. «اسما». الجنان ج٤ (١٨٧٣) ص ٤٢٨.

كل عضو من أعضاء الأمة حريصاً على حقوقه خائفا من ضياعها فيدافع عنها بالرضى والإختيار باذلاً ما عزّ وهان في سبيل صيانة الحالة التي تجعله متمتعا بها. والثاني صيانة الأمنية العمومية في كل قطر بحيث تكون السلطنة وطناً أميناً لجميع الرعايا يتجولون فيها طالبين الترقي والتقدم منتفعين بأخصب أقطارها وأجمل ربوعها. الثالث انتظام العدلية بحيث يكون كل فرد من أفراد الأمة محمياً من تعديات أهل التعدي حماية نفسية وملكية فلا يقع عليه عدوان شخصي دون أن يكون محققاً أن القصاص يلحق بمن تعدى عليه ولا يخشى مطامع الذين يحاولون سلب ملكه والانتفاع بثمرات أتعابه كما إنه لا يخفى أن يصرف سنين وأموال قبل أن يتمكن من الإنتصاف من ظالمه من جري فساد بعض أعضاء المحاكم واعوجاج بعض أصحاب الإجراء. والأمر الرابع تعميم المعارف بالمدارس في كل جهة بحيث يؤول خروج الأهالي من ظلام الجهل والغباوة إلى ازدياد قوتهم الإكتسابية وسعادتهم المادية والأدبية واقتدارهم على المدافعة عن حقوقهم من أيدي أهل الظلم بمعرفة حقوقهم الطبيعية والمنح التي تمن بها عليهم يد الحضرة السلطانية. والأمر الخامس القيام بالمشروعات النافعة من إنشاء الطرق والمرافىء والترع وتنظيم البرد وتنقيص أجرتها وبنيان المدارس الزراعية وغير ذلك مما يجعل الداخلية والسواحل قادرة على الانتفاع بنتاج الكد والجد ويزيد مداخيل الأهالي والحكومة معا. والأمر السادس أن تكون مالية الحكومة ذات انتظام تام مقيدة بالمصروف وبأصول جمع الأموال الأميرية بحيث يكون كل إنسان عارفاً بما يطلب إليه دفعه منذ البداية دون أن يكون مجلس أو مأمور قادراً على تكثير الأموال أو تقليلها.

فهذه مباني إصلاحية أهم أسباب جريها في الولايات أن تكون مرعية من كل وجه في قاعدة السلطنة وأن يكون المأمورون والقضاة وأعضاء المجالس الذين تسلم إليهم المناظرة عليها القيام بها حاصلين فعلا على ما يكفيهم لأن يعيشوا معيشة رضى وسعة مستأمنين على مأمورياتهم ما زالوا لا يحيدون عن جادة الإستقامة بل متيقنين أن الخدمة الصادقة تعود عليهم بالترقي الذي يضمن لهم الراحة المعاشية ما زالوا في قيد الحياة ولعيالهم بعدهم إذا صرفوا سنين معينة في خدمة الدولة والوطن. وإذا راجعنا تواريخ الأمم السالفة بل تواريخ أمم قد غدت ذات قدر وشأن في هذا الزمان نرى أن بعضها قد بلغ التقدم الذي ينشأ عن مراعاة تلك القواعد بعد أن كانت أمما صغيرة خالية من التمدن والانتظام أو بعد أن بليت بمحن الدهر فكادت تبيت في ضياع بل في سقوط يمحو اسمها من دفتر أمم الدنيا ونرى أمماً أخرى عزيزة أهملت هذه الأمور

ووقعت في التكاسل والتقاعد فهبطت هبوطاً جعلها مثلاً وعبرة لغيرها»[1].

ونظراً لاضطرار رئيس تحرير **الجنان** إلى اتباع أسلوب الإسهاب في شرح الأمور التي يعالجها لتقريبها إلى أذهان قرائه نراه يلجأ إلى اتخاذ طريقة معينة في إنهاء معظم افتتاحياته اقتصر فيها على تلخيص المواضيع التي كانت تتناولها بالمعالجة بقوله، «والخلاصة» أو «والحاصل» أو «وبالجملة». ولا بد هنا من إيراد بعض الأمثلة على منهجه هذا. نراه مثلاً ينهي إحدى إفتتاحياته، التي أبدى فيها استهجانه لعادة الكذب التي كان يعتبرها «مغناطيس الرشوة»[2] بقوله: «والخلاصة أن الكذب هو آفة تهلك آداب الأمة وتثلم صيتها وتأتيها بأتعاب تشعر بها عندما تلجأ إلى ما تطلب إليه أن ينصفها. وأهون وسائط إصلاح الكذب هو إبطال الزي أو العادة الحالية التي هي عدم الخجل من ارتكاب الكذب»[3]. كما نراه ينهي افتتاحية أخرى، بعد أن دافع عن نظرية «فصل الدين عن الدولة» محبذاً تبنيها بقوله: «والحاصل أن الحرب بين الدين والسياسة حرب شديدة. وكل من يعرف التاريخ معرفة حكمية يقدر أن يخمن النتيجة ومهما عضدت السياسة الدين في أوربا لا تقدر أن ترجع به إلى ما كان عليه رجوعاً دائماً لأن أحوال الزمان قد تغيرت»[4]. وفي افتتاحية أخرى حول اختيار العادات الحسنة والمفيدة عن الأجانب، يقول: «وبالجملة نقول إن العادة لا تصير حسنة أو قبيحة لمجرد كونها إفرنجية أو غير إفرنجية»[5].

ثانياً: الأخبار المختلفة بما فيها الخطب وتراجم الأشخاص

إن باب الأخبار في مجلة **الجنان** هو عبارة عن موجز[6] للأخبار والحوادث السياسية، الداخلية منها والخارجية بما فيها خطب وتراجم السياسيين المعاصرين في القرن التاسع عشر. فتح هذا الباب خصيصاً لكي يكون رديفاً مساعداً لتوضيح

---

(١) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج١٢ (١٨٨١) ص ٤٨١ ـ ٤٨٢.
(٢) سليم البستاني. «الاصلاح». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٢١٤.
(٣) المصدر ذاته، ص ٢١٥.
(٤) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٧٢٢.
(٥) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ٣٩.
(٦) كانت تفاصيل هذا الأخبار ترد في جريدة **الجنة** التي كان يرأس تحريرها سليم البستاني. **الجنان** ج٩ (١٨٧٨) ص ٣٢٠.

المواضيع التي كان رئيس التحرير يعالجها في جمله الإفتتاحية[1]. ولم يوضع للأخبار الواردة في هذا الباب اسماً معيناً تعرف به بل ظهرت جميعها تحت عناوين مختلفة ومتنوعة ، مثل: الأحوال الجارية، أو الأخبار الأخيرة، أو الأخبار المحلية، أو أخبار مختلفة، أو ملخص أخبار التيمس أو الديبا أو الليفانت هرالد. . . الخ، أو إعلان وزير فرنسا أو ألمانيا أو انكلترا. . . الخ، أو خطاب أمبراطور أو ملك أو وزير وتحريره أو رسالته، أو الأحزاب أو الجيش في فرنسا أو روسيا أو ألمانيا. . . الخ، أو دار الخلافة ومصر أو تونس. . . الخ، أو الوزارة العثمانية أو الإنكليزية. . . الخ، أو رأي الجرائد الإنكليزية أو الفرنسية. . . الخ، أو رسالات برقية، أو تلغرافات، أو البرنس بسمارك أو موسيو تييرس. . . الخ، أو شتى (بمعنى متفرقات)، الخ.

وكانت معظم هذه المواد ملخصة ومترجمة عن الجرائد الإنكليزية والفرنسية بصورة خاصة مثل التيمس[2] (Times) والليفانت هرالد (Levant Herald) والساتردي ريفيو (Saturday Review) واللموند (Le Monde) والتان (Le Temps)، بالإضافة إلى بعض الجرائد الألمانية والروسية والإيطالية وذلك لأنه من واجب قراء مجلة **الجنان**، كما جاء في مقدمة إحدى مواد هذا الباب عن أحزاب فرنسا، أن يطالعوا هذه الأخبار «بالتدقيق ليفهموا الكتابات عن فرنسا حق الفهم بواسطة معرفة أسماء الأحزاب وأميالها»[3].

وهناك إشارات واضحة في بعض هذه الأخبار بأنها كانت تترجم بواسطة «دائرة الترجمة في المدرسة الوطنية»[4] من قبل أساتذتها[5] أو طلابها[6]. ولعل «دائرة الترجمة» التابعة لكتاب **دائرة المعارف** أخذت على عاتقها ترجمة هذه الأخبار بعد إقفال

---

(١) «الكتاب الأزرق». **الجنان** ج٧ (١٨٧٦) ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤.

(٢) كان يعتبر جريدة التيمس (Times) الانكليزية معتدلة ومنصفة. **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ١٤٦.

(٣) «أحزاب فرنسا». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ٨٣٦.

(٤) «الأب ياسنت». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٢٠٣.

(٥) المعلم سعد الله البستاني الذي كان يترجم عن الفرنسية. **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٤٨) وعن الإيطالية (**الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ١٤٩) والمعلم سليم أسعد، أحد أعضاء دائرة الترجمة في المدرسة الوطنية، **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٢٠٣.

(٦) «ثبات الرتيلاء» ترجمة الياس أفندي ملوك من تلاميذ المدرسة الوطنية». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ٢٧٤.

أبواب المدرسة الوطنية سنة ١٨٧٧[١].

وبالرغم من محاولة رئيس تحرير **الجنان** أن يكون موضوعياً وحيادياً بانتقاء أخباره وباحترام جميع الآراء[٢]، حتى المخالفة منها لآرائه، نرى أنه لم يَسْلم كلياً من سهام النقد الموجهة إليه واتهامه بالتحيز والمحاباة. لقد اتهم بأنه يعمد في نقل الأخبار المتعلقة بالمجمع المسكوني المنعقد في روما سنة ١٨٧٠ عن صحف «شهيرة البغضة والعدوان لكنيسة رومية[٣]. فرد هذه التهمة قائلاً بأن **الجنان** تعتمد في نقل أخبارها حول المجمع المذكور عن صحف إيطالية وفرنسية مؤيدة للكنيسة الكاثوليكية[٤]. واتهمت جريدة **ثمرات الفنون** البيروتية رئيس تحرير **الجنان** بتمويه أخبار الحرب الروسية العثمانية (١٨٧٧) وتشويهها وطلبت منه «ألا يغوي ولا يهوي ولا يرمي بدائه سواه وينسل ويكون عثمانياً وخادماً للوطن ومحباً له باطناً وظاهراً»[٥]، وذلك لأن الأخبار التي أوردتها **الجنان** حول تلك الحرب لم تظهر بجريدة **الليفانت هرالد** اليومية كما ذكر في **الجنان**. فرد سليم البستاني على هذه التهمة بقوله إنه لا ينقل عن جريدة **الليفانت هرالد** اليومية التي تصدر باللغة الفرنسية ولكنه ينقل عن جريدة **الليفانت هرالد** الأسبوعية التي تصدر باللغة الإنكليزية[٦].

ثالثا: المقالة العلمية

إن إذاعة العلوم، في جميع حقولها، وتعميمها كانت غاية رئيس تحرير مجلة **الجنان** من فتح باب المقالة العلمية في مجلته، لأن العلوم الصحيحة «تمكن الإنسان من الوقوف على حقائق الأمور ونتائجها ومعرفة نسبة الإنسان إلى عوالم نفس الأرض والإنسان والحيوان والنبات: أي أن يقف الإنسان على حقيقة نفسه وحقيقة غيره من

---

(١) ابتدأ العمل بتأليف دائرة المعارف سنة ١٨٧٤. وهناك إشارات بأن شاكر شقير، العامل بدائرة المعارف، كان يقوم بترجمة مواد للجنان.

(٢) سليم البستاني. تذييل: أعجب العجب. **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٦١٣ «جملة سياسية». ج٥ (١٨٧٤) ص ٨٣١.

(٣) **المجمع الفاتيكاني**. بيروت، المطبعة الكاثوليكية، العدد ١٧ تاريخ ٢٣ نيسان ١٨٧٠.

(٤) «المجمع في رومية». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٢٦٤.

(٥) **ثمرات الفنون**، العدد ١٣٥ تاريخ ٢٩ تشرين الثاني ١٨٧٧ ص ١.

(٦) **ثمرات الفنون**، العدد ١٣٨ تاريخ ٢٠ كانون الأول ١٨٧٧ ص ٣.

موجودات العالم. وهذا إنما يتم بتعلم الحكمة العقلية والعملية وبتعليم التاريخ مع أسباب حوادثه... مما يثقف العقل»[1]. وأكبر دليل ساطع على مدى تأثير العلوم الحديثة هو الانتصار الباهر الذي أحرزته ألمانيا على فرنسا في الحرب الألمانية الفرنسية سنة ١٨٧٠ حيث أن الألمان أنفسهم يعزون انتصارهم هذا إلى تقدمهم العلمي الذي لولاه لما تمكنوا من التغلب في الحرب[2] فبناء على ذلك يلزم أن نجني من زمن حرب ألمانيا وفرنسا الفائدة الأولى وهي أن المعرفة هي أساس التقدم والقوة والنجاح»[3]. ولذلك كان رئيس تحرير الجنان يدعو إلى الإنصباب على تحصيل العلوم الحديثة عن الأجانب لأن مقاومة تحصيل تلك العلوم لمجرد كونها مأخوذة عن الأجانب هو «غلط وجهل ليس دونه جهل وعلى الخصوص بعد أن رأينا ما رأيناه من اعتناء سلفائنا في جمع معارف اليونان وترجمتها»[4] وبأن العرب هم «أول من أخذ البارود عن الصينيين واكتسبت أوربا معرفة استعماله منهم»[5]. بالإضافة إلى اعتقاده بأن أخذ العلوم عن أهلها وإن كانوا أجانب «مأمور به شرعاً وعرفاً، وهو ينطبق على الصالح العام وإهمال ذلك يلقي في تأخر وضعف ببقاء الممتنع عن التعليم على حاله وتقدم مجاوريه في سلم المعارف التي هي ينبوع القوة في البشر»[6].

إن العلوم الحديثة، على حد تعبير سليم البستاني، تثقف العقل وتوسع دائرته وتمكن الإنسان من القيام بواجباته خير قيام يختلف عن قيام الحيوان بها: «فإن تقلد السيف للدفاع عن زماره يتنكب معه رمح الإدراك وحسن الإدارة، وإن أولج المحراث في الأرض يعرف مفاعيل ذلك وخواص الأرض ووسائط تقدمها وأسبابها، وكذلك إذا استخدم آلات الصناعة لتغيير هيئات المعادن والمحصولات، وهذه المعرفة تمكنه من

---

(١) سليم البستاني. «الان». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٦١٢.

(٢) سليم البستاني. «لسان الحال». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ١٤٢. ولقد استشهد فرح انطون في مجلته «الجامعة» بقول بسمارك: «اننا ما غلبنا فرنسا إلا بمعلم المدرسة». الجامعة ج٢ (١٩٠٠) ص ٩.

(٣) سليم البستاني. «لسان الحال». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ١٤٣.

(٤) سليم البستاني. «قوتنا». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٤٦٦.

(٥) سليم البستاني. «جملة سياسية». الجنان ج١٤ (١٨٨٣) ص ٢٢٦.

(٦) المصدر ذاته.

التفنن والاختراع والتوفير وهذا هو من أكبر أسباب نجاح الإفرنج وتقدمهم في الصناعة والإختراعات»[1]. وهذا ما دعاه للترحيب ترحيباً حاراً بخريجي أول فوج من أطباء القسم الطبي في الكلية السورية الإنجيلية (الجامعة الأميركية في بيروت حالياً)[2]، وبالطلاب السوريين المتخرجين من المكتب الطبي في الآستانة العلية[3] والمدرسة الطبية الخديوية المصرية سنة ١٨٧٤[4]، مظهراً «عظم فائدة نشر الطب بين أولاد بلادنا»[5]، مغتبطاً لأن «مشرق العلم ينفجر عن أشعة الشمس التي طالما هجرتنا فكيف لا نقول مترحبين بها: العود أحمد»[6]. بالإضافة إلى اعتقاده أن الشرق لن يبلغ درجة عالية من الرقي والتقدم في حقل الصناعة ما لم يعتمد سياسة إرسال جماعة «من شبان الشرق إلى أوربا لتعلم صنائعها ثم الرجوع بها إلى بلادهم حيث يتلقاه جمهور من أصحاب الرساميل لإمدادهم بما يحتاجون إليه ترويجاً لصناعاتهم»[7].

إن معظم المقالات العلمية المنشورة في مجلدات الجنان هي من أقلام أطباء أجانب[8] ووطنيين[9]، بالإضافة إلى المقالات التي كان يكتبها رئيس التحرير سليم البستاني وبعض العاملين في دائرة الترجمة العائدة لكل من المدرسة الوطنية ودائرة المعارف [10]، والمقالات

---

(١) سليم البستاني. «قوتنا». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٤٦٦.

(٢) «العود أحمد». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٥١٣ ـ ٥١٥. بلغ عددهم ستة هم رشيد شكر الله وسليم ذياب وسليم فريج وشبلي شميل وناصر حاتم ويوسف حجار.

(٣) «المشورة الطبية في الآستانة العلية». الجنان ج٥ (١٨٧٤) ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ نشر أيضاً صورة الشهادة المعطاة إلى نعوم بدور.

(٤) عدد منهم أربعة، هم: أسعد أبو نحول وحبيب جبور وحسين عودة ويوسف الشدياق. الجنان ج٥ (١٨٧٤) ص ٧٧٠ ـ ٧٧١.

(٥) «صورة الشهادة التي أعطيت من المدرسة الطبية الخديوية المصرية إلى حبيب جبور من زحلة» الجنان ج٦ (١٨٧٥) ص ٢٨٠ ـ ٢٨٣.

(٦) «العود أحمد». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٥١٥. ولقد اهتم بنشر «قوانين التطبيب» المطبقة في الدولة العثمانية مترجمة إلى اللغة العربية. الجنان ج٣ (١٨٧٢) ص ٤٠٦ ـ ٤٠٧.

(٧) سليم البستاني. «سنة (١٨٧٠)». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٦٧.

(٨) الدكتوران كرنيليوس فان ديك وجورج بوست من أساتذة الكلية السورية الإنجيلية.

(٩) الدكاترة: شبلي شميل وسليم ذياب وسليم جريديني وسليم جلخ وداود أبو شعر وجرجس الخوري وغالب الخوري وخليل أبي سعد وخليل سعادة وشاكر الخوري وحبيب جبور.

(١٠) كل من سليم أسعد، أحد أعضاء دائرة الترجمة في المدرسة الوطنية وشاكر شقير، العامل في دائرة المعارف. انظر أعلاه ص ١٦٩ ـ ١٧٠.

التي كانت تنقل عن دائرة المعارف [1] والمجلات والجرائد العربية[2]. وكانت هذه المقالات أقرب إلى تفسير الحقائق العلمية وشرحها على المستوى المدرسي لأن ذلك كان أمراً ضرورياً حتمه المستوى العلمي السائد في تلك الفترة كي يطلع القراء وطلاب العلم على ما لا بد منه لفهم العلوم في تطورها[3]. وكانت مواضيعها تشتمل على عوالم الحيوان والنبات والجماد مثل المواد التالية: الإنسان والحواس والأسد والخيل والفيل والقرد، والبطاطا والحنطة والذرة والشعير، والأرض والجبال والبحار والزلازل والبترول والإبراة المغناطيسية، ومواضيع مثل «حفظ الصحة» و«أمراض الأطفال» وما شابه. وبالرغم من أن مجلة **الجنان** لم تكن المجلة العربية الأولى التي صدرت في العالم العربي «ولا كانت مجلة تفرغ أكثر ما تفرغ لمسائل العلوم، ولكن ما نشر فيها كان كالحافز لأولي الاقدام»[4] لترجمة ونشر ما يستحدث ويستجد من العلوم عند أهل الغرب إلى أهل الشرق[5].

---

(١) المقالات المنقولة عن دائرة المعارف: «الالتصاق» **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ١٤٥ ـ ١٤٩: «الامساك» **الجنان** ج١١ (١٨٨٠) ص ١٧٦ ـ ١٧٩: «البغاء» **الجنان** ج١١ (١٨٨٠) ص ٦١٧ ـ ٦٢٠: و«الكاز أو البترولیوم» **الجنان** ج١١ (١٨٨٠) ص ٣٩٥ ـ ٣٩٨، ٤٣٤ ـ ٤٣٧.

(٢) مثل «الرائد التونسي (تونس)، والطبيب (بيروت)، والكوكب المصري (مصر)، والمبشر (الجزائر)، والنشرة الأسبوعية (بيروت).

(٣) يذكر الدكتور فؤاد صروف أن مجلة المقتطف كانت تتبع في بداية عهدها هذا الأسلوب في نشر العلوم. فؤاد صروف «تطور الفكر العلمي في المئة العام الأخيرة». **الأبحاث** ج١٥ (١٩٦٢) ص ١٧٤. ويذكر منشئاً **المقتطف** عند حديثهما عن البستانين، بطرس وسليم، ما يلي: «ولطالما ذكر **المقتطف** مآثرهما فاثنى على عظيم همتهما لأنهما مهدا له الطريق وجارياه بالجنان مجاراة الصديق للصديق» «ضريح البستانين» **المقتطف** ج٩ (١٨٨٥) ص ٣٧٨.

(٤) لقد جعل الدكتور فؤاد صروف في مقالته حول «تطور الفكر العلمي العربي في المئة سنة الأخيرة» مقال الدكتور كرنيليوس فان ديك عن «أوجه الشبه بين النبات والحيوان» **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ١٠ ـ ١١ فاتحة عهد في دراسة النهضة العلمية خلال المئة سنة الأخيرة. **الأبحاث** ج١٥ (١٩٦٢) ص ١٧١. ولكن ظهر للدكتور كرنيليوس فان ديك مقال «حول لذات العلم وفوائده». في **أعمال الجمعية السورية** ص ٢ ـ ١٠ قبل عشر سنوات من بدء المرحلة التي يتحدث عنها الدكتور صروف. وتليها مقالة حول «أصول الشرائع الطبيعية» لسليم نوفل. المصدر ذاته ص ١٤ ـ ٢٦.

(٥) ان تحرير الجرائد والمجلات في القرن التاسع عشر كان سهل جداً، على حد تعبير فرح =

رابعاً: المقالة الأدبية

كان سليم البستاني، رئيس تحرير مجلة الجنان، يطمح بأن تتحلى ألسنة الناطقين بلغة الضاد، «أفصح اللغات وأوسعها»[١]، بصحة لفظ درر لغتهم وأن يخط المداد صحيح عباراتها[٢] وأن تنهض من سباتها العميق بعد «الهجوع الذي طرأ عليها بواسطة صروف الزمان»[٣] ذلك السبات الذي جعل القارىء في القرن التاسع عشر يكاد لا يرى في أكثر كتابات محرري الجرائد العربية وجميع المؤلفين عبارة يقف عندها «أو موضوع في قالب يليق به أو فكر جديد أو ما شاكل ذلك مما يدل على اختبار الكاتب في أحوال المعيشة والبشر ومعارفه السياسية والمتعلقة بالهيئة الإجتماعية، فلا ترى غير ذهب وأتى واختلف وفض والتعصب والتمدن والنجاح والتأخر وكلمات أخرى قليلة واستعارات ليست مقدمات ولا ختام لجمل سياسية أو لتحريضات أدبية أو غيرها»[٤]. وكان من أجلّ مقاصده، في تحرير مجلة الجنان أن يجرد الكلام في اللغة العربية من اغلال السجع تدريجياً وبصورة خاصة «بعد أن حمل الجهل على الإعتقاد بأن كل الفصاحة في رنة القافية»[٥] مع العلم أنه كان يظن أن استعمال السجع هو «مستحسن في مواقع كثيرة من الروايات الفكاهية»[٦].

وكان يعتقد بأن الكاتب الذي يكتب بلغة عربية بسيطة واضحة هو كاتب مثالي لأن كل «الفصاحة والبلاغة في الوضوح والبساطة»[٧] لا بل إن أفضل كاتب، في نظره، هو ذلك الكاتب الذي «وهبه الله قلماً بسيطاً سيالاً تفهمه العامة وترضى به الخاصة»[٨].

= انطون، رئيس تحرير مجلة الجامعة، «فإنه يكفي أن تكون في مكتبة الكاتب دائرة للمعارف الأوروبية (انسكلوبيديا) لتكون مجلته أو جريدته علمية تاريخية صحية فلسفية زراعية سياسية صناعية. إذ باب الترجمة واسع لكل داخل». **الجامعة** ج٤ (١٩٠٣) ص ٣٢٥.

(١) سليم البستاني. «من نحن». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ١٦١.

(٢) سليم البستاني. «الاصلاح». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ١٣٠.

(٣) «تنبيه». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ١٧٧.

(٤) سليم البستاني. «اسما». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٢٥٠.

(٥) سليم البستاني. «تذييل: أعجب العجب». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٦١٢.

(٦) المصدر ذاته.

(٧) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٦١٥.

(٨) سليم البستاني. «اسما». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٤٢٨.

ويعترف بأن طريقة الكتابة هذه ليست من استنباطه ولا من بنات أفكاره بل هي نتيجة اتفاق بين كل من الشيخ ناصيف اليازجي، «المشهور بالفضل والعلم، شاعر العصر، اللغوي النحرير فخر زمانه»[1] وبين والده اللذين كانت تربط بينهما «صحبة وصداقة متينة المباني، وجيرة، جعلتهما كشقيقين متفقين بالعمل والرأي. وطالما قالا أن البلاغة في البساطة والبراعة في سكب المعاني الدقيقة في أبسط القوالب وأجلاها. والكتابة النافعة التي ترضى بها الخاصة وتفهمها العامة»[2]. ولعل إدراكهما، نتيجة خبرتهما وممارستهما، بأن الضعف السائد لدى القراء وطلاب العلم لفهم اللغة العربية الفصحى حتم عليهما اتخاذ مثل هذا الموقف. ويؤيدهما الدكتور يعقوب صروف، رئيس تحرير مجلة **المقتطف** والذي كان مدرساً للعلوم الطبيعية في الكلية السورية الإنجيلية بين سنة ١٨٧٤ و١٨٨٥، في موقفهما هذا حيث يقول بأنه كان «يشعر بالحاجة إلى التقريب بين اللغة المحكية واللغة المكتوبة، لأننا كنا نضطر أن نشرح قواعد العلوم لتلامذتنا باللغة المحكية حتى يفهموها»[3]. إن ردود الفعل تجاه هذه الطريقة كانت متناقضة كلياً فبينما نجد أن الفيكونت فيليب دي طرازي، صاحب كتاب **تاريخ الصحافة العربية**، يحبذ خطة **الجنان** بكتابة فصولها «بلغة تفهمها العامة ولا تأنف

---

(١) سليم البستاني، (بطرس البستاني). **الجنان** ج١٤ (١٨٨٣) ص ٣٢٣.
ووصف ناصيف اليازجي في مكان آخر من الجنان بأنه «ذلك المفضال الذي قلما يجود الزمان بمثله». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٥.

(٢) المصدر ذاته. ذكر ابن منظور عند تعريفه لكلمة «اختفى بمعنى خفي» بأنها لغة ولكن «ليست بالعالية ولا بالمنكرة». **لسان العرب**. بيروت، صادر، ١٩٦٨ ج١٤ ص ٢٣٤. ولعل ذلك ينطبق على هذا النوع من الكتابة.

(٣) «العربية المحكية في مصر» **المقتطف** ج٢٧ (١٩٠٢) ص ١٨٩. لا بد هنا من الاستشهاد برأي معاصر لأحد أساتذة اللغة العربية والمشارك في رئاسة تحرير **النشرة الأسبوعية** ومجلة **الرئيس**، إبراهيم الحوراني، حيث يقول: «إن الخطاب في اللغة العامية أوقع في نفس المخاطب لأنه تعودها وتعلمها بالمزاولة منذ الطفولة. وهي أوجز من لغة الخاصة، فلا يشغل الافهام بها إلاّ وقتاً قصيراً بالنسبة إلى ما يشغله باللغة الفصحى... ولهذا رأى بعض علماء عصرنا أن تجعل لغة العامة لغة الكتب المحدثة توسيعاً للفائدة وحرصاً على الوقت ولشدة التأثير في النفوس، ولكن في ذلك بلاء كبيراً إذ تقل صلة الافهام بين الشعوب المتكلمة بالعربية فإن لغات العامة مختلفة بينهم وهي لا تزال تختلف على التوالي». إبراهيم الحوراني. «اللغات العامية». **النشرة الأسبوعية**، العدد ٢٤٩١ (١٩١٣) ص ٣٣٧ ـ ٣٣٩.

منها الخاصة»[1] معتبراً إياها «خطة حسنة يشكر عليها المعلم بطرس البستاني وأنجاله الذين أجادوا وأفادوا في ابتكار هذه الطريقة دون سواهم لخدمة الصحافة والعلم والوطن»[2]، نجد أن الشيخ محمد عبده يعتبر ذلك ضرباً غريبا في بابه من التعبير جاء «من الأقطار السورية في جريدتي الجنة والجنان المنشأتين بقلم المعلم بطرس البستاني. وهذا الضرب كان يعد من غرائب الأساليب وبه انشئت جريدة الاهرام في مصر وقد محي أثره والحمد لله»[3]. وعند كلام عيسى اسكندر المعلوف في مقالته «الصحافة العربية» حول تأثير الصحف على أقلام الكتّاب بين عامي ١٨٧٠ و١٨٩٠ حبّذ سمو الأفكار الواردة في الجنان واستهجن ركاكة ألفاظها. لقد قال: «أما التأثير على الأقلام فإن بعضها كان في أول عهده ركيك العبارة إفرنجي الأسلوب ولكن سمو أفكارها دقيقة تحت عبارات ركيكة مما يدل على أن منشئيها انصرفوا بكليتهم عن اللباس اللفظي إلى الجوهر المعنوي»[4]. لا شك أن كل قارىء لمجلة الجنان يشعر، في بعض الأحيان وبصورة خاصة في روايات السنوات الأولى، أن تراكيب بعض الجمل التي يقرأها ضعيفة المبنى ولكن ذلك لا يعني بأن كل عباراتها كانت ركيكة. إن هذا الضعف ليس ناتجاً عن عدم تملك رئيس التحرير ناصية اللغة وعدم مقدرته على الكتابة بلغة سليمة بل إن ذلك يعود إلى ضيق وقته وتراكم أشغاله وعدم تفرغه حق

---

(١) فيليب دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية. ج٢ ص ٤٧.

(٢) المصدر ذاته.

(٣) محمد رشيد رضا. تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده. القاهرة، مطبعة المنار، ١٩٣٠ ج١ ص ١١ ـ ١٢. هذه الفئة من الخاصة كان يخشاها أصحاب المجلات والجرائد في القرن التاسع عشر. يذكر فارس نمر إنه عندما أسس المقتطف مع زميله يعقوب صروف كان يخشى ألا تؤازرهما الخاصة «لأن أكثرهم كانوا من طلاب اللغة العربية والمتأدبين بآدابها والرافعين لوائها كالمرحومين الشيخ أحمد فارس الشدياق والشيخ ناصيف اليازجي والشيخ يوسف الأسير والشيخ إبراهيم الأحدب وأمثالهم من علماء الشام وغيرها. وكانوا هم وأتباعهم قلما يقدرون لغير اللغة العربية قدراً ولا لعلم غير علوم أهلها وأدبائها مقاماً، وإذا قلت لهم أن زيداً اكتشف كذا وعمراً صنف كذا من علماء عصرنا ازدروا قولك وأجابوك على الفور:

ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بكاها فقلت الفضل للمتقدم»

فارس نمر. «بعد ستين سنة: ذكريات في عهد الصبا». المقتطف ج٨٨ (١٩٣٦)ص ٥٦٣.

(٤) عيسى اسكندر المعلوف. «الصحافة العربية. النعمة ج٢، عدد ١٢ (أيار ١٩١١) ص ٧٢٤. وطرازي، تاريخ الصحافة العربية ج٢ ص ٤٧.

التفرغ لمراجعة كتاباتها ولتنقيحها وتبييضها. وطالما توسل إلى قرائه أن يعاملوه «بالعفو والصفح»[١] ويغضوا الطرف عما يجدوه من «الغلط والزلل»[٢] و«السهو والخطأ»[٣] ويسبلوا ذيل المعذرة على هفواته لأن كل كتابات الجنان «مطبوعة بلا تبييض حتى ولا مراجعة مسوداتها»[٤]. لا بل إنها كانت تطبع عن المسودة وإن كثيرين من أصدقائه والعاملين في دوائر الأشغال عنده يعرفون ذلك ولذلك يحق له، على حد تعبيره، أن يصادف العفو والمعذرة «عن الزلات التي لا بد من وقوعها بواسطة السرعة وتراكم الأعمال»[٥]. وإدراكاً منه باستحالة مقدرته على التوفيق بين تراكم أعماله ومراجعة كتابات الجنان علّق على ذلك بقوله: «ووجهان يأتيان بالمقصود بلا تنقيح خير من وجه مبيض منقح»[٦].

وبالرغم من إيمان سليم البستاني، رئيس تحرير الجنان، القائل بأنه يجب علينا، نحن الناطقين باللغة العربية، ألا نحوّل أنظارنا عن معرفة قواعد لغتنا وبيانها، كان يعتقد بأن قصر عمر الإنسان وكثرة العلوم «لا تسمح لنا بأن نغوص في بحر معارفنا النحوية والصرفية والبيانية غوصاً يمكننا من الوصول إلى قاعها ولذلك كان من اللازم أن نجني منها ما يحمينا من غلط الكلام والكتابة والقراءة»[٧]. وهذا ما جعله يعتبر جميع كتابات الجنان قطعاً أدبية لأنها لا تخلو من التشبيهات البديعة والإستعارات المجازية والجمل البيانية مع أنها كانت تتحرى المعنى أولاً واللفظ ثانياً لأن اللغة هي «واسطة لإبراز الأفكار»[٨]. ولهذا السبب نجد أن المقالة الأدبية لم تحظ بقسط وافر من اهتمامه بحيث لم يفرد لها باباً خاصاً مستقلاً مع أنه كان ينشر، بين الحين والآخر، قطعاً أدبية وأشعاراً لعدد من كتاب العصر[٩] وشعرائه[١٠]، بالإضافة إلى إفساحه

---

(١) سليم البستاني. «الهيام في جنان الشام». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٧٣٥.
(٢) سليم البستاني. «زنوبيا». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٨٦٠.
(٣) سليم البستاني. «بنت العصر». الجنان ج٦ (١٨٧٥) ص ٣٥٩.
(٤) سليم البستاني. «اسما». الجنان ج٤ (١٨٧٣) ص ٨٢٧.
(٥) سليم البستاني. «زنوبيا». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٨٦٠.
(٦) سليم البستاني. «بدور». الجنان ج٣ (١٨٧٢) ص ٨٦٤.
(٧) سليم البستاني. «قوتنا». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٤٦٦ ـ ٤٦٧.
(٨) سليم البستاني. «اسما». الجنان ج٤ (١٨٧٣) ص ١٠٣.
(٩) مثل فرنسيس فتح الله مراش وشقيقته مريانا وحسين بيهم والياس حبالين وغيرهم.
(١٠) مثل ناصيف اليازجي وإبراهيم الأحدب وخليل الخوري.

المجال أمام بعض الشعراء لنشر ألغاز شعرية لتشجيع الناشئين من الشعراء وحثهم على نظم الشعر لوضع حلول جوابية لمواضيع هذه الألغاز[1].

خامساً: المادة التاريخية

لقد حدد سليم البستاني، رئيس تحرير الجنان، الغاية التي من أجلها «كان لا بد لجريدة كالجنان من أن تفرز قسماً ـ المادة التاريخية ـ من صفحاتها لتدوين ما يكون مهما بالنظر إلى حالة البلاد من الأخبار الماضية»[2] بأنها كانت لاتاحة الفرصة أمام قرائه لمطالعة الفوائد التاريخية التي يكتسب الإنسان من حقائقها «وهو في شرخ الشباب اختبار ألوف من السنين، يعينه على اكتساب معاشه وتدبير منزله وحفظ مركزه بين الناس»[3]. وذلك لأن الاختبار لأبناء آدم هو مصباح وهاج ينير طريق بصيرتهم في الظلمة الحالكة، كما أن «مسيرهم في سبيل الحياة بدون ذلك المصباح تأخر النجاح. فالماضي قدم إنسان الحاضر والإستقبال. والمستقبل ولد الماضي والحال. والإنسان جبلة تسير على ذلك القدم في ظروف الأماكن والأحوال. . . أما جعبة الإختبار فهي الذاكرة التي تنطبع فيها حوادث عالم الدوران، وينبوع الذاكرة هو تاريخ حوادث الدهور وطوارق الحدثان»[4]. ولقد «أجمع أهل العلم» على حد تعبيره، على أن التاريخ هو «من أنفع العلوم المثقفة للعقل المروضة للذهن»[5]. لما فيه من الأخبار والحوادث والنوادر الماضية التي تصبو الفطرة البشرية إلى معرفتها. فهو إذن يثقف عقول الكبار والصغار والإناث والذكور لأن معرفة الماضي هي «عين النظر بنتائج حوادث الحال، ونظارة مشاهدة حوادث الغد من نوافذ الإستقبال. وهو إصابة السياسة العمومية وإدارة

---

(١) اشترك بإرسال الألغاز شعراء مثل ناصيف اليازجي وولده إبراهيم كما اشترك بالإجابة عليها شعراء ناشئون مثل شكيب أرسلان وإبراهيم الحوراني وسليمان البستاني وأديب إسحق بالإضافة إلى أعلام اشتهروا فيما بعد مثل سليم تقلا وشاهين عطية، وغيرهم.

(٢) سليم البستاني. «تاريخ عام قديم». الجنان ج١٢ (١٨٨١) ص ١٢.

(٣) المصدر ذاته، ص ١١ ـ ١٢.

(٤) سليم البستاني. «زنوبيا». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٢٦.

(٥) سليم البستاني. «تاريخ عام قديم». الجنان ج١٢ (١٨٨١) ص ١١. اقتبس هذه الآراء حول معاني التاريخ من مادة «تاريخ» دائرة المعارف، بيروت، مطبعة المعارف، ١٨٨٢ ج٦ ص ٩ ـ ١٠ المترجمة عن إحدى دوائر المعارف الأجنبية والمضاف إليها مفهوم التاريخ عند ابن خلدون.

مهام الأفراد. ونور كشف ستار السواد عن أعين إدراك العباد. وشمس أفق معرفة حقائق الأمور، وبدر ظلام إدراك نتائج تقلبات الدهور. وهو مفتاح معرفة أسباب خفض شأن الملوك. وكتاب تبيان وسائط ارتفاع الصعلوك. ويكشف عما رفع قدر الرومان وخفض لديها عظمة ملوك ذلك الزمان وعن الوسائل التي قوت الإتحاد والإرتباط بين اليونان»[1].

وميّز بين التاريخ وسائر العلوم فذكر أن أبحاث المؤرخ تختلف كلياً عن أبحاث كل من الفيلسوف وصاحب العلم. فحين تحاول الفلسفة «الوقوف على حقيقة جميع الأشياء المنظورة وغير المنظورة التي يقدر الإنسان أن يعرفها»[2]، ويقتصر العلم «على ما هو معلول في الوقائع حال كونه نتيجة نواميس الطبيعة المعنية التي يحاول اكتشافها[3]، فالتاريخ لا يتوقف على معرفة جميع الحوادث فلا يبحث «إلا عن المعلومات ولكنه ينظر إليها بحسب تغييراتها وانقلاباتها وتتابعها وانتظامها وليس ككل تام ناشيء عن نواميس لا تتغير»[4]. إن مواضيع التاريخ هي في تجدد دائم لأن العوامل المؤثرة الفاعلة فيه هي «الإرادة البشرية ومطامع الإنسان وأمياله واحتياجاته. فتنشأ عنها نتائج متباينة بحسب صفات الفاعلين وأحوالهم. وهذه التغييرات والإنقلابات المدهشة هي التي تقوم بها حياة التاريخ»[5].

انطلاقاً من نظرته هذه إلى التاريخ أخذ ينشر في كل عدد من أعداد الجنان مواد «محتوية على حوادث تاريخية مع أسبابها ونتائجها»[6] بحيث تكون مقبولة عند جميع القراء تتراوح بين سبع وعشر صفحات. وكان أشهرها «تاريخ فرنسا الحديث»[7] الذي

---

(١) سليم البستاني. «زنوبيا». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٢٦.

(٢) سليم البستاني. «تاريخ عام قديم». **الجنان** ج١٢ (١٨٨١) ص ١٢.

(٣) المصدر ذاته.

(٤) المصدر ذاته. كان يعتبر التاريخ فناً جميلاً «من أجل الفنون الأساسية التي تبنى عليها الإدارة السياسية والأعمال والمشروعات العامة. «تاريخ فرنسا الحديث». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٢٧٤. والكتاب المطبوع ص ٣.

(٥) المصدر ذاته. بالرغم من قوله «بدورة الحلقة التاريخية». جملة سياسية. **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٤٧١ وبأن التاريخ يعيد نفسه.

(٦) سليم البستاني. «اسما». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٨٢٧.

(٧) يشتمل على تاريخ الإمبراطور نابوليون بونابرت «الذي لم يتدون في بطون الأوراق من الأخبار=

استغرق نشره حوالي عشر سنوات في ۲۳۱ عدداً من إعداد الجنان[1]. وهذا التاريخ يشتمل على قسم مهم من تاريخ فرنسا، وبصورة خاصة تاريخ الإمبراطور نابليون بونابرت والثورة الفرنسية. وذكر أن نشر هذا التاريخ كان «مراعاة لمنافع الوقوف على ما جرى من التقلبات في زمانه والثورات التي غيرت أصول الهيئة الإجتماعية في أوربا وجعلت المعوّل عليه في العالم المتمدن غير ما كان يعوّل عليه في الأزمان السابقة، وعلى أعمال وأخبار كشفت عن نوايا الدول ومطامعها وسياستها كشفاً لا يزال مهماً في هذا الزمان»[2]. وكان يعتبره من أجل التواريخ المتأخرة لأن انتشار مبادىء الثورة الفرنسية حملت أمم العالم قاطبة على طلب حقوقها[3]. وجعلت روح عصر القرن التاسع عشر «المساواة وحرية الضمير وسيادة النظامات والقوانين»[4]. بالإضافة لما لهذا التاريخ «من الفائدة العمومية عقلياً وحسياً، أدبياً ومادياً، علماً وصناعة، ولا سيما من جهة السياسة الدولية. لأنه تضمن على الخصوص سيرة رجل من أكابر رجال الدنيا المشهورين بالدراية والتدبير والسياسة والذوق، وهو نابليون بونابرت. وقد عظم شأن هذا التاريخ باشتماله على كل حياة هذا الرجل الشهير وانتهائه بانتهاء حياته في جزيرة سانتا هيلانة»[5]. وبما أن سيرة نابليون بونابرت المتداولة بين الناس لم تكن وافية عمد إلى ترجمة هذا التاريخ عن أوثق المجلات لما كان يعلمه من اشتياق كثير من رجال المعرفة إلى الإطلاع على مثل هذا التاريخ بالضبط والتدقيق»[6] وذلك لأن الثورة الفرنسية «لم تؤثر تأثيرات سياسية وأدبية ومادية وغيرها في فرنسا فقط بل أتت العالم بعصر جديد يفتخر أهل هذا العصر أنهم أهل ليكونوا من أهله»[7]. وبعد الإنتهاء من

= ما يشابه أخباره». سليم البستاني. «تاريخ عام قديم». **الجنان** ج١٢ (١٨٨١) ص ١٢.

(١) ورد اسم خطار الدحداح على المواد التي نشرت في ٥٠ عدداً بلغ مجموع صفحاتها ٢٠٧. بينما ذكر على صفحة عنوان الكتاب المطبوع بأنه قام بنشر مائة صفحة فقط. كما ورد تحت «تاريخ فرنسا» في ١٥٢ عدداً.

(٢) سليم البستاني، «تاريخ عام قديم». **الجنان** ج١٢ (١٨٨١) ص ١٢.

(٣) سليم البستاني، «الحقوق». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٥٧٤.

(٤) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٦٨٥.

(٥) سليم البستاني. **تاريخ فرنسا الحديث**. بيروت، مطبعة المعارف، ١٨٨٤. المقدمة.

(٦) المصدر ذاته.

(٧) سليم البستاني. «تاريخ فرنسا الحديث». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٢٧٤. و**تاريخ فرنسا الحديث**. بيروت، مطبعة المعارف، ١٨٨٤ ص ٤.

نشره في **الجنان** نقّح الأصل وبيضه ونشره في مجلد ضخم[1] إجابة لطلب كثيرين من أولي الخبرة والإطلاع»[2] وحث كل من يرغب الإطلاع على أهم التواريخ المتأخرة بأن يوجه أفكاره إلى هذا الكتاب «لأنه لا يمكن أن يكون تاريخ في بابه أكمل ولا أدق منه، وباختبار الإطلاع عليه يتحقق الجمهور رأينا فيه»[3].

ولم تكن اهتماماته بنشر التواريخ الحديثة كتاريخ الثورة الفرنسية وتاريخ حرب فرنسا وألمانيا سنة ١٨٧٠[4] وتاريخ روسيا وتاريخ الإنكشارية وتاريخ قناة السويس وغيرها فقط، بل تعدتها إلى نشر التواريخ القديمة مثل «تاريخ عام قديم» وتاريخ بابل وفينيقية وبيزنطة وبيروت واكتشاف أميركا وتاريخ تيمورلنك وغيرها. وأشهرها «تاريخ عام قديم» الذي ذكر في مقدمته أن التاريخ القديم هو أساس كل التواريخ اللاحقة لما فيه من «مباحث ذات أهمية طالما شغلت أفكار الناس كخلق الإنسان وقدمية العالم واختراع الكتابة وأصل التمدن والأديان وبلية الطوفان وتبلبل الألسن وإنشاء الأهرام وغير ذلك مما يصبو الإنسان إلى الوقوف عليه»[5]. ولذلك عندما رأى أن اللغة العربية لا تزال خالية من تاريخ عام قديم واف «مع أن للبلدان التي يقطنها أصحاب اللغة العربية أهمية تاريخية قديمة ينفع الوقوف عليها أهل هذا الزمان»[6] صمم أن ينشر على صفحات الجنان تاريخاً عاماً قديماً يسد هذا الفراغ ويفي بالمطلوب على أن يكون

---

(١) بلغت صفحاته ١٠٤٠ صفحة. يوسف الياس سركيس، **معجم المطبوعات العربية والمعربة**، عمود ٥٦٠. بينما ذكر خطأ يوسف أسعد داغر في كتابه **مصادر الدراسة الأدبية** ج٢ ص ١٨٨ أنه يقع في ١٠٤ صفحات.

(٢) سليم البستاني. **تاريخ فرنسا الحديث**، المقدمة.

(٣) المصدر ذاته. عندما انتقدت جريدة **البشير** في عددها رقم ٣٩ تاريخ ٢٧/ ٥/ ١٨٧١ ص ٣٣٧ ـ ٣٣٨ إلغاء النذر الكهنوتي الوارد في هذا التاريخ رد على ذلك بقوله: «إنه لمن الأمور المقررة وجوب حفظ الحقائق التاريخية على ما أوردها المؤرخون الذين يوثق بهم ولو كانت لا تناسب بعض فئات خصوصية أو تناقض ميل من رواها عنهم». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٤١٦.

(٤) جرجي يني. تاريخ فرنسا وألمانيا. القاهرة، يوسف توما البستاني ١٩١١ في ٢١٦ ص **معجم المطبوعات العربية والمعربة**، عمود ١٩٥٤.

(٥) سليم البستاني. «تاريخ عام قديم». **الجنان** ج١٢ (١٨٨١) ص ١٢.

(٦) المصدر ذاته.

ميداناً فسيحاً «لذوي التأمل والبحث يكشف عن أمور قديمة يحب الناس أن يبحثوا عنها ويقفوا عليها»[1].

أما فيما يتعلق بنشر عدد وافر من القوانين العثمانية النافذة المفعول وبعض الوثائق المتعلقة بالمنطقة فقد ذكر بأنه نشرها «لتبقى محفوظة»[2] في **الجنان** للمراجعة أو لتكن «أثراً تاريخياً وتذكرة ومراعاة للنظير». بالإضافة إلى أنه كان يدعو إلى نشر جميع هذه القوانين باللغة العربية[3] في كتيب وبيعها في كل المدن «لأن وقوف الأهالي على ما لهم من الحقوق وما لحكومتهم منها يحملهم على مجانبة التعدي على ما لا يحق لهم أن يتعدوا عليه. كما إنه يمنع من ربما كان يحاول التعدي على حقوقهم من أن ينال مرغوبه»[4].

سادساً: الفكاهات

ان الجنان هي المجلة العربية الأولى في العالم العربي التي اهتمت بالفكاهات (أي الروايات ـ القصص الإجتماعية المصنفة منها والمترجمة، والقصص التاريخية، والأقاصيص، والملح)[5] «اهتماماً واضحاً وأفردت له باباً خاصاً به»[6] تتراوح صفحاته

---

(١) المصدر ذاته.

(٢) «نظام القرض الإجباري». **الجنان** ج٨ (١٨٧٧) ص ٥٩٠: «عهدة برلين». **الجنان** ج٩ (١٨٧٨) ص ٤٧٩ «قرار نامه تحويل واردات الخزينة». **الجنان** ج١٠ (١٨٧٩) ص ٢٤٠.

(٣) سليم البستاني. «الدوران». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٢٥٨: «جملة سياسية» **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٦١٥.

(٤) سليم البستاني. «وزارتنا الجديدة». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٦٨٣.

(٥) لقد قامت مجلة **الجنان** بتخصيص الصفحة الأخيرة من صفحات كل عدد من أعدادها بنشر ملح أي «نخبة من حكايات الشعب التي ولدتها مخيلة اللبناني». فتكون بذلك قد سبقت مجلة «المورد الصافي» لصاحبها جرجس الخوري المقدسي في هذا المضمار. يذكر محمد يوسف نجم أن المقدسي تنبه للنقص الحاصل في جمع هذا النوع من الحكايات لذلك أخذ يتسقطها من أفواه الشيوخ والعجائز وينشرها في مجلته في باب «المناهل» ثم جمعها في كتاب وقع في جزئين. محمد يوسف نجم. **القصة في الأدب العربي الحديث ١٨٧٠ ـ ١٩١٤**. الطبعة الثالثة. بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٦. ص ١٠ يشار إلى الكتاب من الآن فصاعداً بـ القصة في الأدب العربي الحديث».

(٦) **القصة في الأدب العربي الحديث**، ص ٤٢.

بين خمس وعشر صفحات حيث كانت تنشر بانتظام في كل عدد من أعدادها الثلاثمائة والثمانية والثمانين[١] جزءاً من رواية طويلة[٢] ملأ أكثرها أربعة وعشرين عدداً أي كل رواية منها كانت كافية لتنشر فصولاً متوالية في المجلة طوال السنة[٣]. وقد استمرت **الجنان** في اتباع هذه الطريقة «الحسنة جداً» في نشر الروايات طوال أيام صدورها[٤].

إن معظم الروايات المنشورة في الجنان[٥] هي من تصنيف[٦] وترجمة سليم البستاني، رئيس تحرير الجنان. كما أن المجلة نشرت روايات أخرى لكل من إسكندر نصور الجريديني ونعمان القساطلي وجميل مدور وشاكر شقير ويوسف عبد الله البستاني ونجيب البستاني وأيوب عون وغيرهم، بالإضافة إلى نشرها بعض الأقاصيص[٧] لكل من فيليب نعمة الله الخوري، وجرجس جبرائيل بليط وسليم حبيب مرعي وميخائيل السيوفي وقسطنطين قطة وسعد الله البستاني وإدليد البستاني وسلمى طنوس عون.

---

(١) باستثناء العدد العاشر تاريخ ١٥ أيار ١٨٨١ الذي ذكر رئيس التحرير أنه أصدره بدون الرواية لأن ما كان عنده من «رواية أنيس» لنعمان القساطلي قد نفذ فطلب من كاتبها القاطن في دمشق أن يرسل إليه بالباقي. **الجنان** ج١٢ (١٨٨١) ص ٣١٣.

(٢) صمم رئيس تحرير **الجنان**، في سنة ١٨٧٥، أن ينشر أكثر من رواية واحدة في الأربعة والعشرين عدد وأن يترجم بعضها عن اللغات الأجنبية لأن «الإنسان مطبوع على حب التغيير». سليم البستاني، «كاملة». **الجنان** ج٦ (١٨٧٥) ص ٣٩٠ وطبق ذلك في سنوات **الجنان** السادسة والسابعة والعاشرة.

(٣) سليم البستاني. «الهيام في فتوح الشام». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ٨٦٤. لقد استغرق نشر بعض الروايات أكثر من سنة مثل سامية (السنة الثالثة عشرة) (١٨٨٢) والرابعة عشرة (١٨٨٣) والخامسة عشرة (١٨٨٤).

(٤) اعتبر **المقتطف** نشر المؤلفات فصولاً متوالية «طريقة حسنة جداً». **المقتطف** ج٢٣ (١٨٩٩) ص ٤٦٥.

(٥) إني آثرت ألا ألخص روايات سليم البستاني المنشورة في **الجنان** وأن لا أعرضها عرضاً مفصلاً وألا أبين أثرها في الأدب العربي الحديث بعد أن استوفاها محمد يوسف نجم وتناولها بالدرس والتحليل وأوجزها في كتابه القيم «القصة في الأدب العربي الحديث ١٨٧٠ ـ ١٩١٤. ص ٤١ ـ ٧٧، ١٥٩ ـ ١٧٥، ٢٥٧ ـ ٢٦٤.

(٦) يذكر سليم البستاني أن رواياته المصنفة هي «جنانية» بقلمه لم يترجمها عن عجمي ولا نقلها عن عربي. «الهيام في جنان الشام». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٧٣٥. و«زنوبيا». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٢٦ و«الهيام في فتوح الشام». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ٨٦٤.

(٧) المصدر ذاته.

اشتهر سليم البستاني بأنه كان مصلحاً اجتماعياً يسخر جميع أبواب مجلة **الجنان** لبث آرائه الإصلاحية، الشيء الذي جعله ألا يفوت هذه الفرصة الذهبية لبلوغ مرامه هذا بواسطة استعمال فن الرواية كوسيلة للإصلاح، وليس للتعبير الفني[1]، ضارباً عرض الحائط بقسم كبير من قواعد فن كتابة الرواية. ويبدو أنه كتب رواياته «ليعظ ويصلح، لا ليحقق مُثلاً فنية نصبها أمام عينيه»[2] لأن المقصود من كتابة الروايات ونشرها، على حد تعبيره، هو «إفادة القوم في كل الأمور وعلى الخصوص المتعلقة بانتظام الهيئة الإجتماعية الإفرادية والعمومية»[3] وإصلاح مجتمعهم «ببسط المبادىء الصحيحة لتشخيص نتائجها»[4]. لذلك نراه يكثر في رواياته من الإستطراد والحشو[5] والخروج عن سياق أحداث الرواية بإضافة العبارات الأدبية[6]، والجمل التهذيبية[7] والملاحظات الحكمية[8] بما في ذلك النصائح والمواعظ والتمثل بالأشعار[9] وسرد الحقائق التاريخية[10] التي كان يأمل أن تأتي جميعها «بفائدة الذين هم في افتقار لها»[11] لا بل كان يسأل الله «أن يفيد بما فيها من الملاحظات الأدبية والحكمية وغيرها

---

(١) **القصة في الأدب العربي الحديث**، ص ٥٢. كان يكتب روايته «للتعليم لا للفن ويسوقها للوعظ والتسلية، لا حباً في هذا اللون الطريف من ألوان الأدب». المصدر ذاته ص ١٧٤.

(٢) المصدر ذاته، ص ٧٦.

(٣) سليم البستاني. «اسما». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٣٥٨. ولكي تكون «أعمالهم قدوة نتبعها وعبرة تنذرنا». سليم البستاني. «فاتنة». **الجنان** ج٨ (١٨٧٧) ص ٣٠.

(٤) سليم البستاني، «اسما». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٨٢٦.

(٥) كانت استطراداته تعيق سياق الرواية وتعطل التطور الطبيعي للأحداث في سيرها نحو النهاية. **القصة في الأدب العربي الحديث** ص ٥٨. لقد تجنب الإستطراد والحشو في روايته «بنت العصر». المصدر ذاته، ص ٦٢.

(٦) سليم البستاني، «اسما». **الجنان** ج٤ (٣٥٨) ص ٣٥٨.

(٧) سليم البستاني، «بدور». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٤٣٥.

(٨) المصدر ذاته. ص ٨٦٤.

(٩) بلغ عدد الأشعار التي تمثل بها في جميع رواياته ٣٥٥ بيتاً من الشعر. ولعله أخذ طريقة التمثل بالأشعار عن والده الذي تمثل ب ٤٢ بيتاً من الشعر في ترجمته لرواية **التحفة البستانية في الأسفار الكيروزية**».

(١٠) سليم البستاني، «اسما». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٨٢٧. و«الهيام في فتوح الشام». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ١٠١، ٢٥١، ٨٢٦.

(١١) سليم البستاني، «بدور». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٤٩٨.

من يحتاج إلى الإستفادة من مطالعيها»[١] ـ وكانت جمله الإعتراضية هذه تتناول بالبحث مواضيع مختلفة مثل التربية[٢]، والزواج[٣] وتهذيب الأخلاق[٤] وتعليم النساء[٥] والدين[٦] والحب[٧] والإشتراكية[٨] ونقد الحكام[٩] والعادات البالية والمستهجنة[١٠]، كل ذلك بطريقة بارعة مشوقة تمتلك لب القارىء وتستأثر بإعجابه فلا تترك «للملل سبيلاً إلى نفسه»[١١] فيعكف على مطالعتها بشوق ونهم إلى أن يتمها. وهذه المزية هي «غاية ما يتوخاها مؤلفو الروايات من كتابتها»[١٢].

إن مفهومه لرسالته الإصلاحية كصحفي كانت تطغى على كل شيء آخر، حتى لو أدى ذلك لإعاقة تطور الرواية واعتراض سبيل سرد حوادثها. ويظهر أنه كان يدرك بأن هناك من يحتقر وجود هذه الجمل الإعتراضية في رواياته الإجتماعية والتاريخية ويتضجر ويتذمر منها ويطعن بها فلم يبال بذلك. لا بل انبرى للرد على أحد مطالعي رواية «اسما» الذي لامه لتركه بطل الرواية بالقرب من الموت للتكلم عن التربية ومتعلقاتها، بقوله: إن المقصود من كتابة الروايات ونشرها هو غرس الآداب في

---

(١) المصدر ذاته، ص ٨٦٤.
(٢) الجنان ج٣ (١٨٧٢) ص ١٣٨، ٧١٩، ج٤ (١٨٧٣) ص ٣٢، ١٧٥، ٣٥٧.
(٣) الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ١٨٩، ج٢ (١٨٧١) ص ٥٣٠، ٨١٩. ج ٣(١٨٧٢) ص ٧١، ١٤١، ٥٣٩. ج٤ (١٨٧٣) ص ٣٣، ٢١٢، ٨٢٦.
(٤) الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٩١، وج٣ (١٨٧٢) ص ٣٢١ ـ ٣٢٢.
(٥) الجنان ج٣ (١٨٧٢) ص ٧٠، ١٤٢. ج٤ (١٨٧٣) ص ١٠٥. ج٩ (١٨٧٨) ص ٣٥.
(٦) الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ١٥٧. ج٢ (١٨٧١) ص ٩٩، ٣١٨. ج٣ (١٨٧٢) ص ٤٦٦.
(٧) الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ١٨٨، ٥٤٢. ج٢ (١٨٧١) ص ٦٣، ٥٧٠. ج٣ (١٨٧٢) ص ٧٥٢، ج٤ ص ١٤٠. ج٥ ص ٢٩، ٦١. ج٩ ص ٣٠.
(٨) الجنان ج٤ (١٨٧٣) ص ٧٨٧. ج١٤ (١٨٨٣) ص ٢١٩، ٣٥١، ٤١٠، ٤١١، ٤٤٤، ٥٢٣ ـ ٥٢٧. ج١٣ (١٨٨٢) ص ٤١٥، ٥٠٨، ٥١٠.
(٩) الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٢٠٥. ج٣ (١٨٧٢) ص ٢١١.
(١٠) الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ١٢٤. ج٢ (١٨٧١) ص ٨١٩. ج٤ (١٨٧٣) ص ٢١١، ٦١٠. ج٦ (١٨٧٥) ص ٦٧.
(١١) القصة في الأدب العربي الحديث، ص ٥٠، ٥٨، ١٦٤، ١٧٠، ١٧٤. يذكر أن البستاني بارع كل البراعة في التشويق والمماطلة وأنه وفق بهذه الحيلة الفنية.
(١٢) «المملوك الشارد». المقتطف ج١٦ (١٨٩٢) ص ٣٤٨.

القراء[١] «ولذلك كل من يطالعها ويتذمر من العبارات الأدبية، أي التي ينقاد إليها الكاتب عند وقوع ما يناسبه الإنقياد إليها، يخطىء والأجدر أن يقرأ كتاب عنتر وألف ليلة لأنهما أخبار خالية من المبادىء الأدبية وأساسها لذة الجسد دون نفع العقل»[٢]. مع أنه أنحى باللائمة على القارىء الذي يطالع رواية «ذات أفكار وملاحظات» لتركه الأفكار وقراءته «الكلام البسيط المتعلق بالعاشق والمعشوق، مع أنه لو جمع بين الأمرين لجنى لذة قراءة الرواية وحسن ملاحظتها»[٣]. كما أفسح المجال لريمة، بطلة رواية «بنت العصر»، أن تتلو على أختها جميلة رواية «فيها وصف فتاة صفاتها كصفاتها»[٤] لتبين لها عيوبها باللطف والحب. ولكن جهل جميلة حملها على القول بأن مؤلف الرواية يكثر الكلام عما لا تعلق له بالعاشق والمعشوق لأن المقصود من كتابة الرواية «إنما هو معرفة أحوال العاشقين وحوادثهم وليس غير ذلك»[٥] فما لنا وللصفات الحسنة والغير حسنة. فأوضحت لها بطلة الرواية واقع الحال وأخبرتها «بأن الذي حملها على أن تدعوها لتطالع معها تلك الرواية إنما هو ما رأته من تقصيراتها بالتصرفات المشابهة لتقصيرات الفتاة الموضوعة موضوعاً للتنكيت في الرواية إذ إنها علقت أملها بأن قراءة ذلك تفيدها وتحملها على مجانبة ما لا يوافق، إذ ترى قبحه بواسطة وصفه في الرواية»[٦].

لقد صرح سليم البستاني ولمح في أماكن كثيرة من رواياته بأن جل اهتمامه من كتابتها كان منصباً على «تمكين الأهالي من الحصول على فكاهات جامعة بين أسباب الملاهي والنفع»[٧] أي أن تسلي المطالعين وتنفعهم[٨] وتبين لهم «الأمور الحسنة

---

(١) سليم البستاني، «اسما». الجنان ج٤ (١٨٧٣) ص ٣٢.

(٢) المصدر ذاته، ص ٣٥٨. لمحمد يوسف نجم وجهة نظر مخالفة حول آثار العرب القصصية، «فقصة عنترة مثلاً، بما تحمله من المعاني الإنسانية، تصلح لأن تكون نواة طيبة بل مدرسة في القصص الرومنطيقي، وكذلك حكايات ألف ليلة وليلة، التي كانت مصدر الهام لعدد من أدباء الغرب». القصة في الأدب العربي الحديث ص ١٣.

(٣) سليم البستاني، «اسما». الجنان ج٤ (١٨٧٣) ص ١٣٨.

(٤) سليم البستاني، «بنت العصر». الجنان ج٦ (١٨٧٥) ص ٣١.

(٥) المصدر ذاته.

(٦) المصدر ذاته.

(٧) (سليم البستاني). «الروايات العربية المصرية». الجنان ج٦ (١٨٧٥) ٤٤٢.

(٨) سليم البستاني، «زنوبيا». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٢٦.

وتحرضهم على السلوك بموجبها وتحثهم على الإقلاح عن الأمور القبيحة»[1] فتكون بذلك «لذيذة جداً ومؤثرة»[2]. لا بدّ إنه كان يتمنى لو أن «الفطرة البشرية تحتمل بالاختيار صعوبة حصر الجسد في مطالعة كتابات أدبية تهذيبية مجردة عن كل ما يلتذ به الجسد من مطالعة أخبار حبية وحوادث جعلتها ظروفها الغير الإعتيادية أو صداها في حركات أكثر الناس مقبولة أو مرغوبة»[3]. وتتجلى نظرته هذه في تعليله للأسباب التي دعته «لإطالة الكلام المتعلق بوصف حالة الأمة العربية الساكنة في بلاد العرب الأصلية في هذا الزمان وفي كل الأزمنة المعروفة التي سبقته»[4]، حيث يقول:

«فإن كثيرين من قراء الروايات لا يحبون هذه الحقائق المفيدة، بل يكتفون بالوقوف على خبر العاشق والمعشوقة، وهذا خطأ مبين. لأننا لا نقدر أن نفهم حقيقة مركز العاشق ولا مركز المعشوقة ولا الحوادث الجارية ما لم نقف على تواريخ أزمانهم وعلى عادتهم وحروبهم. هذا وكم من فائدة تاريخية يحصل الإنسان عليها بواسطة روايات فيكون قاصداً الوقوف على خبر المتحابين فيعثر بحقيقة تاريخية أو نتيجة حكمية أو إصلاح أو تنكيت يلزمه أكثر من غيره فالضجر من الكلام عن هذه الأمور في بلاد ظروفها كظروف بلادنا خطأ عظيم»[5].

وكأن سليم البستاني كان يطمح إلى أن يؤلف روايات تحتوي كل شيء «فكان يضع فيها لكل قارىء من قراء مجلته الشيء الذي يروقه، فمن حب إلى قتال إلى مغامرات إلى دسائس إلى طلاسم وألغاز»[6] إلى غير ذلك من مناحي الحياة البشرية بما فيها من أميال وعواطف وانفعالات ومذاهب ومشارب وعادات. وتكاد شخصيات رواياته «تكون متقابلة فيما تمثله من نماذج الأخلاق»[7]. اعتنى بجمعها «من صفات الفضلاء والرذلاء والعقلاء والجهلاء»[8]، واستوحى حوادثها وشخصياتها «من البيئة

---

(١) سليم البستاني، «اسما». الجنان ج٤ (١٨٧٣) ص ٣٢.
(٢) سليم البستاني، «كاملة». الجنان ج٦ (١٨٧٥) ص ٣٩٠.
(٣) سليم البستاني، «اسما». الجنان ج٤ (١٨٧٣) ص ٨٢٧.
(٤) سليم البستاني، «الهيام في فتوح الشام». الجنان ج٥ (١٨٧٤) ص ١٠١.
(٥) المصدر ذاته.
(٦) القصة في الأدب العربي الحديث، ص ٥٤.
(٧) المصدر ذاته، ص ٥٩.
(٨) سليم البستاني، «الهيام في جنان الشام». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٧٣٥.

اللبنانية التي ولد وعاش فيها ولازمها وتمرس بمشكلاتها طوال حياته»[١] أو من بلدان أحوالها كأحوال بلادنا وظروفها كظروفنا[٢] وحدد الدوافع التي حفزته للقيام بكتابة رواية «الهيام في جنان الشام» ونشرها، بقوله:

«لأني رأيت فيها من الأخبار الغرامية ونتائجها الأدبية والأميال الإنسانية الحيوانية، والأوصاف النسائية الحسنة والغير الحسنة، وخصالهن المحبوبة والمكروهة، وخلوصهن ومكرهن، وأفكارهن وشجاعتهن، وسطوتهن الأدبية والغير أدبية، والفخاخ التي ينصبنها للرجال للوقوف على حقيقة طويتهم وقوة عزائمهم وضعفها، وشدة محبتهن لمن يستخلصن وده، وكرههن لمن يقصر عن القيام بحق مقتضيات فطرتهن، ومن ضعف الرجال وقوتهم، وضعف عقولهم، وقوتها، وشدة ميلهم إلى ذوات المحاسن، وحسدهم ومحبتهم وبغضهم، وشجاعتهم وجبنهم، وفرحهم وحزنهم، وقيامهم وقعودهم، وشدة انقيادهم ووقوعهم في فخاخ المكر، وتأثيرات الغرام فيهم، والكفر والدين، والتعب والذل والعز، والخوف والشجاعة، والصبر والأمل، ومكرهم وحيلهم. ومن الآداب ما يكفي ليجعل من يقتدي بما فعل من أحسن الناس رقة جانب وسلامة طوية، وعلو همة ومروة، ومحبة للعلم وكرهاً للكذب وللشر وللسفاهة وللخيانة إلى غير ذلك جميعه. وبالإجمال هي مرآة ينظر بها الرجل والمرأة والصالح والشرير والجاهل والعاقل نفسه وغيره. ومما يزيد هذه الأشياء ظهوراً هي مقابلتها بما يضادها من مليح وقبيح مما هو مقرر بهذه الأخبار. وهذا هو الذي حملني على أن أعزم حينئذ على كتاباتها ونشرها مع قطع النظر عما ربما يعترض عليّ به القادح الذي ينظر إلى جهة واحدة ويترك الأخرى. فسبحان الموفق إلى المقصود وهو حسبي ونعم الوكيل»[٣].

وذكر في مكان آخر أنه لولا تأكيده بأن لرواياته قارئات كثيرات لما جعل أكثر رواياته من الأمور المتعلقة بهن[٤]. كما حدد السبب الذي من أجله أدخل في رواياته العديدة من الصدف الغريبة والحوادث الغير اعتيادية التي تحمل القراء أن لا يصدقوها، بقوله:

---

(١) **القصة في الأدب العربي الحديث**، ص ٤٣.

(٢) سليم البستاني، «الهيام في جنان الشام». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ١٠١.

(٣) سليم البستاني، «الهيام في جنان الشام». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٥١١.

(٤) سليم البستاني، «اسما». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٨٢٦.

«إنه لا يخفى أن الذي يحمل المؤلف على تقرير خبر هو غرابته، والغرابة إنما تكون بالصدف والحوادث الغير الإعتيادية. والمقصود الروايات الخالية من المبالغات الصبيانية والخرافات العجائزية. والمظنون أنه لا ينشر في العالم كل سنة أقل من ألفي رواية، فإذا قلنا إن عدد أهل العالم ألف مليون لا نعجب إذا سمعنا أنه صادف اثنان من كل مليون منهم أموراً غير اعتيادية»[1].

ولذلك يمكن القول بأن هذا الوصف للأفراد الذين يقص أخبارهم يكاد ينطبق على جميع رواياته لأن أسلوبه في عرض المادة القصصية «يكاد يكون واحداً في قصصه جميعاً»[2].

أما فيما يتعلق بالملح فقد نشرت **الجنان** ما يقارب من ٢,٢٣١ ملحة أو املوحة لأن الصفحة الأخيرة من كل عدد من أعدادها تركت خصيصاً لنشر هذا النوع من الحكايات الشعبية. وهذه الملح هي عبارة عن نوادر مسلية ونكات مضحكة وفكاهات مبهجة ولطائف عامة خفيفة الظل وأمثال عامية وأقوال مأثورة وحكم واقعية «يكون لها في الكلام والتمثيل أشد الوقع في النفس فتثير عوامل السرور والضحك لأنها «تقع على المحك» أو توافق مقتضى الحال، ويغلب أن تكون وليدة سرعة الخاطر»[3].

نُشرت معظم هذه الملح تحت أسماء جامعيها الذين كانوا يرسلونها من دمشق وحلب وبغداد والقاهرة وبيروت ومختلف المدن والقرى اللبنانية وأماكن غيرها. بلغ عدد الذين زودوا **الجنان** بهذه الملح حوالي خمسين شخصاً. وبذلك تكون مجلة **الجنان** سبّاقة في مضمار جمع الحكايات الشعبية التي كان اللبنانيون والسوريون والعراقيون والمصريون يسمرون بها في مجتمعاتهم. ترجم بعض هذه الملح عن لغات أجنبية كما يستدل من تناولها نوادر ملوك ووزراء وقواد عسكريين أجانب[4]، كما نقل بعضها عن بعض الكتب العربية[5].

---

(١) المصدر ذاته، ص ٣١.

(٢) **القصة في الأدب العربي الحديث**، ٥٩.

(٣) جرجس الخوري المقدسي. «الفكاهة والنكتة في الحياة الاجتماعية» **المورد الصافي** ج١٨ (١٩٣٤) ص ٥.

(٤) مثل لويس الرابع عشر ونابوليون بونابرت.

(٥) «مجموعة ملح من بعض الكتب العربية». **الجنان** ج٦ (١٨٧٥) ص ٥٤٠، ٥٧٦، ٦١٢، =

لقد أخذ الأستاذ جرجس الخوري المقدسي، أول جامع لنخبة من حكايات الشعب في كتاب، بعض هذه الملح[1] ونقحها وبيضها بأسلوب فكاهي وأوردها في باب «المناهل» في مجلته المورد الصافي والتي جمعها في كتاب وقع في خمسة أجزاء[2].

أهم المواضيع السياسية والإجتماعية

لقد غرس سليم البستاني، من خلال كتاباته المتنوعة في مجلة الجنان ما كان يعتقده أنه أحسن الأفكار وأفضلها راجياً أن تأتي بأطيب الأثمار وأجودها من خير وفضيلة وحق ومعرفة. فلم يدع موضوعاً من المواضيع المفيدة، التي تغطي تقريباً جميع النواحي المتعلقة بالتفكير البشري الحضاري والثقافي، إلا وتناولها بالبحث ترجمة وتصنيفاً وتأليفاً ونشراً. وكرس جل اهتمامه لبث مبادئه الإصلاحية للنهوض بالفرد والمجتمع إلى أعلى الدرجات التي كان يبتغيها.

ولا شك أنه بذلك كان يطبق المبادىء القويمة التي ربي عليها في بيت والده وفي المدرسة الوطنية، واكتسبها من إطلاعه الواسع على التفكير الغربي السائد في القرن التاسع عشر[3]. لأن مجال نشر هذه الآراء وتعميمها على صفحات مجلة **الجنان** ليقرأها القاصي والداني كان أرحب وأوسع من نطاق المدرسة الوطنية الضيق المحدود ضمن جدرانها بتلاميذها فقط. وانطلاقاً من هذه القاعدة أخذ يكتب مقالات **الجنان**

= ٦٤٨.

(١) مثل نادرة الدكتور كرنيليوس فان ديك حول دوران الأرض. **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٢٢٠. **المورد الصافي** ج١٨ (١٩٣٤) ص ١٣٢ واللسان، **الجنان** ج٢ ص ٥٣٦ **والمورد الصافي** ج١٩ ص ٣٠، والدجاجة، **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٧٦٨ **والمورد الصافي** ج١٩ ص ٣٥٣.

(٢) جرجس الخوري المقدسي. **المناهل**. بيروت، المطبعة الأدبية، ١٩٣٠ ـ ١٩٤٠. ٥ أجزاء.

(٣) وفي القرن التاسع عشر «أسس معتقداتنا الحالية في كل حقل من الحقول». ج. هـ. راندال. **تكوين العقل الحديث**. ترجمة جورج طعمة. بيروت، دار الثقافة، ١٩٥٥، ج١ ص ٣٧٤. لقد استشهد سليم البستاني في تعريفه للتوفير السياسي (Political Economy) بمعظم المفكرين الغربيين الذين عالجوا هذا الموضوع بما في ذلك السير جيمس ستيورات (James Stewart) وآدم سميث (Adam Smith) وديفيد هيوم (Davide Hume) وغيرهم. سليم البستاني. «التوفير السياسي وتحسين أحوال الأمة». **الجنان** ج٦ (١٨٧٥) ص ٢٣٩ ـ ٢٤١، ٢٧٢ ـ ٢٧٦. كما ذكر فولتير وغيره. «الهيام في جنان الشام». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ١٥٧.

وجملها السياسية وأخبارها ورواياتها لتكون خير زاد معين لجميع قرائها المنتشرين في العالم العربي[١].

وبالرغم من تنوع المواضيع التي عالجها سليم البستاني نرى أن اهتماماته كادت تنصب كلياً حول طبيعة الإنسان وفطرته وطرق اكتسابه المعرفة المؤدية إلى تحقيق إنسانية الإنسان، وعلاقته بالهيئة الإجتماعية التي هو جزء لا يتجزأ منها لا غنى له عنها، وترقي الأمة وكل ما يستتبع ذلك من سبل تقودها إلى معارج التقدم والإزدهار والنجاح والتمدن، ووسائل تصلح ما أفسده الدهر العاتي وعصور «الذل والظلم والاستعباد»[٢]. فإذا ما سلكنا هذا الطريق السوي نعيد مجدنا الزاهر وتمدننا العظيم الذي «بني عليه تمدن هذا العصر»[٣]، وذلك بتبني الآراء الموافقة لروح العصر «بالابتعاد عن كل ما هو غير معتدل»[٤] مع مراعاة نواميس الطبيعة التي تحتم «أن يكون سريع النمو سريع الزوال»[٥]، ونهج الطريقة التدريجية للوصول إلى غاياتنا «لأن الصحة إنما تأتي المريض شيئاً فشيئاً»[٦]. إن أبناء الوطن يخطئون، على حد تعبير سليم البستاني، خطأ فادحاً إذا ما انتظروا إصلاح حالهم في القرن التاسع عشر «دفعة واحدة، حال كوننا نعلم أننا لا نبلغ المقصود بعد مائة سنة، فكيف نبلغه في أشهر»[٧]. بالإضافة إلى اعتقاده أن انتقال الإنسان من حال إلى حال، من الظلمة إلى النور مثلاً، يضر به «كذلك إذا انتقلنا من العبودية الماضية إلى حرية الأمم المتمدنة من أبناء هذا العصر نصادف ضرراً لا مزيد عليه»[٨]، لذلك اقترح أن يكون السبيل لإدراك

---

(١) كان للجنان وكلاء في كل من مصر والعراق، في بغداد والموصل، وسوريا، في دمشق وحلب، وتونس. ذكر في سجل المطبعة الأميركانية الموجود في أرشيف الإرسالية الأميركانية في بيروت أنه قد طبع ٢٧٥٠ عدداً من **المقتطف** لعدد تشرين الأول ـ كانون الأول لسنة ١٨٨٤. سجل المطبعة الأميركانية، ص ١٠٧ ولعله كان يطبع مثل هذا العدد من **الجنان**.

(٢) سليم البستاني، «الإصلاح». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ١٧٧، ٢١٤.

(٣) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج١١ (١٨٨٠) ص ٤١٨.

(٤) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٦٨٦.

(٥) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج١٤ (١٨٨٣) ص ٤٥١. وذكر أيضاً: «ولقد طالما كان السقوط السريع نتيجة النهوض السريع». «الدول». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٢٢٨.

(٦) سليم البستاني، «١٨٦٩». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٣٣.

(٧) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ٣٨.

(٨) سليم البستاني، «أعجب العجب». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٦١١.

ذلك الإنتقال بواسطة «إطلاق العنان شيئاً فشيئاً»[١]، وهو السبيل «الصواب بعينه»[٢].

إن آراء سليم البستاني وتفكيره السياسي الإجتماعي المتعلق بالفرد والأمة والدولة والحكومة والقوانين، ونظرته الإصلاحية حول التمدن الحقيقي وروح العصر واكتساب المعارف، مبعثرة وموزعة بين طيّات صفحات مجلدات مجلة **الجنان** الست عشرة. كان رئيس تحرير الجنان يقرر آراءه هذه ويدونها في مقالاته حيثما كانت تسنح له الفرصة كصحفي ماهر، يعرف من أين تؤكل الكتف، كي لا يثير عليه حفيظة جام غضب السلطات العثمانية الحاكمة التي كانت متخوفة دائماً من كل ما من شأنه فتح الباب أمام رعاياها لانتزاع السلطة من بين أيديها، أو لتقيد تلك السلطة المطلقة بأغلال لم تكن الدولة العلية وقتئذ مؤهلة أو مستعدة للتسليم بها. ولعل طريقة البستاني هذه في بث آرائه الإصلاحية جعلت الدكتور فارس نمر، أحد منشئي **المقتطف**، يعتبره من أوائل الدعاة إلى النهضة الدستورية في العالم العربي[٣]. ولا بد هنا من محاولة جمع شعث هذه الآراء لتعطينا صورة واضحة المعالم للأثر الذي ولدته إحدى أوائل المحاولات للإحتكاك بالتفكير الغربي في القرن التاسع عشر.

أولاً: الإنسان

انساق سليم البستاني في مواضيع متعددة في كتاباته في مجلة **الجنان** إلى التطرق لبحث طبيعة الإنسان وصفاته ومميزاته لتوضيح وجهة نظره والدفاع عنها. ينطلق من الفكرة القائلة بأن الإنسان حيوان كسائر فصائل الحيوانات العجماوات المتواجدة على هذه الكرة الأرضية التي نعيش عليها[٤]. إن للإنسان صفات ملازمة له أينما وجد، وبصورة خاصة إذا ما نظر إليه من جهة طبيعته الجسدية وتركيبه «وأحواله المعاشية وأمياله الغريزية وولادته وحياته وموته وفناء الجسد وكيفية المعيشة واشتراكه مع

---

(١) المصدر ذاته.

(٢) المصدر ذاته.

(٣) فارس نمر. «النهضة الدستورية وسياسة العثمانيين في الديار المصرية». **المقتطف** ج٣٦ (١٩١٠) ص ٢٥٩.

(٤) من أجل الآراء حول الإنسان راجع:

Ernest Cassirer. *An Essay on Man.* «From animal reactions to human responses». New York, Doubleday, 1956 pp. 44 - 62.

الحيوانات بالحاسيات»[١]، وله احتياجات طبيعية لا يستغني عنها «فإن المعدة في احتياج إلى الطعام والشراب لا غنى لها عن ذلك، ولكل عضو من أعضاء الجسد وظيفة فاليد لا تستغني عن الحركة ولا العين عن النور وكذلك القلب لا يستغني عن الحب»[٢]. بالإضافة إلى ذلك إن الإنسان بطبيعته حيوان اجتماعي[٣]، مثل بعض المخلوقات الإجتماعية كالنمل والنحل وبعض الطيور، لا يعيش منفرداً «وبدون الإجتماع لا تحفر بيوت النمل، ولا تشيد مدن البشر، ولا تصنع آلاتهم، ولا تنسج أثوبهم، ولا تمد أسلاكهم البرقية، ولا تسير مركباتهم النارية ولا مراكبهم البحرية»[٤]. وطبيعة الإنسان الإجتماعية هذه تدعوه إلى قبول العيش ضمن مجموعات من الأفراد تتقاسم الأعمال وتوزعها ما بينها لتضمن استمرار عيشها وبقائها[٥]، لأن الإنسان بمفرده لا يستطيع أن يزرع القطن ويحصده ويغزله وينسجه ويبيّضه ويصبغه ويقطعه أثواباً ويصدره ويبيعه»[٦]، ولأن مجرد القيام بجميع هذه الأعمال يستغرق كل وقته فلا يتيسر له أن يهتم بسائر شؤونه الحياتية المتبقية فيموت جوعاً وعطشاً. فالإنسان إذن «خلق للإجتماع هيئات اجتماعية للتكاتف في الأعمال والإتحاد للتغلب على صعابها، ودفع المخاطر والتعديات. ولا ينتظم قوم ما لم يجتمعوا اجتماعاً مرتباً مستوفياً للشروط[٧]. ولكن هذا الحيوان الإجتماعي الذي يدعى الإنسان يفوق سائر الحيوانات العجماوات بمزايا وصفات وسجايا عديدة أهمها انفراده بقوة الإدراك العاقلة وقوة النطق. فالعقل هو الذي يجعل الإنسان إنساناً ويرفعه عن عالم الحيوانات الأخرى غير المدركة. «ويعلقه في ما فوق ذلك من معالي الإدراك والتمييز والمعرفة المكتسبة. ولذلك لا

---

(١) سليم البستاني، «الإنسان». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ١٥.

(٢) سليم البستاني، «الهيام في فتوح الشام». الجنان ج٥ (١٨٧٤) ص ٦٨ وكان يؤمن أن «الغرام الصحيح الغير فاسد هو للإنسان كالملح للطعام». «الهيام في جنان الشام». ج١ (١٨٧٠) ص ٥٧٥.

(٣) «Man is a social animal». Seneca *De Benificus.* BK. VII sec 1.
طوّر أرسطو هذه الفكرة وقال بأن الإنسان هو حيوان سياسي. راجع:
R. H. Soltau. *An introduction to politics.* London, Longman, 1963 pp. 32 - 33.

(٤) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٧ (١٨٧٦) ص ١٤٥.

(٥) تحدر مبدأ الحياة الاجتماعية للأفراد من أفلاطون. راندال. **تكوين العقل الحديث** ج١ ص ١٠٧.

(٦) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٧ (١٨٧٦) ص ١٤٥.

(٧) المصدر ذاته. راجع رأي المعلم بطرس البستاني حول هذا الموضوع. انظر أعلاه ص ٧٢.

عذر لمن لم يصب بداء الجنون إذا سلك سبيلاً معوجاً ومخالفاً لمقتضيات العقل»[1]. والنطق والصفات الحسنة وحسن السجايا والدعة ورقة الجانب ومراعاة حقوق الآخرين، في عرفه[2]، هي ميزات صادرة عن العقل كقوة الإدراك والتمييز وهي مصدر اعتبار الإنسان، لأن «من كان متجرداً من تلك الصفات لا يستحق أن يكون موضوعاً لاعتبار القوم»[3]. ولذلك من واجبات كل إنسان، وبصورة خاصة من كان متحلياً بقسط وافر من المعرفة «أن يفرغ جهده في سبيل الحصول على حب البشر وأن يضع نصب عينيه، في كل حال، مجانبة تكدير غيره بالقول أو بالحركات أو الأعمال. فإن فضل الإنسان أن يعرف أن يكتسب صداقة القوم اكتساباً يحملهم على مجانبة الطعن فيه، إذا لم نقل يحملهم على مدحه. والحاصل أن هذه المبادىء الأساسية هي ذات أهمية، ومن واجبات كل إنسان، ذكراً أو أنثى، أن يبني أعماله عليها ليعيش مرتاحاً محبوباً»[4].

وفطرة الإنسان، على حد تعبير سليم البستاني، هي واحدة عند جميع أفراد الجنس البشري لا تختلف حسب الزمان والمكان، كما أن التفاوت الحاصل بين أفرادهم هو عرضي وليس جوهرياً «فإن الإنسان إنسان واختلافه بحسب تقدمه وتأخره في الأدبيات والماديات وليس بحسب الفطرة[5]. فإنها واحدة في كل البشر» والتفاوت الواقع في بعض الأشياء بتأثيرات منافية لا يغير الجوهر فإنه عرض بالنسبة إلى الأمور الواقع التساوي فيها بين البشر»[6]. وإيمانه هذا دعاه إلى تأكيد اعتقاده بأن «عقولنا

---

(١) سليم البستاني، «الغرض». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٥٤٦. و«الإنسان». ج١١ (١٨٨٠) ص ٣٧٠.

(٢) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٨٣٠.

(٣) المصدر ذاته

(٤) سليم البستاني، «بدور». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٥٧٠ لهذه الأسباب ذكر: «أن هيئة الإنسان الإجتماعية لها احتياجات شتان بينهما وبين هيئة الحيوان الإجتماعية. هذا وربما كان لا يصح أن نسمي اجتماع الحيوان هيئة اجتماعية لأن انتظامها محصور في الغريزيات وربما كان يقيدها بالغريزية أو بغير ذلك مما يدل على الفرق العظيم بينها وبين هيئة البشر الإجتماعية أصوب من وضع اسم آخر مراعاة لاجتماعها للتعاون في تحصيل المعاش ودفع المخاطر». سليم البستاني. «التوفير السياسي وتحسين أحوال الأمة». **الجنان** ج٦ (١٨٧٥) ص ٢٠٢.

(٥) «الفطرة البشرية المقيدة بسلاسل العقل والمبادي الحقيقية». سليم البستاني، «الحكام». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٤٨٢.

(٦) سليم البستاني، «الهيام في فتوح الشام». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ٦١١.

وقوانا الطبيعية ليست دون ما للإفرنج»[١].

وهذا التساوي بين البشر، كان عنده، لا يتنافى مطلقاً مع «مبادرة الفرد الخلاقة» وبلوغ «النخبة المتفوقة» أوج المعالي نتيجة لذكائها واجتهادها وكدها وليس نتيجة وراثتها: «فمن هو لنكولن رئيس جمهورية أميركا سابقاً، ومن هو كرانت وواشنطون ونابليون الأول، ومن هم أكثر الذين اشتهروا في فرنسا وغيرها أليسوا أولاد الأدب والعلم المجموع بالكد والجد والذي لم يكن مستنداً إلى شهرة الوالدين أو غناهم أو مجدهم»[٢]. وطالما أشاد بالأعمال «الباهرة» التي قام بها كل من إمبراطور روسيا بطرس الأكبر «الذي شد حبال سياسة روسيا»[٣]، ونابوليون بونابرت الأول «الذي دفع عن فرنسا هجمات الأجانب المعتدين»[٤]. وذكر أن البسطاء والأغبياء سياسياً «قد توهموا» أن هذا الزمان زمان زوال فضل الملوك وأهميتهم وأنهم باتوا هم ورؤساء الجمهوريات أصفاراً ذات مقام محفوف بالعظمة والجلال والمؤثرات الخارجية. فإنهم قد تقيدوا بقيود القوانين والنظامات وأمسوا آلة لا أهمية لها، على أنهم قد أخطأوا، فإن الملك ورئيس الجمهورية والأمير وصاحب كل سيادة أولية موروثة كانت أو انتخابية هو النقطة التي تدور عليها رحى الأمة[٥]. وتتجلى نظرته المتعلقة بالنخبة من الأفراد ومقدرتها الفائقة على اجتراح أعظم الأعمال بقوله: «وكم من أمة تمرغت في التأخر حتى بلغت سن اليأس بدون أن تقدر أن تتقدم تقدماً صحيحاً فأتاها الدهر برجل في اقتدار سياسي فأنعشها وأرجع إليها من القوة ما بهتت عنده»[٦]. وقيام النخبة من الأفراد بمثل هذه الأعمال هو الذي يجعل الأمم، وبصورة خاصة تلك التي تشعر بأنها بحاجة ماسة إلى التقدم، أن تنظر إلى الذين يتقلدون زمام أعنتها «نظر المريض إلى الطبيب، والظامىء إلى الماء، ويحملها على أن تحبهم محبة الولد للوالد»[٧].

---

(١) سليم البستاني، «الصناعة». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٥٠ وقال في مكان آخر: «وليست أراضيهم (الافرنج) أحسن من أراضينا ولا أجسامهم أقوى من أجسامنا ولا هواؤهم أطيب من هوائنا ولكن معارفهم أوسع». «المعارف والمعيشة». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ٧٧٤.

(٢) سليم البستاني، «بدور». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٣٥٦.

(٣) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٦١٤.

(٤) المصدر ذاته.

(٥) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج١١ (١٨٨٠) ص ٣٢١.

(٦) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ٥٤٣.

(٧) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٥٧٧.

الهيئة الإجتماعية والحكومة:

إن الهيئة الإجتماعية، في عرف سليم البستاني، هي البيئة الطبيعية للإنسان لذلك يتعذر عليه العيش خارجها كما يتعذر على السمك العيش خارج الماء، بيئته الطبيعية. ولما كان لا بد لكل قوم من التواجد ضمن هيئة اجتماعية كان لا بد لتلك الهيئة من سلطة تحافظ عليها وتسوس مهامها في السلم والحرب وتسعى «في ترقية أسباب كل ما من شأنه أن يؤول إلى توطيد أركان النجاح والراحة ويأتيها بالثروة والقوة المادية والأدبية»[1]. وفي بدء الإجتماع البشري حين كان عدد الأفراد المجتمعين قليلاً «ومحصوراً على الغالب في الذين رابطتهم العلاقات النسبية برباطات الوداد والحب، كان أمر إدارة هيئتهم الإجتماعية منوطاً بكبيرهم سناً»[2]. ثم تطورت هذه الإدارة وانتقلت من يد أكبر الهيئة سناً، كبير العائلة أو شيخ القبيلة، إلى يد الحكومة. ونيط بها مهمة المحافظة على الهيئة الإجتماعية من تعديات الأفراد غير المنضبطين الخارجين على أعرافها وأنظمتها[3]. لذلك نرى أنه عندما اجتمع الإنسان «أمماً وقبائل ومدناً وقرى للتعاون في المعاش والمحافظة على ما يحكم له العقل حكماً صحيحاً»[4]، أقام الحكومة أي «القوم الذين أصبحوا مؤتمنين على حفظ نظام تلك الهيئة وراحتها واستقلاليتها»[5]، وخولها صلاحيات وضع موانع رادعة بإنزال العقاب بحق كل فرد تسوله نفسه الإعتداء على حرمة الأشخاص والممتلكات[6]، واستئصال شأفة الفساد والأضرار التي قد يلحقونها بالمجتمع، «ليخاف الذي يحمله شر الفطرة على طلب فعل

= وطلب من الله «أن يمحو بالمعارف والآداب ما خطته الطبيعة في قلب الإنسان من الميل إلى الشر، ومن قلوب الملوك سياسة ابتياع المجد بدماء الأمم وخزائنها». «زنوبيا». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٤٩٤ انظر أعلاه ص ٨٠ هامش رقم ٧.

(١) سليم البستاني، «الحكام». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٤٨١.

(٢) المصدر ذاته.

(٣) سليم البستاني، «السجون». الجنان ج٣ (١٨٧٢) ص ٤٠٣.

(٤) المصدر ذاته.

(٥) المصدر ذاته.

(٦) ذكر أن «للإنسان غايتان عظيمتان في الدنيا وهما المدافعة عما اقتناه وملكه، والإشتغال لتكثيره وتحسينه». «جملة سياسية». ج٧ (١٨٧٦) ص ١.

الشر ويتمنع عن إجابة دعوتها حذراً من القصاص»[1]. وبدون تلك الموانع والروادع التي تحاول الحكومة جاهدة إجراء تنفيذها لا يستطيع الإنسان أن يأمن على نفسه «لأن الأمنية مسلوبة»[2]. ولكن متى عرف الإنسان حقه ومركزه الحقيقي في المجتمع وأنه عضو عامل فعال في الهيئة الإجتماعية له حقوق وعليه واجبات وأنه «ليس بعبد لنفع أهل المطامع والنفوذ، يرتفع شأنه وترتاح الحكومة بإدارته إذا كانت ذات عدل وإنصاف، وبارتفاع شأن الأفراد ترتفع شؤون الأمة»[3].

لقد حدد سليم البستاني غاية الحكومة بالمحافظة «على راحة الأهالي وترقية أسباب الرفاهية والسعادة وإنماء الثروة وإذاعة المعارف»[4]، و«المحاماة عن حقوقهم»[5] لأن الحكومة العادلة مسؤولة عن راحة الأهالي وواجباتها إنما هي المحافظة عليها، وإلاّ فلا تستحق أن تدعى حكومة، «لأن شأنها إنما يكون التخريب وليس التعمير. فالمزور يتعدى على الحكومة بإيقاعه الخلل في الراحة والأمنية، فإن تمنعت عن أن تقاصصه يلحق اللوم بها»[6]. بينما تجعل الحكومة الظالمة «شأنها سلب راحة رعاياها بسلب أموالهم وعدم صيانة حقوقهم وإهمال أمر أمنيتهم لا يطول زمانها ولا يرتفع شأنها إلاّ بالفتوحات وما ذلك غير ارتفاع موقت. ومهما كانت الرعية ذليلة وضعيفة تعز وتتقوى عند سنوح الفرص إذا اشتدت الأحوال عليها وضاقت من سوء المعاملة نفسها، وما أصدق ما قيل: لا تضايق الجبان لئلا تعلمه الشجاعة»[7].

وكان يؤمن بأن الحكومات للبلدان هي كالملح للطعام وأن مهمتها «تقليل الشر والتعب والفساد، لأنها بقلع الشر بدون إبقاء أثر منه تنتظم الحال فيقل شر البشر بحيث

---

(١) سليم البستاني، «السجون». الجنان ج٣ (١٨٧٢) ص ٤٠٤.

(٢) المصدر ذاته.

(٣) سليم البستاني، «جملة سياسية». الجنان ج١٤ (١٨٨٣) ص ٩٧. وذكر في مكان آخر: «والإنسان لم يخلقه الله سبحانه وتعالى ليطيع دون معرفة الداعي إلى طاعته فلا يكون إنساناً عاقلاً إن لم يحاول دفع الإستبداد إذا وقع عليه بمغايرة حاكم أو رئيس». سليم البستاني. «الإنسان». ج١١ (١٨٨٠) ص ٣٦٩.

(٤) سليم البستاني، «جملة سياسية». الجنان ج١٣ (١٨٨٢) ص ٣٥٣.

(٥) سليم البستاني، «زنوبيا». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٤٢٥.

(٦) سليم البستاني، «بنت العصر». الجنان ج٦ (١٨٧٥) ص ٢٨٤.

(٧) سليم البستاني، «جملة سياسية». الجنان ج٦ (١٨٧٥) ص ١٨٢.

يصير لا يؤثر في العالم أكثر مما تؤثر قنينة حبر في البحار»[١]. واعتبر الحكومة ملح البلاد أيضاً لأن سياستها أساس العمران وأستشهد بانكلترا والدانمارك وبلجيكا وسويسرا والولايات المتحدة الأميركية «لأن حكوماتها تصرف الجهد في سبيل نفع الرعايا، وهو عندها في المحل الأول وغيرها في المحل الثاني»[٢]. وبالرغم من إيمانه بأن الحكومات ملح الأمم كان يعتقد بأنها عديمة الفائدة ما لم تجد ما تملحه «لأنه ما الفائدة من الملح إذا كان الفساد ممتداً في جميع الجسد، وكيف تقدر الحكومة أن تكون ملحاً مصلحاً إذا كانت الأمة التي تؤخذ منها فاسدة»[٣]. ولقد حبذ سليم البستاني النظرية السياسية القائلة بأن «الراعي لنفع الرعية» المنبثق عنها «الحاكم المستقيم الأحوال» وشجب النظرية المعاكسة لها والقائلة بأن «الرعية لنفع الراعي» والمنبثق عنها «الحاكم المعوج السبل والأعمال»[٤]. لأن على الحكام، كما كان يعتقد، تتوقف راحة الشعب وسعادته ونجاحه وقوته، فهم «إما روح الأمة، وملح العالم، وباب العدالة، وقصر الإنصاف، وحصن المدافعة، وخزينة الثروة، ونهر التمدن، وأُفق الراحة، وجسم الحلم. وإما عزرائيل الأمة، وفساد العالم، وباب الظلم، وسجن الإنصاف، ومركز الضعف، ولصوص الثروة، وسم التمدن، وجحيم الراحة، وجسم الغضب»[٥]. ومع اعترافه بأنه من المقرر عند غالبية المفكرين السياسيين أن الشعوب لا تحب حكوماتها لا بل تكرهها، لأن «أصعب الأمور خضوع نفس لحكم نفس»[٦] كان يؤمن بأن الحكومة هي من الشعب وللشعب[٧] «لأن ما يضر

---

(١) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٧٤.

(٢) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٥٤١.

(٣) المصدر ذاته.

(٤) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ١٤٥. راجع أيضاً من أجل فكرة «رعايا» و«الرعية» المطبقة في الدولة العثمانية، كتاب **نشوء القومية العربية** ، ص ٣٨ ـ ٣٩. وعرّف سليم البستاني الحكومة بأنها كالراعي الذي يصون مواشيه. «جملة سياسية». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ٨٠٩.

(٥) سليم البستاني، «الحكام». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٤٨٢.

(٦) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ١٨٣.

(٧) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج١٤ (١٨٨٣) ص ٢٢٧. وذكر أن «الاختبار قد أبان لأهل السياسة أنه لا تستقيم أحوال الممالك إلا باستقامة أحوال الرعية. «جملة سياسية». **الجنان** ج٧ (١٨٧٦) ص ٣٦٣.

الحكومة يضر الشعب وبالعكس. فإن افتقر الشعب تفتقر الحكومة. وإن قلّت الأمنية تقل الأعمال فتقل المكاسب ويضعف ينبوع مداخيل الحكومة. فإن الحكومة هي للشعب الروح. والشعب هو للحكومة الجسد. فإن ضعف الجسد تتعب الروح. وإن تعبت الروح يضعف الجسد. على أن الروح هي الجوهر الذي يقوم به الجسد وهو بالنسبة إليها عرض. فبناء على ذلك نقول إن الراحة هي كرة صغيرة بين أنامل أعضاء الحكومة تدار كيفما شاءوا»[١].

وتدل كتابات سليم البستاني أنه كان يفضل نظام الحكومة المقيدة، «جمهورية» كانت أم «ملكية»[٢]، وكان يستهجن نظام الحكومة «المطلقة» مهما كان نوعها، لأن «المنصفين من أهل هذا العصر لا يطلبون إقامة الجمهورية المعتدلة إلاّ لتقيدها، وعندهم أن الملكية المقيدة، كملكية انكلترا، كالجمهوريات ذات الإعتدال إذا لم نقل أسلم عاقبة منها. فإن الغاية إنما هي حصول الراحة وسبيل الراحة في هذا الزمان مراعاة روح العصر بالإبتعاد عن كل ما هو غير معتدل، فالملكية المطلقة القديمة المبادىء هي عندهم كالجمهورية الغير المعتدلة»[٣]. وأوضح بأنه يقصد بالجمهورية غير المعتدلة «الجمهورية الراديكالية» أي «التي تحب تغيير نظامات البلاد وتقرير نظامات ربما كانت لا توافق الأمة»[٤]. وذكر أن شهادات التاريخ حول هذا الموضع علمته بأن كل أنواع الجمهوريات المعتدلة منها وغير المعتدلة، هي ينبوع الويلات والمآسي: فالماضي البعيد والمتوسط والقريب حتى الحال قد بينت أن نجاح الأمم عند اتحادها يتم إذا كانت جمهورية أو ملكية، وإن خرابها يتم أيضاً عند دخول الفساد والانشقاق إذا كانت ملكية أو جمهورية»[٥].

ومهما يكن من أمر تحفظه وتخوفه من «الجمهورية» التي، في عرفه، لم تثبت

---

(١) سليم البستاني، «الإصلاح». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ١٣٠.

(٢) سليم البستاني، «جملة سياسية». الجنان ج٦ (١٨٧٥) ص ٧٤.

(٣) سليم البستاني، «جملة سياسية». الجنان ج٤ (١٨٧٣) ص ٦٨٦.

(٤) سليم البستاني، «جملة سياسية». الجنان ج٤ (١٨٧٣) ص ٥٧٧.

(٥) سليم البستاني، «جملة سياسية». الجنان ج٥ (١٨٧٤) ص ٦٨٦. وذكر أن حسب فرنسا «تقدماً تغيير هيئة حكومتها من حكومة مطلقة إلى حكومة مقيدة». «١٨٦٩». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٣٤.

زماناً طويلاً في فرنسا لخيانة الذين استلموا زمامها فقد ذكر أن فرنسا قد تعلمت بالتجارب كيف تحافظ عليها ولذلك المظنون «أن حكومة فرنسا إنما تكون حكومة جمهورية ترسل أشعة شمسها النافعة إلى جميع أقطار العالم»[1]. إن اعتقاده بفائدة نظام «الجمهورية» جعله يرجح ثبوته كنظام سياسي ناجح[2] يجب أن يحتذى «لأن روح هذا العصر آخذ في الانتشار فلا بد له من شمس تنير سبيله فشمسه في الغرب هي الجمهورية»[3].

ولم يخف رئيس تحرير الجنان اعجابه الشديد بفرنسا، وحكومتها «الجهمورية» التي كان يعتبرها «مرضعة روح العصر»[4] و«مرضعة الحرية وأم المساواة»[5] ووصفها بالعروس الجميلة التي «تتجلى بين ممالك أوربا، وتبعث إلينا وإلى العالم من أريج الحرية والاتحاد والمساواة ما ينعش الأبدان، ويرفع قدر الجنس البشري في كل مكان»[6]. هذا بالإضافة إلى اعتقاده بأن من شأن امتداد الحرية في الجمهورية الفرنسية يساعد على امتدادها وتعميمها إلى أكثر بلدان العالم[7]. ولا شك أن هذا الإعجاب كان نتيجة تأثير مبادىء الثورة الفرنسية على تفكيره. ولطالما أشاد بالإنجازات السياسية والاجتماعية التي قامت بها هذه الثورة[8]، حتى أنه اعتبرها نقطة تحول فاصلة في التاريخ وابتداء «عصر الحقوق»[9]. وأن «عصر الحقوق» هذا فتح الباب على مصراعيه أمام الشعوب للمطالبة بحقوقها «ومنذ ذلك الزمان أخذت الدول العاقلة في الميل عن سبل سياستها الأولى وفي اعطاء رعاياها حقوقها»[10]. كما أن إرضاء عامة الشعب

---

(١) سليم البستاني، «خلاصة سياسية». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ١٠٨.
(٢) سليم البستاني، «خلاصة سياسية». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ١٤٧.
(٣) سليم البستاني، «مستقبل فرنسا». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٤٣١.
(٤) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٦٥٠.
(٥) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج١٤ (١٨٨٣) ص ٣٥٣.
(٦) سليم البستاني، «خلاصة سياسية». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٢٥٣.
(٧) سليم البستاني، «خلاصة سياسية». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ١٤٧.
(٨) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٢٥٤، وج٥ (١٨٧٤) ص ٥٠٥، ٥٤٢، ٦٨٥.
(٩) المصدر ذاته.
(١٠) سليم البستاني، «الحقوق». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٥٧٤.

أصبح الشغل الشاغل للحكومات وبات «مصدر قوة بعد تعميم المعارف وانتشار المبادىء الفرنساوية التي جعلت روح العصر المساواة وحرية الضمير وسيادة النظامات والقوانين، فهي روح لا تقدر أيادي المضادين أن تمسها مساً مؤثراً بدون أن تشعر بسوء عواقب التعدي على روح حيوة العامة»[١].

أما فيما يتعلق بالعلاقة القائمة بين الحكومة والهيئة الاجتماعية فلقد كان يؤمن بأن «صوت الشعب صوت الله»[٢] وبأن كل ما يؤثر على الحكومة «من نفع أو ضرر يؤثر على الشعب طرداً وعكساً»[٣]. ولذلك دعا إلى تعاون وثيق بينهما «لأن الشعب لا يستطيع الإصلاح بدون مساعدة الحكومة وبالعكس»[٤]. وينبثق عن هذا الارتباط الوثيق المتبادل بين الحكومة والشعب القول بأن الخصائص التي تمتاز بها الحكومة تعكس خصائص الشعب، وذلك لأن حكومة كل أمة تكون «نظير تلك الأمة مشرباً وتمدناً وعملاً، أي إن خاصة الحكومة تكون كخاصة الشعب وعامة الحكومة كعامة الشعب. فكل شعب أحب أن تكون له حكومة ممتازة إدارة وعدلاً وجب عليه الاجتهاد في تمييز نفسه أولاً»[٥].

لقد أورد سليم البستاني في كثير من مقالاته وفي الاقتباسات التي استشهد بها أعلاه التعابير التالية: الأمة والدولة والحكومة والحكم والملك، ولكنه لم يميّز بينها كلياً ولم يحدد ماهية كل منهاومقوماتها[٦]، لا بل كثيراً ما كان يستعملها كمرادفات للسلطة الحاكمة، كما أنه أكثر من استعمال تعابير الهيئة الاجتماعية والرعايا والأهالي

---

(١) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٦٨٥.

(٢) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ٣٦٢.

ذُكر أن «صوت الشعب صوت الله» هو مثل إنكليزي سائر وذكر أن:

Walter Reynolds, Archbishop of Canterbury took «Vox populi, vox dei» (The voice of the people is the voice of God), as the text of his sermon when Edward III ascended the throne, 1 Feb. 1327. *The Home Book of Quotations*. New York, Dudd, 1952 p. 1480: 15.

(٣) سليم البستاني، «الإصلاح». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ١٣٠.

(٤) سليم البستاني، «المعدة». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٢٢٦.

(٥) سليم البستاني، «حيوة البلاد وسعادة العباد». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٣٨.

(٦) من أجل تعريف هذه التعابير راجع:

R.H. Soltau. *An Introduction to Politics*, pp. 15 - 75.

والجماهير والعباد والشعب بدون أن يفرق بينها أيضاً. وذلك لأن اهتمامه كان منصباً كلياً نحو غاية واحدة ألا وهي تحديد طبيعة العلاقات المتبادلة بين الحاكم والمحكوم أو بين الحكومة والرعية، بالإضافة إلى أنه كان يحاول أن يمرر هذه الإراء بين ثنايا مقالاته، عند سنوح أية فرصة مناسبة، خشية أن تلفت أنظار السلطات الحاكمة التي كانت تعتبر انتشار مثل هذه الآراء بين رعاياها شيء غير مرغوب به يجب مراقبته ومنعه.

وأتخذ سليم البستاني موقفاً مناوئاً للمبادىء الاشتراكية التي كانت آخذة في الانتشار في كل من النمسا والمانيا وفرنسا. واتهم الاشتراكيين بأنهم على «ضلال مبين»[1]. ووصفهم «بالحمر الذين يطلبون بأن تكون أموال جميع الناس وأملاكهم مشتركة»[2]. وعرفهم بقوله: «فان السوسيال هم الذين يقولون أن انتظام العالم الحالي ليس بعادل فإنه يمكّن أناساً من أن يجمعوا من المال ما يكفي لمئات منهم حال كون ملايين يكادون يموتون جوعاً ودنقاً وأنه من الواجب على الحكومات أن تبادر إلى وضع نظامات جديدة من شأنها جعل توزيع المال توزيعاً أهم وغير ذلك مما يرد عليه ويرفض»[3]. وهاجم «فساد التعاليم الاشتراكية»[4] و«القواعد الفاسدة الاشتراكية.. وبطلان التعاليم الاشتراكية»[5]. وأدلى بدلوه بين الدلاء لوضع اقتراحات كحلول لانتشار الاشتراكية. وتقوم اقتراحاته هذه على منح الحرية للشعوب على النهج السائد في كل من انكلترا والولايات المتحدة وسويسرا بعد التمهيد لذلك بواسطة نشر المعارف

---

(١) سليم البستاني، «سامية». الجنان ج١٤ (١٨٨٣) ص ٢١٩.

(٢) سليم البستاني، «اسما». الجنان ج٤ (١٨٧٣) ص ٧٨٧.

(٣) سليم البستاني، «جملة سياسية». الجنان ج٩ (١٨٧٨) ص ٣٨٤. راجع أيضاً اعتراضات بعض المفكرين للمبادىء الإشتراكية وفيها بعض ما ورد على لسان سليم البستاني. R. H. Soltau. pp. 282 - 286 & G. H Sabine pp. 739 - 740. ويظهر أن روبرت أوين (Robert Owen) (١٧٧١ ـ ١٨٥٨) المتأثر بآراء Saint - Simon هو أول من استعمل لفظة اشتراكية سنة ١٨٣٥.

He founded an «Association of all classes. Of all Nations» in 1835, at whose meetings the word «socialism» seems to have been first used». E. Kilzer & E. J. Ross, *Western social Thought*. Milwaukee, 1954. p. 245.

(٤) سليم البستاني، «سامية». الجنان ج١٣ (١٨٨٢) ص ٤١١.

(٥) المصدر ذاته، ج١٤ (١٨٨٣) ص ٥٥٤.

وتعميمها واتقان التربية، أو على حد تعبيره: «وما دام في بعض البلدان أحزاب لا يرضيهم غير الاشتراك بالأموال فلا سبيل إلى إزالة هذه الحال بجميع الوسائل الاعتيادية غير أن أعظم علاج لهذا الداء هو منح الحرية على النسق الجاري في انكلترا وأميركا وسويسرا بعد أن تهيأ الأمم لذلك بنشر المعارف بين الأهالي وتعميمها وإتقان التربية»[١]. لقد كان سليم البستاني ليبرالياً مثالياً في تفكيره من أنصار اعطاء الفرد «الحرية المطلقة التي لا تضر بالغير»[٢] المقيدة بالنواميس الطبيعية والقوانين الموضوعة وعادات الهيئة الاجتماعية[٣]، ومن القائلين بعدم تدخل الدولة في شؤون الفرد متبنياً نظرية أدم سميث «دعه يعمل» (Laissez - Faire)[٤] والشاهد على ذلك قوله أن «اصلاح الإنسان أو الفلاح إنما يتم بصيانة حقوقه من الضابطي ومن الملتزم ومن ملتزم الملتزم ومن مختار القرية وشيخها والمدير وسائر المأمورين في القضاء وبالتالي في المتصرفية وفي الولاية. وهذه قواعد عمومية مبنية على أساس التوفير السياسي أو المنزلي[٥]. الذي هو مدار الأعمال عند المتمدنين»[٦]. وكانت «الحرية الشخصية»[٧] تحتل المكان الأول عنده، لذلك رفض رفضاً قاطعاً القول المشهور «حاكمك ربك»[٨] معتبرها «من كلام أهل الأعصر المظلمة في الشرق»[٩].

---

(١) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج١٢ (١٨٨١) ص ٤١٨.

(٢) سليم البستاني، «روح العصر». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٣٨٦.

(٣) سليم البستاني، «توضيح النظامات الأساسية». **الجنان** ج٨ (١٨٧٧) ص ٢٠٤.

(٤) التوفير السياسي وتحسين أحوال الأمة» **الجنان** ج ٦ (١٨٧٥) ص ٢٧٥.

(٥) ايكونومي بوليتيك Economie Politiques **الجنان** ج٦ (١٨٧٥) ص ٢٣٧.

(٦) سليم البستاني، «ثروتنا». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ٨٠٦ ـ ٨٠٧.

(٧) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٨ (١٨٧٧) ص ٨٣٠.

(٨) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ٨٢٩. «سلمى» **الجنان** ج٩ (١٨٧٨) ص ١٠٢.

(٩) سليم البستاني، «وظائف الحكومة». **الجنان** ج١٣ (١٨٨٢) ص ٢٧٧.

الأمة العربية[1] والأمة العثمانية

عدّد سليم البستاني في مقالة «من نحن»[2] أمجادنا الماضية والخدمات التي قدمناها للحضارة قائلاً: «نحن ذرية قوم أفاضل قد اشتهروا قديماً بالمعارف والصنائع والتجارة والحماسة والشجاعة والفتوحات والفصاحة والحكمة. . . ونحن سلالة الذين أعطوا العالم الأديان، وعلموه الصناعة واخترعوا له أصول ما له من الأمور النافعة، وأكسبوه ما له من التمدن وأسباب الرغد والراحة، وفتحوا له أبواب المتجر براً وبحراً، واقتحموا الأخطار والأهوال العظيمة لكي يكسبوا بلادهم ثروة وصولة وشهرة وهيبة. ومنا الشرفاء والأكابر وأشهر الكرماء، ونحن نكرم الضيف ونحسن مثواه وبلادنا أحسن البلدان هواء وماء وتربة ورغداً ولغتنا أفصح اللغات وأوسعها»[3]، ثم تساءل عن هويتنا القومية وماهيتها، وقال بأن هناك أربعة «انتسابات» تتردد على السنتنا كأجوبة لذلك، وهي:

أولاً: «فمنا من ينتسب إلى العرب الذين سادوا ومادوا شرقاً وغرباً، وتملكوا بلاد العرب والعجم وأفريقية وأقصى المغرب والهند، وامتدت فتوحاتهم إلى اسبانيا وأكثر بلدان أوربا، ونشروا ألوية العدل والمعارف والصنائع والتجارة والزراعة، واخترعوا أموراً شتى، وألفوا كتباً لا تحصى، وأنشأوا مدارس لا عدد لها في كل مكان خضع لسلطتهم القهارة»[4].

ثانياً: «ومنا من ينتسب إلى السريان والكلدان أصحاب الفتوحات والشجاعة

---

(١) من أجل نشوء القومية العربية راجع الكتب التالية: جورج أنطونيوس. **يقظة العرب**. ترجمة ناصر الدين الأسد ومراجعة إحسان عباس. بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٢ ص ١٤٩ ـ ١٦٤. ومقدمة الكتاب بقلم نبيه أمين فارس. ص ١١ ـ ٢٦. وزين نور الدين زين. **نشوء القومية العربية**، بيروت، دار النهار للنشر، الطبعة الثانية ١٩٧٢، ص ٤١ ـ ٥٤، ٨١ ـ ١٠٩. وساطع الحصري. **أبحاث مختارة في القومية العربية**. القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٤. ص ٧٣ ـ ٩٨.

(٢) سليم البستاني، «من نحن». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ١٦١ ـ ١٦٢.

(٣) المصدر ذاته، ص ١٦١.

(٤) المصدر ذاته، قارن ذلك مع قول يعقوب صروف بأننا كما قيل فينا «سلالة العرب الكرام والفينيقيين العظام لا يقوى عليهم عسير إذا راموا أن يقووا عليه». **المقتطف** ج٨ (١٨٨٤)ص ٣٨٤.

والسطوة الذين أمتدت سلطتهم في الشرق وإلى جهات مختلفة، واشتهروا بحب العلوم والمعارف والحكمة حتى وصلوا فيها إلى الدرجة القصوى»[1].

ثالثاً: «ومنا من يتتسب إلى اليونان الذين اشتهروا بالفلسفة والحكمة والصناعة والتجارة والشجاعة والاقدام حتى اخضعوا لسلطتهم كل الكرة المعروفة حينئذ شرقاً وغرباً»[2].

رابعاً: «ومنا من هم اخلاط متسلسلون من امتزاج تلك الشعوب العظيمة بعضها مع بعض»[3].

ولم يقبل سليم البستاني بهذه «الانتسابات»، كأساس لتحديد قوميتنا، لأنها مبنية على «العصبة الجنسية» التي وصفها بأنها «خصوصية ولا تصلح أن تكون عمومية، وما هي إلا اعتصاب قوم من نسب ودين واحد ولغة واحدة»[4]. ولأن روح العصر في القرن التاسع عشر لا تسمح بها: «فالأمة الأميركانية مثلاً هي من أجناس مختلفة، منها من هم من الإنكليز، ومنها من الالمان، ومنها من الفرنساويين وغيرهم، ومع ذلك نرى أن ارتباطهم في صوالح واحدة وسكنهم في بلاد واحدة يقودهم على رضاهم التام إلى الانتظام في جنسية واحدة وهي الجنسية الأميركانية مع قطع النظر عن جنسياتهم الأولى، وكذلك مكسيكو وبرازيل وبيرو وغيرها»[5]. ورفض أيضاً الاعتصاب «بالعصبة الدينية» وطالب بقتلها[6] لأن من نتائجها البغض والتنافر وعدم الامتزاج والانشقاق والغدر والخيانة[7]. ولأن التمسك بالعصبة الدينية «في بلاد مختلفة الأديان هو الضعف بالانقسام ونتيجة الخراب وهذا هو أساس الحروب الأهلية[8] الكثيرة التي كانت

(١) سليم البستاني، «من نحن». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ١٦١

(٢) المصدر ذاته.

(٣) المصدر ذاته. وذكر في رواية زنوبيا أن أهالي تدمر «هم من السريان والعرب واليونان». «زنوبيا». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٢٧.

(٤) سليم البستاني، «الأمس». **الجنان** ج١ ص ٦٤٦.

(٥) المصدر ذاته.

(٦) سليم البستاني، «الغد». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٦٧٦.

(٧) سليم البستاني، «الأمس». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٦٤٦.

(٨) وله موقف آخر تجاه الحروب الأهلية، حيث يقول: «وان أكثر حروبنا الأهلية الماضية هي طلباً لخلع سلطة أو تثبيتها كما في لبنان وليس لاختلاف الدين فنسبت إليه لأنه أصبح مميز =

رعودها تدمدم في سماء سياسة الأمس»[1]. ولذلك الأوفق لنا أن ننتمي إلى عصبة واحدة حسب مقتضى انتمائاتنا الوطنية ومصلحتنا الواحدة وموافقتنا التامة للانتظام في سلك جنسية واحدة «لأننا ساكنون في بلدان مجاورة بعضها البعض ولغتنا واحدة وسياستنا واحدة. وبذلك نتخلص من انشقاقات العصب الدينية والجنسية ويصبح شأننا شأن دولة أميركا ومكسيكو وشأن دولة الرومان القديمة التي امتزجت ببرابرة الشمال واتحدت معهم في اللغة والصوالح الدينية وهي الآن أمة واحدة إيطاليانية»[2]. واستخلص من ذلك أن «اعتصابنا عصبة وطنية هو أمر سهل وعلى الخصوص بعد أن نكون قد استعربنا عوائد ولغة وموطنا. فنصبح أمة واحدة متجنسة بالجنسية العربية»[3].

وخشية أن يساء فهم معاني «الوطن» و «الوطنية» و «أبناء الوطن» التي هي «ألذ ما زين به جيد العربية من الكلمات المولدة»[4] أخذ على عاتقه تحديد ماهيتها. فلقد عرف «العصبة الوطنية» بانها: «أنما هي تكاتف قوم اجتمعوا في مكان واحد أو أكثر لترقية أسباب نجاحهم ولدفع الاضرار عنهم»[5]، كما أن وطن الإنسان «هو المكان الذي له فيه تعلقات نسبية وعملية وأدبية وسياسية ولغوية»[6]. وذكر أنه أراد من كل ذلك أن يبين لأبناء وطنه «أنه لا نجاح لهم إلاّ في الاعتصاب بالعصبة الوطنية، واعتصابنا بالعصبة العربية هو حقيقة لا وهم واصطلاح. لأنه يكاد لا يوجد بين أمم

= الأحزاب في بلادنا وقبل ذلك لم تكن منسوبة إليه بل كان التحزب مثلاً كالحزب اليزبكي والجنبلاطي وهما حزبان يشترك في كل منهما النصراني والدرزي». سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٧ (١٨٧٦) ص ٣٦٣.

(١) سليم البستاني، «سياسة الأمس والآن والغد». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٧٠٦.

(٢) سليم البستاني، «الأمس». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٦٤٧.

(٣) المصدر ذاته. وذكر أيضاً «أن روح العصر الحاضر قد أبدل العصبة الدينية بالعصبة الوطنية». «روح العصر» ج١ (١٨٧٠) ص ٣٨٦.

(٤) اتخذ نفس الموقف الذي اتخذه والده قبله. انظر أعلاه ص ٤٣.

(٥) سليم البستاني، «الأمس». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٦٤٤.

(٦) المصدر ذاته، ص ٦٤٣. وذكر أيضاً أنه «من أغرب الأمور في الدنيا وأشدها تأثيراً في حياة الإنسان الجواذب الوطنية». «فاتنة». **الجنان** ج٨ (١٨٧٧) ص ٥٠٠. قارن ذلك مع قول يعقوب صروف: «ومحبة الوطن نوع من الأنانية وهي لازمة لارتقاء كل أمة على حدتها». **المقتطف** ج١٣ (١٨٨٩) ص ٢٩٠.

الدنيا أمة لم تمتزج بغيرها. فالذي سوّغ لقريش أن تتجنس بالجنسية العربية حال كونها من إسمعيل (وهو كلداني سرياني[1]) يسوّغ للذين أصلهم، منذ قرون كثيرة، غير عربي أن يتجنسوا بالجنسية العربية الآن»[2]. وأفضل موقف صائب نعتمده في تحديد هويتنا القومية، بالنسبة إلى رئيس تحرير **الجنان**، هو أن نقطع النظر عن أصلنا البعيد ملتفين حول بعضنا البعض في سبيل غاية واحدة، ومنضويين تحت راية واحدة رافعين عن أعيننا برقع الجهل محركين في نفوسنا «الحمية العربية» ومعتصبين عصبة واحدة هي عصبة الأمة العربية «لأننا قد عزمنا بحوله تعالى وبعون أهل الحمية والغيرة والأدب أن نقطع النظر عن جنسياتنا البعيدة ونتجنس جميعاً بجنسية واحدة وهي الجنسية التي سارت في وطننا بعد كل الجنسيات واقتبسنا لغتها وعاداتها وهي الجنسية العربية وكثيرون منا هم في الأصل منها وهي منهم»[3].

كان سليم البستاني يدرك أن بسمارك استطاع أن يوحد المانيا «تحت اسم الأمة الألمانية»[4]، وأن غاريبالدي استطاع أيضاً أن يوحد إيطاليا «تحت اسم الأمة الإيطاليانية»[5]، بأعتماد كل منهما على المقومات التالية: الوحدة الوطنية، ووحدة البلاد، ووحدة اللغة ووحدة التاريخ المشترك، ووحدة المصالح المشتركة[6]. كما كان يدرك محاذير تلك العناصر الأساسية بالنسبة للأمة العربية حيث تتوفر لها جميع هذه المقومات ولكن هنالك عقبات تقف حائلاً دون ذلك، لأن «تحزباتنا الوطنية المبنية على أساس محبة الوطن هي مفقودة في ربوعنا»[7]، كما أن «العصبة الجنسية والعصبة الدينية لا تزالان في ربوعنا، ومن سوء حظنا، نحن من أجناس كثيرة وأديان

---

(١) سليم البستاني، «الغد». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٦٧٤.

(٢) المصدر ذاته:

(٣) المصدر ذاته. وأورد تعبير «الأمة العربية» في أماكن مختلفة في الجنان. **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٢٢٥، ٢٥٨، ٦٤٤، ٦٧٤، ٦٧٥، وج٢ (١٨٧١) ص ٨٢٩. وج٣ (١٨٧٢) ص ٣٥٩. وج٤ (١٨٧٣) ص ٧٩٤. وج٦ (١٨٧٥) ص ٤٤٣. وج٨ (١٨٧٧) ص ٣٣٨. وج١١ (١٨٨٠) ص ٤١٨، ٥٤٥.

(٤) سليم البستاني، «الأمس». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٦٤٤.

(٥) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ١٨٣.

(٦) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٥ (١٨٧٤) ص ١٨١.

(٧) سليم البستاني، «لسان الحال». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ١٤٣.

مختلفة»[1]، وأن اعتصاب السياسة عندنا هي مع الدين «ففي الجبل مثلاً كان أعتصابها مع الطائفة المارونية وفي حلب مثلاً مع الإسلام، وربما في غيرهما مع غير هاتين الطائفتين كالدروز في حوران والنصيرية في جبال النصيرية وغيرهم»[2]. لذلك نراه يدعو إلى الفصل التام بين الدين والدولة[3] لمداوات هذه الأمراض. بالإضافة إلى ذلك أصبح في بلادنا عوضاً عن العصبة الوطنية «أكثر من اثنتي عشرة عصبة دينية شأن كل منها الاجتهاد في ترقية صوالحها بالدوس على هامة صوالح غيرها. فديدنها ديدن اثنتي عشرة مملكة مرتبطة بعضها ببعض وكذلك رعاياها، وعناصر الحسد والبغض والعدوان والتعصب قائمة بينها على قدم وساق، وأنهر الدم تجري كل مدة بسيف العصبة الدينية ودماء التعدي لا تحجب لحظة واحدة»[4]. لذلك دعا إلى الاتحاد والإلفة بين مختلف الطوائف الدينية[5].

وهذا لا يعني أن «الأمة العربية» قد انقرضت وماتت ومحيت من سفر الوجود كما جرى «للأمة الرومانية» التي «ماتت بعد أن عاشت حيوة كاملة ونازعت أكثر من قرنين»[6]. إن «الأمة العربية» بخلاف ذلك «لم تمت بل خسرت قوتها وأمست لا تقدر أن تسير على قدميها في سبيل السياسة، ولمّا صدمتها أنواء الدهر سقطت سقوطاً ولم تمت موتاً لأن زمان حياتها لم ينته بعد»[7]. ولم يكن يعتقد «بأن هذا السقوط لا يعقبه نهوض»[8]، لا بل كان يعتقد أن «الأمة العربية» ستنهض من كبوتها هذه «متى أتاها الدهر بزمان يناسبها ترجع إلى جنان الحيوة وتحيا ثانية مجددة حياتها التي لم تقطع كل

---

(١) سليم البستاني، «الهيام في جنان الشام». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٧٠١.

(٢) سليم البستاني، «سياسة الأمس والآن والغد». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٧٠٦.

(٣) سليم البستاني، «زنوبيا». الجنان ج٢ ص ٣١٥. و«جملة سياسية». الجنان ج٣ (١٨٧٢) ص ٥٠٥، ٥٠٦، ٧٥٨. وج٤ (١٨٧٣) ص ١٤٦، ٤٣٣، ٤٣٤. وج١ (١٨٧٠) ص ٣٨٨، ٤٨١. راجع أعلاه ص ٤٦ هامش ٥ حيث سبقه والده القول بالفصل بين الدين والدولة.

(٤) سليم البستاني، «الأمس». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٦٤٥.

(٥) الجنـــان ج١ (١٨٧٠) ص ٣٨، ١٢٩، ١٦٤، ٤١٧. وج٢ ص ١٤٢، ١٧٩، ٢١٦، ٢٤٩، ٢٩٣، ٦٨٣. وج٣ ص ٣٩٨. وج٤ ص ٤٦٩، ٨٢٩. وج٥ ص ١٨٢، ٦١٥، ٦٨٦. وج٦ ص ٥٧٧، ٧٩٤. وج٧ ص ٤٧٢، ٥٧٩، ٦٥٠، ٦٨٥، ٧٥٧. وج٩ ص ٦٧٣.

(٦) سليم البستاني. «الغد». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٦٧٤.

(٧) المصدر ذاته، ص ٦٧٤ ـ ٦٧٥.

(٨) المصدر ذاته، ص ٦٧٥.

زمانها»[1]. وذلك لأنها، في عرفه، أمة خارجة من «تمدن عظيم» ولها «تاريخ حضاري مجيد» بني عليه «تمدن هذا العصر فيكون تاريخها من أعظم مرّوجات اجتهادها في ترجيع ما سلب منها بسوء الادارة واستبداد الأحكام وسلب الحرية العمومية»[2].

ولم يكتف بذلك بل تجاوز حدود الأمة العربية إلى القول «بالأمة العثمانية». لقد دعا سليم البستاني جميع الأمم التي تتألف منها الدولة العثمانية إلى الانضواء تحت راية «الأمة العثمانية»، وانصهارهم في بوتقة واحدة، «وترقية أسباب الاتحاد العثماني»[3] لأنهم جميعاً «ذوو صوالح واحدة وأن تقدمهم إنما يكون باتحادهم واتفاقهم وتكاتفهم بحيث يصبحون بالفعل أهل وطن يغارون عليه ويبذلون ما عزّ وهان في سبيل خدمته فيجتمعون رأياً واحداً وقلباً واحداً حول راية دولتهم بالعز والسعادة»[4]. وذكر، تأييداً لنظرته هذه، أن عقلاءنا قد اجمعوا «على أن من مصلحتنا أن نكون من شمالي الطونة إلى أواسط بلاد العرب أمة عثمانية واحدة لنا مركز عزيز شهير كالاستانة، فإن قوتنا لا تكون إلاّ بالاتحاد»[5]. ودعم ذلك بالقول التالي: «وقد أجمع الناس على أنه لا تكون لنا سلامة استقبالية ثابتة ما لم تصير أمم الدولة العلية أمة واحدة عثمانية في الصالح والحقوق ووطنها مكان راحة ورغد وعدل ورفاهية»[6]. وهكذا نرى أن دعوته إلى نهوض الأمة العربية من كبوتها لم تحتم عليه القول باستقلالها التام وانفصالها عن الدولة العثمانية بخلاف البعض من معاصريه. وكان الدكتور فارس نمر، أحد منشيء **المقتطف**، يوافقه على هذا الرأي[7]. فلقد أشاد بالدور الذي لعبه كل من رزق الله حسون[8] وفرنسيس فتح الله مراش في نهضة الديار الشامية في القرن التاسع عشر

---

(1) المصدر ذاته.

(2) سليم البستاني، «جملة سياسية». الجنان ج١١ (١٨٨٠) ص ٤١٨. قارن ذلك بقول يعقوب صروف حول «ارتقاء الأمة العربية وصلاح حال الهيئة الإجتماعية». المقتطف ج٧ (١٨٨٢) ص ١.

(3) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٨ (١٨٧٧) ص ٨٣٠.

(4) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٤ (١٨٧٣) ص ١٨١.

(5) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٦ (١٨٧٥) ص ٧٩٤.

(6) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج٧ (١٨٧٦) ص ٧٢٤.

(7) اعتبره جورج انطونيوس أحد المسؤولين عن أول جهد منظم في حركة العرب القومية إلى سنة ١٨٧٥. **يقظة العرب**، ص ١٤٩. ومصطفى الشهابي. **القومية العربية: تاريخها وقوامها ومراميها**. القاهرة ١٩٥٩، ص ٤٧.

(8) طرازي، **تاريخ الصحافة العربية**. ج١ ص ١٠٥ ـ ١١٠.

«ولكنهما مزجا بلاغتهما بعلقم التفريق بين الترك والعرب فأصابا بإيقاظ النفوس لطلب الحرية وأخطأا بتمزيق الجامعة العثمانية»[١]. كما كان الشيخ محمد رشيد رضا، صاحب مجلة المنار الإسلامية، يشاركه هذا الرأي. ففي «صيحة حق» وجهها إلى العثمانيين دعاهم إلى الاتحاد قائلاً: «احفظوا جامعتكم العثمانية»[٢]. وأوضح أنه في دعوته إلى «الوحدة العربية» لا يعني انفصال العرب عن الترك، مؤكداً أنه «لا بد أن يكون السعي في الوحدة العربية على وجه لا يخل بسيادة الدولة العلية ولا يهيج علينا الدول الأوروبية»[٣]. وذكر الشيخ رضا أيضاً أنه كان على خلاف مع عبد الرحمن الكواكبي، الذي كان يدعو إلى إنشاء خلافة عربية مستقلة كلياً عن الأتراك، حول هذا الموقف[٤]. ولقد عارض جرجي زيدان، صاحب مجلة **الهلال**، موقف الكواكبي الاستقلالي معترفاً له بالفضل «في نصرة الحقيقة وتأييد الحق والحرية»[٥] ولكنه كان يحاول عبثاً ويضيّع قواه سدى لأن مجاري الطبيعة غالبة على مساعيه. ويحدثنا الشيخ محمد رشيد رضا أن الشيخ محمد عبده أرجع بعض المستشرقين «عن السعي لإنشاء دولة عربية لإعتقاده أن التفريق بين الترك والعرب يضعف الفريقين»[٦]. وهكذا نرى أن سليم البستاني لم ينفرد بين مفكري القرن التاسع عشر بالقول بعدم وجوب نزع السلطة من بني عثمان، لا بل كان يفضل أن تتدخل الدولة العثمانية في مصر ضد الثورة العرابية سنة ١٨٨١ بدلاً من تدخل الدولة الانكليزية لأن ذلك حق من حقوقها، كما أن «القواد المصريين لا يقدرون أن يضرموا نيران الحمية في قلوب العساكر بقولهم أن الطالبين إليكم الانقياد والطاعة هم أعداء مرادهم الاستيلاء على وطنكم وسلب امتيازاتكم وحقوقكم، فأن العساكر العثمانية هي عساكر صاحب البلاد الذي تهمه راحتها واستقامة أمورها»[٧].

---

(١) فارس نمر. «النهضة الدستورية وسياسة العثمانيين في الديار المصرية». **المقتطف** ج٣٦ (١٩١٠)ص ٢٥٩.

(٢) محمد رشيد رضا. «صيحة حق». **المنار** ج١ (١٨٩٨) ص ٩٩.

(٣) محمد رشيد رضا. «الوحدة العربية». **المنار** ج٣ (١٩٠٠) ص ٧٨، ٢٩٣.

(٤) محمد رشيد رضا. «السيد عبد الرحمن الكواكبي». **المنار** ج٥ (١٩٠٢) ص ٢٧٨.

(٥) جرجي زيدان. «عبد الرحمن الكواكبي». **الهلال** ج١٠ (١٩٠٢) ص ٥٩٦.

(٦) محمد رشيد رضا. «فاتحة السنة الثانية عشرة». **المنار** ج١٢ (١٩٠٩) ص ١٠.

(٧) سليم البستاني، «جملة سياسية». **الجنان** ج١٣ (١٨٨٢) ص ٤٨٢.

الجنان والصحف العربية المعاصرة

لم تكن طريق مجلة **الجنان** معبدة سهلة العبور خالية من أي حجر عثرة أو من عقبات معوقة، لا بل واجهتها عراقيل جمة تحطمت جميعها على صخرة رسوخ ايمانها بنبل رسالتها. فقد تصدت لها جماعة الرهبنة اليسوعية في بيروت، بادىء ذي بدء بنشرتهم «**المجمع الفاتيكاني**»(١) ثم بجريدتهم «**البشير**»(٢)، وندد بها القس لويس صابونجي صاحب مجلة «**النحلة**»(٣) كما طعن فيها الشيخ أحمد فارس الشدياق صاحب مجلة «**الجوائب**».(٤)

كان القيمون على مجلة **الجنان** يدركون تمام الإدراك بأنه على المصلح الاجتماعي الذي يتصدى للقيام بتأسيس مشاريع عامة كانشاء المدارس والجرائد وغيرها أن ينتبه حق الانتباه إلى ما تعهد القيام بحقه لأن الصعوبات والعراقيل التي سيواجهها في مثل هذه الحالات هي متعددة الجوانب ومتشعبة، وبصورة خاصة «صعوبة اختلاف ميل القوم ومشربهم وغاياتهم وتحزباتهم وأغراضهم»(٥). كما أنه يصعب التغلب على جميع هذه القضايا كلياً مهما اتصف الإنسان بالتجرد والموضوعية، «لأنه لا يقدر أن يرضي القوم ولو كان كاملاً، لأن كماله لا يرضي الناقصين، فكيف إن كان إنساناً لم يهبه سبحانه تعالى الكمال والعصمة. وهو معلوم أنه كل ما كثرت الطوائف والأغراض والأحزاب في البلاد كل ما كثرت هذه الصعوبات»(٦).

اقترح سليم البستاني، رئيس تحرير **الجنان**، على الجرائد العربية أن تحذو حذو انكلترا التي تقرر جرائدها «الواقع بحسب اعتقاد محرريها الذين هم طليعة فرقة العلم والمعرفة الموقرة»(٧) وذلك لمحافظتهم «على الصدق وإظهار الاعتقاد بدون محاباة ولا

---

(١) صدر المجمع الفاتيكاني في بيروت في الأول من كانون الثاني سنة ١٨٧٠. طرازي، **تاريخ الصحافة العربية**، ج٢ ص ٤٤.

(٢) صدرت «**البشير**» في بيروت بتاريخ ٣ أيلول ١٨٧٠. طرازي، ج٢ ص ١١ ـ ١٨.

(٣) صدرت **النحلة** في بيروت بتاريخ ١١ أيار سنة ١٨٧٠. طرازي ج٢ ص ٤٧.

(٤) صدرت «**الجوائب**» بالاستانة في شهر تموز سنة ١٨٦٠. طرازي ج١ ص ٦١.

(٥) سليم البستاني، «جنان سنة ١٨٧٢». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٨٣٠.

(٦) المصدر ذاته.

(٧) سليم البستاني، «جنان سنة ١٨٧٢». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٨٣١.

غرض، فأن ذلك هو من أعظم الوسائط التي تستجلب رضى الأمة وأركانها. وبرهان الصدق تقرير الواقع، ولو سبقه الخطأ تقريراً، فيرافقه اظهار الأسف والكدر»[١]. فإذا كانت الغاية من المناقشة أو المناظرة هي التوصل إلى الحقائق، وإذا كان كاشف أغلاط غيره يعتبر عظيماً، فأن المعترف بأغلاطه يكون أشد عظمة[٢]. لأن تبادل الآراء بين رجال الفكر والأدب هو من الأمور المستحبة والمفيدة «على أنها تخلو من كل فائدة متى أمست عرضة للعناد والاصرار والادعاء»[٣]. وحيث أن البشر «لا يزالون لا يعرفون أن يتفقوا على أن يختلفوا بدون أن يبالوا بذلك»[٤]، ذكر سليم البستاني بأن أحسن المناقشات هي تلك المناظرات «المبنية على أساسات الود والحب والافادة ومجردة عن كل طعن شخصي»[٥]. ووصف الجنان بأنها تتحلى بصفات العدل والصدق والانصاف، لذلك لا تخاف طعن الظالمين ولا تخشى لوم المغرضين «لأن مبادينا هي الانصاف، ومسند أقوالنا عمود الحقائق، فإن زلت بنا القدم فعن غير قصد، أو لحذونا حذو غيرنا. فمن شاء أن يعذر فشأنه شأن الكرام ومن شاء أن يصحح فأعمدة الجنان فسيحة. ومن شاء غير ذلك فليفعل ما يشاء، لأن درعنا متينة ومجننا يدفع صدمات السيوف»[٦]. وأضاف، في مكان آخر، قائلاً بأن المدح والذم عنده سيان طالما أن ديدنه القيام بحق واجباته، وعاداته «إغماض الطرف عن القيل والقال»[٧].

وتطبيقاً لهذه المبادىء والنظريات، ولكي يقرن رئيس تحرير **الجنان** أقواله بأفعاله، احجمت **الجنان** عن الرد على طعن كل من **المجمع الفاتيكاني** و «**البشير**» و «**النحلة**» و «**الجوائب**»، وافسحت المجال لكل من فرنسيس فتح الله مراش ورزق الله إلياس حجي والشيخ أحمد فارس الشدياق والشيخ إبراهيم اليازجي والارشمندريت الخوري غبريل جبارة لمناظرة مخالفيهم بالرأي وتصحيح أقوالهم على صفحات

---

(١) المصدر ذاته، ص ٨٣٠.

(٢) «باب المناظرة». **المقتطف** ج٦ (١٨٨١) ص ١٠٥. ورد هذا القول في كل عدد من اعداد المقتطف في «باب المناظرة».

(٣) سليم البستاني، «الإصلاح». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ١٨٠.

(٤) سليم البستاني، «أعجب العجب». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٦١٠.

(٥) سليم البستاني، «تذييل»: «أعجب العجب». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٦١١.

(٦) سليم البستاني، «الدولة العلية». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٣٥٣.

(٧) سليم البستاني، «الغرض». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٥٤٥، وج٢ (١٨٧١) ص ٦١٢.

الجنان. ولا بد من طرح هذه الأمور بالتالي.

أولاً: الجنان ومجلة النحلة.

كتب القس لويس صابونجي[1]، صاحب مجلة **النحلة**، فصولاً ضد **الجنان** و **الجنة** وندد بالمعلم بطرس البستاني وابنه سليم وخطأهما في بعض المسائل العلمية التي نشرت في مجلة **الجنان** «وتطرّق إلى مسائل سياسية ومناظرات دينية»[2] متجاوزاً حدود الاعتدال والأدب، فلم يدفعا ذلك التعدي بمثله ولكنهما استندا «إلى قوة الحكومة السنية التي تدفع عنا العدوان بدون أن ندنس أقلامنا بالطعن والشتائم والتهكم»[3]. فاصدر راشد باشا، والي سورية حينئذ، أمراً بتاريخ ٢٩ رمضان سنة ١٢٨٧ هـ/ ٢٣ كانون الأول سنة ١٨٧٠ م منبهاً صاحب **النحلة** بالاقلاع عن سلوك هذه الطريق «المنفورة من الحكومة»[4] والتي يجب منعها بالكلية «والتزام طريق الالفة وعدم التعرض لمثل هذه الخطب المنفورة»[5]. ولكن «**النحلة**» لم تصغ لهذه التنبيهات ولم ترعو بل صدر عدد ٣١ منها مملؤا طعناً مخلاً بالآداب وقدحاً ومذمة وقذفاً بحق صاحب **الجنان** ورئيس تحريرها فأمر الوالي راشد باشا بتاريخ ٥ شوال سنة ١٢٨٧ هـ/ ٢٩ كانون الأول سنة ١٨٧٠ م بتعطيلها ومنع طباعتها[6]. وعلق سليم البستاني على أمر التعطيل هذا بأنه أحجم عن الرد على افتراءات «**النحلة**» قياماً بحق تجنب النزاع الذي طالما صبونا إلى قطعة من ديارنا العربية»[7]. وناشد أصحاب الجرائد العربية «أبناء وطننا أن يرفعوا عن وطنهم الأثقال التي تنتج من المنازعات، وأن يفرغوا أوقاتهم لنشر الفوائد وترقية أسباب الإلفة والاتحاد»[8]. وأتت سياسة الانفتاح هذه وضبط النفس ورحابة الصدر التي كان يتحلى بها رئيس تحرير **الجنان** أكلها، حيث أتحف القس

---

(١) طرازي، **تاريخ الصحافة العربية**، ج٢ ص ٧١ ـ ٨١.
(٢) طرازي، **تاريخ الصحافة العربية** ج٢ ص ٤٩.
(٣) سليم البستاني، «تذييل: أعجب العجب». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٦١٣.
(٤) «ولاية سورية». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٧٧.
(٥) المصدر ذاته، ص ٧٩.
(٦) المصدر ذاته.
(٧) «ولاية سورية». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٧٧.
(٨) المصدر ذاته، ص ٧٩.

لويس صابونجي مجلة الجنان بمقالته «اللغات» و«القصيدة الكيماوية»[١] أي قدرة الخلاق في التركيب والتحليل وهي تعزية لصديقه فرنسيس ضاهر بوفاة شقيقه فرج الله.

ثانيا: الجنان والمجمع الفاتيكاني والبشير

اتهمت نشرة «المجمع الفاتيكاني» الصادرة عن الرهبنة اليسوعية في بيروت بعددها السابع عشر تاريخ ٢٣ نيسان ١٨٧٠ مجلة الجنان بانها تنقل أخبارها حول المجمع المنعقد في رومية سنة ١٨٧٠ عن صحف «شهيرة البغضة والعدوان لكنيسة رومية العظمى ولحبر الأحبار»[٢] فاحالها رئيس تحرير الجنان إلى الصفحة ٢٢٨ من سنة الجنان الأولى راجياً أن تحسن «مطالعة الجنان من الآن وصاعداً قبل أن تحكم بالتقصير عن القيام بحق النقل»[٣]. وذكر بأنه نقل أخبار مجمع رومية عن صحيفة السيفيلتا كاثوليكا (Civilta Catholica) وصحيفة الاونيفر (Univers) «اللتين نظن أنهما من الصحف الأعظم تعصباً لرومية»[٤] كما نقل عن صحف فرنسية كاثوليكية مثل الكوريار دوريان (Courier d'Orient) والديبا (Diba) «اللتين لا نعلم أنهما متعصبتان عليها»[٥]. وحث رئيس تحرير المجمع الفاتيكاني أن ينفي عن نفسه «الغرض والتعصب اللذين يظهران الأمور على غير ما هي عليه ويعميان البصيرة والبصر»[٦].

إن الجنان لم ترد أيضاً على انتقادات «الأديب الأريب الخواجا فرنسيس فتح الله مراش الحلبي»[٧] الواردة في عدد «المجمع الفاتيكاني» المذكور أعلاه، وذلك «مراعاة لأصول الجنان»[٨]. لا بل أخذها كل العجب من بعض ما كتبه ضدها لما تعرفه عن أفكاره «ونباهته ومعرفته بالجغرافيا والتاريخ وحبه للوطن وذلك بواسطة تآليفه، واخص معارفه، يحملنا على الثقة بان حذقه ونباهته الشخصية المذكورة وما يولده المستقبل

(١) المصدر ذاته.
(٢) لويس صابونجي. «اللغات». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ١٣٧ ـ ١٣٩. ٢٧٥ ـ ٢٧٦.
(٣) لويس صابونجي. «القصيدة الكيماوية». الجنان ج٦ (١٨٧٥) ص ٥٥١ ـ ٥٥٢.
(٤) «المجمع في رومية». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٢٦٤.
(٥) المصدر ذاته.
(٦) «المجمع في رومية». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٢٦٤.
(٧) المصدر ذاته.
(٨) المصدر ذاته.

ستكشف عن الحقيقة»[١]، وحثته على مطالعة **الجنان** بامعان وتدقيق مع نفي الغرض لأن ذلك يقوده «إلى تغيير فكره فيه وتجعله يبادر إلى ما كنا نؤمله من مساعدة قلمه الرائق، وأن يراجع نفسه ويرجع من دائرة المحاماة عن مدعيات أجنبية إلى دائرة المحاماة عن دائرة وطنه، فيحوز **الجنان** حينئذ نعمة في عينيه كما كان عندما قرظه متبرعاً»[٢]. وفعلا أتت هذه النصيحة أكلها فتجاوب المراش معها وأخذ بعدئذ يرسل بمقالاته إلى الجنان لأنها أصبحت، على حد تعبيره، «لنا نحن أبناء الشرق جناناً يزهو على كل روضة وبستان، وجنة فيها من كل فاكهة زوجان، فلا زلنا نقطف منه أثمار العلم والأدب. لا زال الله يقيم لكم فيه أعلى الرتب. فلتنعم أرواحنا به ونعم النعيم. ولتطب في ذلك المقبل الوسيم. حيثما تنمو فصائل الفضائل. وتسمو خمائل الجمائل»[٣].

أما فيما يتعلق بجريدة **البشير** فقد استنكفت **الجنان** عن الرد عليها لأن لا فائدة من الرد على الطعن والقدح[٤]، واحتفظت بمركزها الوقور التي لم تحد عنه. ولكنها سمحت للشيخ خطار الدحداح الذي كان ينشر في **الجنان** «تاريخ فرنسا الحديث» أن يصحح للبشير ما خفي عليها عندما انتقدت مدحه لاصلاحات موسيو طوركو (A.R.G Turco)[٥] المتعلقة بالغاء «النذر الرهباني». وذكر الدحداح أن مدحه هذا ليس مبنياً على كون آراء مسيو طوركو «موافقة أو غير موافقة للتعليم الكاثوليكي، ولكن بناء على كونها تراعي حقوق الهيئة الاجتماعية، وتعطي الشعب الحرية الحقيقية، وتجعل سلطة الملوك مقيدة بالقوانين العادلة التي من شأنها المحافظة عليها أن تزيد شعوبهم ثروة

---

(١) المصدر ذاته، ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٢) المصدر ذاته، ص ٢٦٥.

(٣) «ورد إلينا من حلب». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٣٩٧.

(٤) لعل سياسة عدم الرد على الطعن والقدح كانت بالإتفاق مع الدكتور كرنيليوس فان ديك. يذكر الدكتور يعقوب صروف أن أستاذه الدكتور فان ديك أشفق على منشيء **المقتطف** أن يضيعا وقتهما في الرد على طعن وقدح جريدة **التقدم**، وناشدهما أن يراعيا السكوت الموقر لأن الرد عليها دون قدرهما لخروجها عن آداب المناظرة. **المقتطف** ج٧ (١٨٨٣) ص ٧٦٠. و«تاريخ المقتطف والعلم في عشرين عاماً». **المقتطف** ج٢٠ (١٨٩٦) ص ٣٢٥.

(٥) «Turco, Anne Robert Jacques, 1727 - 1781. *E. Americana* (1970) Vol. 27 pp. 244 - 245.
شغل منصب المحاسب العام (Comptroller general) للويس السادس عشر، سنة ١٨٧٤ وصرف من الخدمة سنة ١٨٧٦.

وعظمة، وذلك لا ينافي المعتقد الكاثوليكي بوجه من الوجوه»[1].

ثالثا: الجنان والجوائب

لقد احجمت **الجنان** عن الرد على تطاولات الشيخ أحمد فارس الشدياق، صاحب **الجوائب**، والتهجم الشخصي، واستعمال «عبارات زقاقية يخجل رعاع الناس وأوباشهم وسفلتهم أن يأتوا بمثلها»[2]، والطعن الذي كان يكيله جزافاً للمعلم بطرس البستاني **والجنان**، وذلك لأن المماحكات الصبيانية ليست من مقاصدها[3]. ولكن المعلم بطرس البستاني رد على انتقادات الشدياق المتعلقة بكتابه «قطر المحيط» رداً موضوعياً مفندا مزاعمه[4]. وتمنى عليه أن يراعي «مبادىء الأدب وخير الوطن، ويعلم أن الفضل لا يسلم لأحد، وأن فوق كل ذي علم عليماً»[5]. وإذا ما فعل الشدياق ذلك ووجد البستاني، بعد تدقيق النظر، أنه أصاب في انتقاداته فإنه لا يتردد مطلقاً «عن التسليم به وتأدية فريضة الشكر لتلك اليد البيضاء التي اتحفتنا به، لأننا لا ندعي لنفسنا ولا لشيء من تآليفنا العصمة، لأن العصمة والكمال لله وحده، فهو حسبنا ونعم الوكيل»[6]. ولكن الشدياق لم يمتثل لذلك واستمرت الجوائب في هجومها على **الجنان** وصاحبه، فما كان من **الجنان** إلا أن تجاهلت ذلك كلياً [7].

رابعا: مناظرة الشدياق واليازجي على صفحات الجنان[8]

إن موقف **الجنان** هذا من الشيخ أحمد فارس الشدياق لم يمنعها من السماح

---

(١) خطار الدحداح، «رد مكاتب الجنان على البشير». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٤١٦.

(٢) بطرس البستاني، «الرد على محرر الجوائب». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٨٨.

(٣) المصدر ذاته.

(٤) بطرس البستاني، «الرد على محرر الجوائب». **الجنان** ج٣ (١٨٧٢) ص ٨٨ ـ ٩٢. انظر أيضاً أعلاه ص ٨٦.

(٥) «الرد على محرر الجوائب». ج٣ (١٨٧٢) ص ٩٠.

(٦) المصدر ذاته، ص ٩٢.

(٧) تهجمات الشدياق وردت في الأعداد التالية من **الجوائب**، العدد ٥٣١ (١٨٧١) ص ٢ ـ ٣. العدد ٥٣٢ (١٨٧١) ص ٤. العدد ٥٣٦ (١٨٧١) ص ١. «قصيدة هجو المعلم بطرس البستاني». **الجوائب** العدد ٥٧٢ (١٤ شباط ١٨٧٢) ص ٢.

(٨) **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ٤٠٨ ـ ٤١٢، ٦٦٨ ـ ٦٦٩، ٧٢٩ ـ ٧٤٠، ٧٦٥ ـ ٧٧٦، ٨٠٦ ـ ٨١١، ٨٣٥ ـ ٨٤٢.

بأجراء المناظرة التي دارت بينه وبين الشيخ إبراهيم اليازجي حول لفظتي الفحطل والمرابض الواردتين في ديوان الشيخ ناصيف اليازجي، بدون أن تنحاز إلى أي من الفريقين المتخاصمين. مع العلم أن مجلة النجاح، التي كان يرأس تحريرها الشيخ إبراهيم اليازجي[1] أوردت وجهة نظره فقط، كما أن الجوائب أوردت وجهة نظر صاحبها الشيخ أحمد فارس الشدياق فقط[2]. لقد أوضح اليازجي في رده على اعتراضات الشدياق بأنه ليس ممن يتهافتون إلى التخطئة والانتقاد لغرض ما وأنه شديد الكراهية للهجاء وكان بوده «استئصال هذه العرق من بيننا»[3] لو أن الشدياق وافق على ذلك وحافظ على عهده مع والده الشيخ ناصيف اليازجي ولم يتجاوز إلى أمر الهجاء[4]. ويظهر أن اليازجي الأبن ورث كراهية الهجاء عن والده. كما كان البستاني يكره هذه الخصلة المقيتة. وللدلالة على ذلك يروي البستاني أنه زار الشيخ ناصيف اليازجي في أحد أيام شهر كانون الثاني سنة ١٨٧٠ وخاض معه في الحديث سائلاً عن عدد القصائد التي نظمها في الهجاء: «قال: ولا قصيدة. قلت: أما هجوت أحداً؟ قال: لم أهج قط إلاّ رجلاً بخيلاً، قلت فيه بيتين، وهما:

قد قال قوم إن خبزك حامض   والبعض أبدى بالحلاوة حكمه
كذب الجميع بزعمهم في طعمه   مـن ذاقـه يـومـاً ليعـرف طعمـه

قلت: أما لك غيرها؟ قال: لي بيت آخر صرّح فيه باسم المهجو ولذلك لا أريد اشهاره». وعلق البستاني على هذه المزية الحميدة بقوله: «فاستغربت ذلك، وقلت إن الشاعر قد يكتسب شهرة لا مزيد عليها وإن لم يكن هجاء»[5]. وهذا كل ما كان ينشده البستاني، شهرة تقوم على العمل البناء بعيدة كل البعد عن الهجاء.

---

(١) إبراهيم اليازجي. «الرد على صاحب الجوائب». النجاح ج٣ (١٨٧٢) ص ٨٧ ـ ٨٨.
(٢) أحمد فارس الشدياق. «الرد على إبراهيم اليازجي». الجوائب العدد ٥٦٦ (١٨٧٢) إلى العدد ٥٨٦ (١٨٧٢).
(٣) إبراهيم اليازجي. «رد الشيخ إبراهيم اليازجي». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٨٤٢.
(٤) المصدر ذاته. وذكر عيسى اسكندر المعلوف أنه اثر هذه المناظرة: «احتكت الأفكار ومال الناس إلى المطالعة... وهكذا فتح باب التحقيق والإنتقاد». «الصحافة العربية»، النعمة ج٢ عدد ١٢ (أيار ١٩١١ ص ٧١٩).
(٥) «نادرة». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٤٣.

خامسا: مناظرة فرنسيس فتح الله مراش ورزق الله الياس حجي على صفحات الجنان[١]

كتب فرنسيس فتح الله مراش مقالة نشرتها الجنان تحت عنوان «سياحة العقل». وكانت مبنية على أربعة تلال: أولاً ـ تل الظلم. ثانياً ـ تل العبودية. ثالثاً ـ تل الزور. رابعاً ـ تل الحرب. فانبرى لها رزق الله إلياس حجي، أحد معلمي مدرسة تيراسانتا بحلب التابعة لطائفة اللاتين الكاثوليكية. وافسحت الجنان للمراش المجال للدفاع عن آرائه على صفحاتها، كما سمحت للحجي بالرد عليه. وجرت بين الاثنين مناظرة على ست حلقات، انتهت «بنصرة السلامة في المناقشة»[٢] على يد الأب لودفيكو، رئيس مدرسة تيراسانتا بحلب. فعلق البستاني على هذه النهاية الحسنة بقوله: «ويا حبذا لو اقتدى كل الأدباء بهم ومالوا عن سبيل النزاع والخصام والطعن والقذف وسلوك السبيل الذي يأتي الأمة والدولة بفائدة وتقدم. فنهنيء المتصالحين كل التهنئة ونتمنى لهم كل النجاح والخير في كل حال»[٣]. أن احترام آراء الخصم في أي صراع فكري ومقارعته الحجة بالحجة هي أفضل سبل الحوار البناء.

سادساً: اعتراضات الأرشمندريت الخوري غبريل جبارة على آراء الجنان[٤]

برّر سليم البستاني في روايته «الهيام في جنان الشام» المنشورة في الجنان [٥]

---

(١) «سياحة العقل». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٢٦٩ ـ ٢٧٣، ٣٩٧ ـ ٣٩٨، ٤٨٥ ـ ٤٨٦، ٥٥٧ ـ ٥٦٠، ٦١٦ ـ ٦١٩، ٦٦٠ ـ ٦٦٢.

(٢) «رسالة من حلب». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٦٦٠.

(٣) المصدر ذاته.

(٤) وصفه فارس نمر بأنه قطب «من أقطاب الطوائف المسيحية وهو نائب بطريرك الطائفة الأرثوذكسية، وكان من أبلغ خطبائها ومن أكبر علمائها المعدودين في زمانه وله منزلة سامية لجلالة قدره، ولكلامه نفوذ عظيم». فارس نمر. «بعد ستين سنة: ذكريات في عهد الصبا». المقتطف ج٨٨ (١٩٣٦) ص ٥٨٦. وقال عنه الأب لويس شيخو بأنه «أحد الذين عدلوا جهلاً عن الكثلكة إلى الأرثذكسية بسبب تغيير الحساب. توفي سنة ١٨٧٨ في أزمير. وله كتابات جدلية لتأييد رأيه الباطل في الحساب الشرقي وبعض كتب دينية ومواعظ. شيخو، الآداب العربية في القرن التاسع عشر، ج٢ ص ٥٧. وكان أحد أعضاء جمعية شمس البر. النشرة الأسبوعية ج٦ (١٨٧٦) ص ١٠٩.

(٥) سليم البستاني، «الهيام في جنان الشام». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٣٥٠.

لبطلة الرواية «وردة» اللجوء إلى استعمال الكذب، لأن الضرورات تبيح المحظورات، وحمل ذلك «على ما قاله إبراهيم لأبي مالك أن سارة اخته[١] حال كونها امرأته، إلى غير ذلك من تجوزات الأنبياء الكرام»[٢]. فوردت رسالة إلى الجنان من الأرشمندريت الخوري غبريل جبارة، المأمور البطريركي لطائفة الروم الأرثوذكس في بيروت، أتى فيها على تحريم الكذب «ليس كمرشد بل كمذكر»[٣] كما جاء في الكتاب المقدس حول النهي عن الكذب، وآخرها قول السيد المسيح: «ليكن كلامكم نعم نعم لا لا. وما زاد على ذلك فهو من الشرير»[٤]. وختم رسالته بقوله: «إن الله، جل جوده، خلق أفواهنا وشفاهنا والسنتنا لتمجيده وتسبيحه، فلا ندنسها إذاً بنجاسة الكذب، بل نقدسها بنقاوة الصدق. هكذا رسم تعالى اسمه في التوراة والإنجيل الشريفين، وإن لم نحفظ مراسيمهما فلسنا على هدى»[٥]. لم يثر هذا الانتقاد حفيظة سليم البستاني لإيمانه أن الجاهل الذي لا يعلم أصول الجدال «يغتاظ عند ظهور أفكار مخالفة لأفكاره»[٦]، كما أن هناك بعض الأشخاص «يستحون بالرجوع عن رأيهم، ولو كان خطأ، وهذا عناد. والعناد عار إذا أصر صاحبه على التمسك بالخطأ والفضل في إقرار العاقل بخطائه والرجوع عنه عندما يبدو له»[٧]. ولذلك أخذ، بأول مناسبة سنحت له للتطرق إلى هذا الموضوع، يندد بالكذب والكذابين معتبراً الكذب «آفة تهلك آداب الأمة وتثلم صيتها»[٨] لأنه «من الأمور التي تشين الإنسان جداً»[٩] وأنه «يقدر أن يدوس كل بساط، وأن يدخل كل ربع، فأنه كالنعاس يدخل في الإنسان دون أن يدري»[١٠].

---

(١) تكوين ٢٠: ٢.
(٢) سليم البستاني، «الهيام في جنان الشام». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٣٥٠.
(٣) غبريل جبارة. «تحريم الكذب». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٤٠٢.
(٤) متى ٥: ٣٧.
(٥) غبريل جبارة. «تحريم الكذب». الجنان ج١ (١٨٧٠) ص ٤٣٥.
(٦) سليم البستاني، «بنت العصر». الجنان ج٦ (١٨٧٥) ص ٦٨.
(٧) سليم البستاني، «الهيام في فتوح الشام». الجنان ج٥ (١٨٧٤) ص ٦٤٥.
(٨) سليم البستاني، «الإصلاح». الجنان ج٢ (١٨٧١) ص ٢١٥. انظر أعلاه ص ٤٤ هامش رقم ٢.
(٩) المصدر ذاته.
(١٠) المصدر ذاته.

ويظهر أن الارشمندريت جبارة كان يتمتع بمنزلة سامية في تلك الحقبة وكان لكلامه نفوذ عظيم. ويستدل على ذلك مما جاء على لسان الدكتور فارس نمر، أحد منشيء **المقتطف** والمعاصر له، بأن مقالة الأرشمندريت «ثبوت دوران الأرض»[١] المعترضة على مقالة «دوران الأرض»[٢] للدكتور نمر كادت تقضي على **المقتطف** «كما قضي على العلامة غليليو لقوله أن الأرض تتحرك والشمس ثابتة»[٣] لو لم تأتيه النجدة من مصر برد عبد الله فكري[٤] المؤيد **للمقتطف** حول هذا الموضوع، حيث «خرج **المقتطف** من هذه المعمعة فائزاً»[٥].

ومهما يكن من أمر، إن سليم البستاني كان يسلم بحرية التعبير عن الرأي وبتباين الأفكار دون اثارة الضغائن والأحقاد بين المتناظرين «لأن حفظ الود»، على حد تعبيره، «مع تباين الأفكار والآراء والصوالح أو بالحري إبداء الأفكار المتباينة دون نفور ومخاصمة هو من الأمور التي أعتبرها جداً لأنها تظهر أن من يفعلها مسلم بأن لمن يكلمه حقاً أن يبدي أفكاره وله الاختيار بقبول ما يستحسن ورفض ما يستقبح»[٦]. وهذه الوسيلة في إجراء المناظرات بين المتخاصمين فكرياً هي من أفضل الوسائل الموضوعة للوصول إلى إدراك كنه الحقيقة التي ينشدها جميع المخلصين، «فالاقناع هو القوة التي لها فِعْلٌ في الإنسان العاقل أشد من فعل السيف»[٧].

---

(١) غبريل جبارة. «ثبوت دوران الأرض. **المقتطف** ج١ (١٨٧٦) ص ١٧١ ـ ١٧٤، ٢٦٥ ـ ٢٦٧.

(٢) فارس نمر. «دوران الأرض». **المقتطف** ج١ (١٨٧٦) ص ١٤١ ـ ١٤٤.

(٣) فارس نمر. «بعد ستين سنة: ذكريات في عهد الصبا». **المقتطف** ج٨٨ (١٩٣٦) ص ٥٦٨.

(٤) عبد الله فكري. «رد عبد الله فكري». **المقتطف** ج١ (١٨٧٦) ص ٢١٧ ـ ٢٢٠.

(٥) فارس نمر. «بعد ستين سنة: ذكريات في عهد الصبا». **المقتطف** ج٨٨ (١٩٣٦) ص ٥٦٨.

(٦) سليم البستاني، «الهيام في جنان الشام». **الجنان** ج١ (١٨٧٠) ص ٩٠.

(٧) سليم البستاني، «الإنسان». **الجنان** ج١١ (١٨٨٠) ص ٣٦٩.

الخلاصة

إن إصلاح الفرد والهيئة الاجتماعية وتقدمهما وتمدنهما وتحقيق الحرية والعدالة والمساواة ونشر المعرفة بين أبناء الوطن كان الشغل الشاغل للمعلم بطرس البستاني وبكر أولاده سليم في كل عمل من الأعمال التعليمية والثقافية والأدبية التي قاما بها. لقد كرّسا جلّ جهدهما من أجل تحقيق هذه الغاية التي كانا ينشدانها، مقاومين الحروب الأهلية الناتجة عن الجهل والتعصب مقاومة شديدة، وداعين إلى الالفة والاتحاد والتسامح والوحدة الوطنية بين مختلف الطوائف، وقائلين بالفصل التام بين الدين والدولة وإبدال الولاء للدين بالولاء للوطن. لأنه، على حد تعبير سليم البستاني، لا يستقيم لأبناء الوطن أمر ولا يرتفع لهم شأن ولا يرتاح لهم بال ما لم يلموا شعثهم ويديروا أمورهم «بإجابة دواعي حب الوطن ونبذ الإنشقاق والتعصب والغرض والرشوة والتواني والكسل»[1] موجهين كل اهتمامهم إلى غرس التربية القويمة واكتساب المعارف و«إضرام نيران محبة المبادي الصحيحة»[2] بين صفوفهم.

و«ربما»، على حد تعبير جورج أنطونيوس صاحب كتاب **يقظة العرب**، «بدا لنا هذا الكلام الآن تافهاً لا جديد فيه، ولكن بلاد الشام لم تكن قد سمعت بمثله من قبل، وكان يشتمل في طياته على نواة الفكرة الوطنية»[3]. ولكن تكرار الحوادث الدامية في النصف الثاني من القرن العشرين دلت على خلاف ذلك وبرهنت أن «أبناء الوطن» في الربع الأخير من القرن العشرين، كما كان الحال مع أجدادهم «أبناء الوطن» في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، هم بمسيس الحاجة إلى «رخومة صوت محب للوطن»[4] ليقرع أذهانهم بوطنياته الصادقة منبهاً إلى «شر نتائج الحروب الأهلية»، ويدعوهم ألا

(١) سليم البستاني. «جملة سياسية». **الجنان** ج٩ (١٨٧٨) ص ٥١١.

(٢) سليم البستاني. «الإصلاح». **الجنان** ج٢ (١٨٧١) ص ١٧٩، ٢١٣.

(٣) جورج انطونيوس. **يقظة العرب**، ص ١١٣.

(٤) **نفير سورية** أو الوطنية الخامسة. بيروت في أول تشرين الثاني ١٨٦٠ سطر ٣٨.

يخدعوا أنفسهم عند اكتسابهم للمدنية الحديثة فيقبضون «الدرهم الزائف مع الدينار الخالص، ويرقعون أثواباً بالية بخرق جديدة»(١).

يعتبر المعلم بطرس البستاني من رواد «النهضة» الأوائل في القرن التاسع عشر لما له من أياد بيضاء على هذه النهضة من كل جوانبها وذلك بحكم إطلاعه الواسع على مناحي الحضارة الغربية بحيث «كانت قدرته كبيرة على تمثل المعرفة وهضمها، وكان نتاجه الأدبي من الوفرة بحيث يساعد نهمه في طلب العلم»(٢) الشيء الذي جعل معاصره هنري جسب، المرسل الأميركي الذي عرفه عن كثب مدة ٢٧ سنة، يذكر أن المعلم بطرس البستاني أصبح، حين وفاته، يعتبر «أكثر الرجال علماً ونشاطاً ونجاحاً ونفوذاً في سوريا الحديثة»(٣).

ويعترف الدكتوران يعقوب صروف وفارس نمر، منشأ المقتطف، بفضل الجنان وكل من المعلم بطرس البستاني وولده سليم عليهما وعلى المقتطف، وذكر أنه طالما أشاد المقتطف بمآثرهما «فأثنى على عظيم همتهما لأنهما مهدا له الطريق وجارياه بالجنان مجاراة الصديق للصديق»(٤).

هذا ولم يقتصر أثر المعلم بطرس البستاني على أبناء القرن التاسع عشر فقط بل تعدى ذلك إلى أبناء القرن العشرين حيث يذكر الدكتور فؤاد أفرام البستاني(٥) ما للمعلم بطرس البستاني من تأثير عليه فيقول: «أخذت من المعلم بطرس البستاني فكرة إفادة النشء، وهو الذي كانت كل أشغاله في سبيل التربية وتحضير نشء مثقف يكون في المستوى الحضاري اللائق»(٦).

---

(١) نفير سورية أو الوطنية الحادية عشرة. بيروت في ٢٢ نيسان ١٨٦١ سطر ٤٦ ـ ٤٧ انظر أعلاه ص ٤٤.

(٢) جورج أنطونيوس. يقظة العرب، ص ١١٣.

(٣) كمال الصليبي. تاريخ لبنان الحديث. بيروت: دار النهار، ١٩٦٧، ص ١٨٦. Jessup. *Fifty Three Years in Syria*, p. 483.

(٤) «ضريح البستانيين». المقتطف ج٩ (١٨٨٥) ص ٣٧٨.

(٥) عاد الدكتور فؤاد أفرام البستاني سنة ١٩٥٥ إلى مشروع نسيبه المعلم بطرس البستاني فأخذ منه العنوان دائرة المعارف وعبارة «قاموس عام لكل فن ومطلب». وصدر من دائرته حتى الآن (١٩٧٦) ١١ جزءاً.

(٦) «دائرة المعارف ذات المجلدات ال ٢٥». النهار. العدد ١٢٥٨٦ تاريخ ٣١ آب ١٨٧٥ ص ٧.

لا شك أن ذكرى المعلم بطرس البستاني والأعمال الجبارة التي قام بها حرية بالتنويه بها والعناية بإحيائها واستخراج العبرة منها لما بذله من محاولة مخلصة في وضع أسس «النهضة» في القرن التاسع عشر. ففي ذكرى الرعيل الأول من رواد «النهضة» الذين تقدمونا «تنطوي رسالة ما أحوجنا إلى تمليها والإهتداء بها»[1].

---

(1) فؤاد صروف. «يعقوب صروف». رسالة العلم ج٢٥ (١٩٥٨) ص ٤٠١.

المصادر والمراجع

أولاً ـ الكتب

- **أعلام المقتطف**. القاهرة، مطبعة المقتطف، ١٩٢٧.

انطونيوس، جورج. **يقظة العرب**.. ترجمة ناصر الدين الأسد ومراجعة إحسان عباس. بيروت، مؤسسة فرنكلين، ١٩٦٢.

البستاني، بطرس.

- **أعمال الجمعية السورية**. بيروت، ١٨٥٢.
- **التحفة البستانية في الأسفار الكيروزية**. بيروت، المطبعة الأميركية، ١٨٦١.
- **خطاب في آداب العرب**. بيروت، المطبعة الأميركانية، ١٨٥٩.
- **خطاب في الهيئة الاجتماعية**. بيروت، مطبعة المعارف، ١٩٦٩.
- **خطبة في آداب العرب**. بيروت، لا . ت.
- **دائرة المعارف**. بيروت، مطبعة المعارف، ١٨٧٦ ـ ١٨٨٤ : ٧ ج
- **قطر المحيط**. بيروت، مطبعة المعارف، ١٨٧٠. ٢ ج
- **محيط المحيط**. بيروت، مطبعة المعارف، ١٨٦٩ ـ ١٨٧٠. ٢ ج

البستاني، سليمان. **عبرة وذكرى**. القاهرة، ١٩٠٨.

البستاني، فؤاد إفرام. **المعلم بطرس البستاني** (سلسلة الروائع رقم ٢٢) طبعة ثانية. بيروت، الآداب الشرقية، ١٩٥٠.

البستاني، ملحم إبراهيم. **كوثر النفوس سفر الخالدين**. جونية، ـ مطابع المرسلين اللبنانيين، ١٩٥٤.

حتي، فيليب. **لبنان في التاريخ**. ترجمة أنيس فريحة ومراجعة نقولا زيادة. بيروت، مؤسسة فرنكلين، ١٩٦٠.

الخوري، شاكر. مجمع المسرات. بيروت، مطبعة الاجتهاد، ١٩٠٨.
خوري، يوسف. «الدكتور كرنيليوس فان ديك ونهضة الديار الشامية في القرن التاسع عشر». رسالة مجستير. الجامعة الأميركية في بيروت.
داغر، يوسف أسعد. مصادر الدراسة الأدبية. بيروت، ١٩٥٥ ـ ١٩٧٣. ج ٢ ـ ٣.
الزركلي، خير الدين. الاعلام. القاهرة، مطبعة كونستاتسوماس، ١٩٥٦. ١٠ ج.
زيدان، جرجي. تراجم مشاهير الشرق. القاهرة، مطبعة الهلال، ١٩٠٧
زين، زين نور الدين. نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية (طبعة ثانية). بيروت، دار النهار، ١٩٧٢.
سالنامه ولاية سورية. ١٢٩٠ هـ/ ١٨٧٣ م ـ ١٣١٢ هـ/ ١٨٩٤ م.
سباين، جورج. تطور الفكر السياسي. ترجمة جلال العروسي. القاهرة، مؤسسة فرنكلين، ١٩٥٤.
سركيس، سليم. سر مملكة. مصر، ١٨٩٥.
سركيس، سليم. غرائب المكتوبجي. مصر، ١٨٩٥.
سركيس، يوسف اليان. معجم المطبوعات العربية والمعربة. القاهرة، مطبعة سركيس، ١٩٢٨.
الشدياق، سليم أحمد. كنز الرغائب في منتخبات الجوائب.
شيخو، لويس. الآداب العربية في القرن التاسع عشر. بيروت، المطبعة الكاثوليكية، ١٩٢٦ (طبعة ثانية)
الصليبي، كمال سليمان. تاريخ لبنان الحديث. بيروت دار النهار ١٩٦٧. ص ١٧٤: ١٧٦: ١٨٤ ـ ١٨٩: ١٩٧: ٢٢٥
صمليز، صموئيل. سر النجاح. ترجمة يعقوب صروف. القاهرة، مطبعة المقتطف، ١٨٨٦ (طبعة ثانية). ص ٢١٦ ـ ٢١٩
طرازي، فيليب دي. تاريخ الصحافة العربية. بيروت، المطبعة الأدبية، ١٩١٣ ـ ١٩٣٣.
كحالة، عمر رضا. معجم المؤلفين. دمشق، مطبعة الترقي، ١٩٥٦.
نجم، محمد يوسف. القصة في الأدب العربي الحديث. بيروت، دار الثقافة، ١٩٦٦.
نصار، حسين. المعجم العربي نشأته وتطوره. القاهرة، ١٩٥٦.
اليازجي، إبراهيم. تنبيهات اليازجي على محيط البستاني. جمع سليم شمعون وجبران نحاس. الاسكندرية، مطبعة صلاح الدين، ١٩٣٣. ج ١.

A Brief Chronicle of the Syria Mission. Beirut, American Press, 1909.

A Brief Documentary History of the Translation of the Scriptures into the Arabic Language. American Press, 1900.

Jessup, H. *Fifty three years in Syria.* New York, Revell. 1910 (2 vol.s)

ثانيا: النشرات الدورية

البشير (جريدة ـ بيروت ـ الرهبنة اليسوعية). ١٨٧٠ ـ ١٨٨٦

ثمرات الفنون (جريدة ـ بيروت ـ عبد القادر القباني). ١٨٧٥ ـ ١٨٨٦

الجنان (مجلة ـ بيروت ـ سليم البستاني). ١٨٧٠ ـ ١٨٨٦

الجنة (جريدة ـ بيروت ـ سليم البستاني). ١٨٨٠ ـ ١٨٨٣

الجوائب (مجلة ـ الاستانة ـ أحمد فارس الشدياق). ١٨٦٩ ـ ١٨٧٣

لسان الحال (جريدة ـ بيروت ـ خليل سركيس). ١٨٧٧ ـ ١٨٨٦

لغة العرب (مجلة ـ بغداد ـ الاب انستاس ماري الكرملي). ج ٤ (١٩٢٥) ـ ج ٧ (١٩٢٩)

المقتطف (مجلة ـ بيروت ثم القاهرة ـ يعقوب صروف وفارس نمر). ١٨٧٦ ـ ١٨٨٦

النشرة الأسبوعية (بيروت ـ الإرسالية السورية). ١٨٧١ ـ ١٨٨٦

نفير سورية (نشرة ـ بيروت ـ بطرس البستاني) عدد ١ تاريخ ٢٩ أيلول ١٨٦٠ ـ عدد ١١ تاريخ ٢٢ نيسان ١٨٦١

The Missionary Herald (Boston - A.B.C.F.M) Vol. 36 (1840) - Vol. 66 (1870);

ثالثا ـ المقالات

«البستاني». **دائرة المعارف**. بيروت، مطبعة المعارف، ١٨٨١ ج ٥ ص ٤١٥ ـ ٤١٦

البستاني، سليم. «إن التي تهز السرير بيسارها تهز الأرض بيمينها». **المقتطف** ج ٧ (١٨٨٣) ص ٧٠٩ ـ ٧١٢: وج ٨ (ص ٧ ـ ١٢)

«الجائزة البستانية». **المقتطف** ج ٩ (١٨٨٥) ص ٥٦١ ـ ٥٦٢. **والجنان** ج ١٦ (١٨٨٥) ص ١٦٣

«جريدة». **دائرة المعارف**. بيروت، مطبعة المعارف، ١٨٨٣. ج ٦ ص ٤٤٦ ـ ٤٤٧

خير الله، أسعد. «مذكرات». **العيد المئوي لنقل المطبعة الأميركانية ١٨٣٤ ـ ١٩٣٤** بيروت، ١٩٣٤:

«دائرة المعارف». **دائرة المعارف**. بيروت، مطبعة المعارف، ١٨٨٤ ص ٥٨٩ ـ ٦٠٨.

شيخو، لويس. تاريخ فن الطباعة في المشرق. **المشرق** ج ٣ (١٩٠٠) ص ٧٨: ١٧٤: ٢٥١: ٣٥٥: ٥٠١: ٧٠١ (لها تتمة).

شرارة، رياض. «فؤاد افرام البستاني يرد على منتقديه: دائرة المعارف اللبنانية أفضل عمل موسوعي صدر حتى اليوم». **الحوادث**. تاريخ ٢٧ أذار ١٩٧٠ ص ٣٤ ـ ٣٥.

صالح، نجيب. «سليم افندي بطرس البستاني أول داعية للثقافة العربية في زمن الاتراك». ـ **الانوار** ـ الملحق ـ العدد ٢٩٨١ تاريخ ١٦ شباط ١٩٦٩ ص ١٨.

صروف، فؤاد. «تطور الفكر العلمي في المئة العام الأخيرة». **الابحاث** ج ١٥ (١٩٦٢) ص ١٥١ ـ ٢١٢

صروف، يعقوب. «تاريخ المقتطف والعلم في عشرين عاماً». **المقتطف** ج ٢٠ (١٨٩٦) ص ٣٢١ ـ ٣٢٨.

«ضريح البستانيين». **المقتطف** ج ٩ (١٨٨٥) ص ٢٧٨

ضومط، جبر. «نحن والدستور». **المقتطف** ج ٣٣ (١٩٠٨) ص

«عادات الكتّاب في الشرق». **الهلال** ج ١٣ (١٩٠٥) ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣

فارس، نبيه أمين. «مقدمة». **كتاب يقظة العرب** لجورج انطونيوس. بيروت، مؤسسة فرنكلين ١٩٦٢.

فان ديك، كرنيليوس. «الخطبة السنوية». **المقتطف** ج ٧ (١٨٨٣) ص ٦٤١ ـ ٦٤٧.

فان ديك، كرنيليوس. «مذكرات الدكتور فان ديك من سنة ١٨٣٩ ـ ١٨٥١». **الهلال** ج ١٤ (١٩٠٦) ص ١٩٥ ـ ٢٠٥: ٢٧٣ ـ ٢٨٠

الكرملي، انستاس ماري. «معلمة». **المجمع العلمي العربي** ج ٣ (١٩٢٣) ص ٥٦ ـ ٥٨ ١١٦ ـ ١٢١.

لوريول، أسيدي. «في الروايات الخيالية». **المشرق** ج ١ (١٨٩٨) ص ٤٦٣ ـ ٤٦٥: ٥٦١ ـ ٥٦٣: ٦٥٢ ـ ٦٥٧.

«المدرسة الوطنية». **الجنان** ج ٤ (١٨٧٣) ص ٦٢٦ ـ ٦٢٨

«المرحوم بطرس البستاني». **المقتطف** ج ٨ (١٨٨٣) ص ١ ـ ٧. **واعلام المقتطف** ج ١ ص ١١٨ ـ ١٢٨.

المعلوف، عيسى اسكندر. «الصحافة العربية». **النعمة**. العدد ١٢ (١١ أيار ١٩١١) ص ٧١٨ ـ ٧٢٦

مكاريوس، شاهين. «المعارف في سورية». **المقتطف** ج ٧ (١٨٨٣) ص ٣٨٥ ـ

٣٩٣: ٤٦٠ ـ ٤٧٦: ٥٢٩ ـ ٥٣٧.

«الموسوعة العربية هل يمكن تحقيقها». الهلال ج ٤٤ (١٩٣٦) ص ٧٣٦ ـ ٧٣٨.

نمر، فارس. «بعد ستين سنة: ذكريات في عهد الصبا». المقتطف ج ٨٨ (١٩٣٦) ص ٥٦١ ـ ٥٧٠

Hartmann, Martin. «Encyclopedie Arabe Bd I - III» *ZDMG.* Vol. 34 (1880) p. 582

Smith, Eli «Gesellschaft der Kunste und Wissensehaften in Beriut». *ZDMG.* Vol. 2 (1848) pp. 378 - 384

Tibawi, A .L. «The Amrican Missionaries in Beirut and Butrus al - Bustani». *Middle Eastern Affairs.* St. Anthony's papers. NO. 16 (London, 1963) pp. 137 - 182

Zolondek, Leon. «Socio - Political views of Salim al - Bustani 1848 - 1884». *Middle Eastern Studies.* Vol. 2 (1965 - 1966) pp. 144 - 155.



الفهرس العام

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

- ش -

- ص -

- ض -

- ط -

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

ـ ن ـ






Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إن «ترقية أسباب تقدم الوطن» كانت دائماً نصب عيني «محب الوطن» في كل عمل من الأعمال الجبارة التي قام بها كما يحدثنا بذلك المرسل الأميركي الدكتور كرنيليوس قان ديك (Cornelius Van Dyck) زميله في التأليف والتدريس، عن حادثة جرت بينهما عندما دارت دواليب المطبعة الأميركانية في بيروت لأول مرة على الآلة البخارية حيث تفرس فيها المعلم بطرس البستاني هنيهة ثم قال: «هل فهمت ما تقوله هذه المطبعة». قلت: «لا». قال: «كأني كلما دارت دورة سامعها تقول إني لإفادة سورية. إني لإفادة سورية». وأضاف الدكتور قان ديك معلقاً على ذلك بقوله: «ومنذ عرفته (سنة ١٨٤٠) إلى آخر حياته (سنة ١٨٨٣) كلما شرع في عمل لم أسمعه قط يسأل: كم استفيد من هذا العمل، بل، كم يؤول هذا العمل إلى إفادة سورية. فضعوا يا شبان سورية هذه القدوة أمامكم واقتدوا بجبار الأعمال وكلما شرعتم بعمل ليكن سؤالكم مثل سؤاله كم يفيد هذا العمل سورية واقتدوا بجهده الذي لم يعرف التعب ولا الكلال» (ص ١٢١ ـ ١٢٢)

تصميم الغلاف
Ideal Adv.

التوزيع **بيسان**. ص.ب: 5261 ـ 13، بيروت ـ لبنان. هاتف: 353796 - 351269